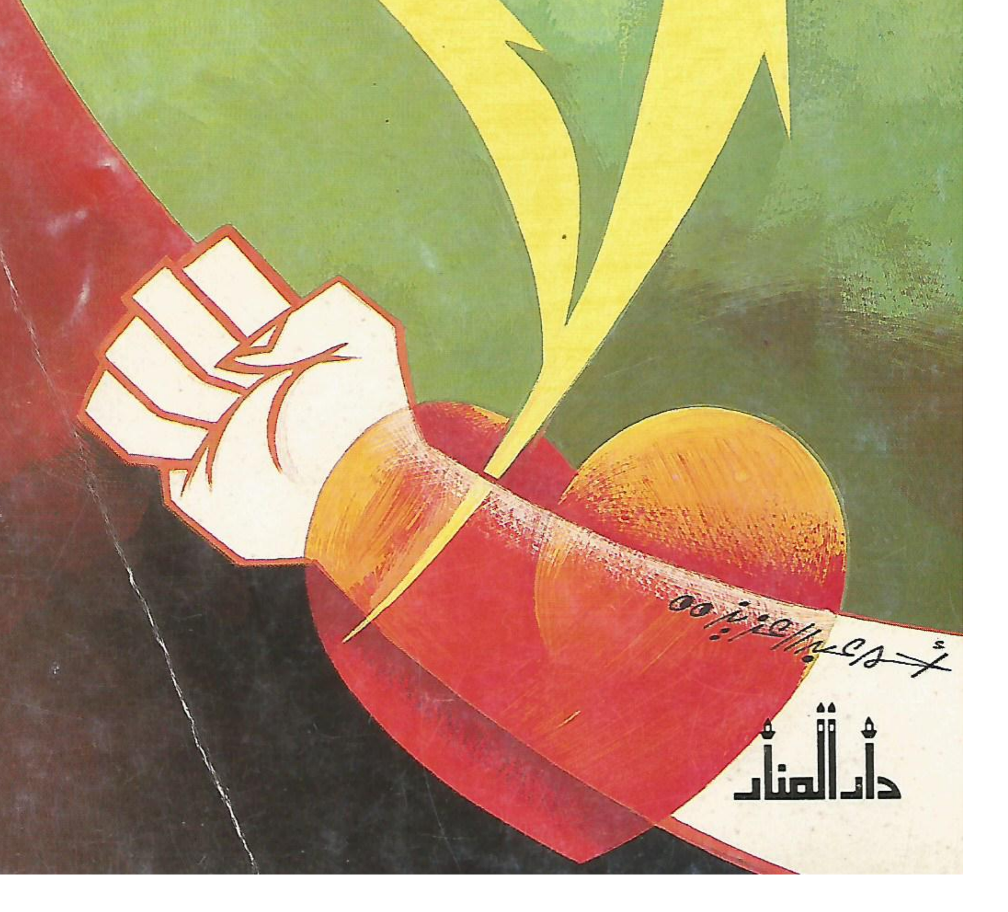
من الذى يغيّر المنكر؟ وكيف؟

الدكتور/ محمود محمد عمارة



من الذى يغيّر المنكر وكيف ؟

دكتور محمود محمد عمارة

دار المنار

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

دار المنار
للطبع والنشر والتوزيع
٩ شارع الباب الأخضر ميدان الحسين القاهرة
ص.ب ٦١ هليوبولس ت : ٩١٥٠٨٥

« من رأى منكم منكراً فليغيره

بيده فإن لم يستطع ... فبلسانه

فإن لم يستطع ... فبقلبه

وذلك أضعف الإيمان »

(البخارى - كتاب الإيمان)

الفهرس

* * *

رقم الايداع ٢٠٥٦ / ١٩٩٢

بسم الله الرحمن ارحيم

تمهيد

إذا كان فى الإمكان اكتشاف علل الأبدان بآثارها الدالة عليها : فى تعبيرات الوجوه .. وحركات العيون .

وإذا كنا نلجأ إلى الطبيب فى محاولة للقضاء عليها .. أو التخفيف من حدتها .. فإنه - بالنسبة لعلل النفوس - لايتيسر معرفتها بالعين المجردة .

وإذا عرفت فعلى المدى الطويل ..

إن سريانها فى حنايا النفس .. وزوايا المجتمع . أخفى من دبيب النمل .

ومن ثم .. فقد لانحس بها .. وبالتالى لانلجأ بسببها إلى طبيب .. فتستشرى .. وتتسلل إلى أعماقنا .

وإذن .. فنحن فى حاجة إلى أطباء من طراز خاص :

تستبطن هذه العلل .. راجعة بها إلى أصولها فى كيان الإنسان .. بغية تطويقها . والقضاء عليها .

أطباء .. يكتشفون هم العلة بأبصارهم وبصائرهم ولاينتظرون حتى يهرع إليهم المرضى !

إنهم نقاد اجتماعيون .. يجوسون خلال النفوس .. بالعقول الذكية والقلوب الهادية..

وعندئذ : يصحو النائم .. ويتذكر الناسى ..

ويتنبه الغفلان .. وينشط الكسلان .

* * *

• صعوبة النهى عن المنكر :

وإذا كان الأمر بالمعروف : بذراً للفضائل فى أرض النفوس .. لتنبت الخضرة فى أرجائها .. فإن النهى عن المنكر لازم .. تطهيراً للأرض .. وتنحية للأشواك .. وإزالة للحشائش الطفيلية التى تمتص رحيق الخضرة فتجف أعوادها ..

والقاعدة هى : التخلية قبل التحلية .

ثم إن النهى عن المنكر يمثل من ناحية أخرى : الجانب الإيجابى فى وظيفة الدعوة .. من حيث وقوفه بالداعى وجها لوجه أمام المنكر . فى محاولة لصد الناس عنه ..

وربما سهل على الداعى أن يأمر إنسانا بمعروف ..

لأن هذا الأمر فى حقيقته اتجاه بالمدعو فى المسار الفطرى المركوز فى طبيعته ..

وحينئذ فنفس المدعو - مع الداعى - تعينه على الطاعة هنا .

لكن الأمر يكون أصعب إزاء العاصى ..

فهو لا يسلم أن تنزعه من عادات مرد عليها ، وصارت خيوطا فى نسيج حياته اليومية .

والدعوة - من وجهة نظر الغارق فى شهواته - كأنما هى عتاب .. أو سوط عذاب يجدع أنفه .. وهو لا يطيق ذلك .. ومن ثم يقاوم .. ويجادل بالباطل فى الوقت الذى يقتنع فيه - عقليا - بأن الحق معك ؟!

ونتأمل قوله ﷺ : « إذا أمرتكم بشئ فائتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شئ فدعوه » (١) .

فنحس بعنف المقاومة من قبل المنهى :

فهو مدعو إلى ترك المنهى عنه كلية . وعلى الفور .. وبلا مساومة لماذا ؟ .

---

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ١٠١

إن البقاء على جانب ولو يسير من المنكر يستدعى غيره .. فالسيئة تدعو السيئة . والأصغر يحرض على الصغير .. ومنه إلى الكبير .. فإذا تصورنا أن النهى عن منكر يعنى حمل المدعو على ترك عادة مرد عليها .. بانت لنا حدة الإنفعال إزاء داع يحاول إنتزاع الإنسان من عادته أى من طبيعته .

● أما فيما يتعلق بالمعروف فأن الأمر يختلف :

فقليل من الإستجابة يغرى بالاستمرار فيها ..

ومهما كانت الإستجابة ضئيلة فإنها على أى حال إبقاء للمدعو فى دائرة المعروف .. بعيداً عن منطقة الحرام .. وهذا كسب يقلل من مواقعة حرام هو منه بعيد .. بالإضافة إلى أن الأمر بالطاعة محاولة لإنشاء عادة حسنة جديدة .. أو تجديد لها بعد إنقطاع .. وإنشاء عادة لم تكن ... أيسر من اقتلاع أخرى ضاربة الجذور فى نفس الإنسان .

وعندما نهى محمد ﷺ قومه عن رأس المنكر كله وهو : الشرك .. قاوموه بعنف رغم أنهم يعترفون بوجود الله سبحانه وتعالى .

ولكن الشهوة الغلابة تعكر الجو .. فلا ترى الأبصار الحق ..

وتخدر الإرادة فلا تستطيع إتخاذ القرار .

* * *

● من هنا تبدو صعوبة المهمة :

فعندما يباشر الداعية سلطته .. لا يمارسها كأمر غرزى فطرى كالنحل يفرز العسل .. أو دودة القز تخرج الحرير !

وإنما هى : المعاناة والمصابرة .. ومكابرة الحياة والأحياء مكابرة تتوج فى النهاية بانتصار الفضيلة .

المعاناة المفتتحة أولا بإقلاعه عن كل منكر ينهى عنه ..

ليتمكن بانتصاره على شهواته من تحقيق نصر آخر على الساحة الكبيرة .. ذاكرا خطورة مهمته المؤسسة على طهارته هو أولا ..

وإذا كان الطبيب يداوى فرداً .. فإن الداعية يداوى أمة ..

وإذا كان خطأ الطبيب .. والمهندس فرديا محدوداً .. فإن خطأ الداعية يكون فادحاً .. على مستوى الجماعة كلها . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً [1] وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشئ حكم لنظيره . وشبيه الشئ منجذب إليه [2] .

• من خفايا النفس :

يقول ابن الجوزى فى بيان خصلة من خصال النفس الداعية إلى مزيد من الحذر والمعاناة فى ملاقاتها والمبينة فى نفس الوقت حساسية موقف الداعية :

(تأملت حرص النفس على ما منعت منه ، فرأيت حرصها يزيد على قدر قوة المنع .

ان آدم عليه السلام لما نهى عن الشجرة ، حرص عليها مع كثرة الأشجار المغنية عنها .

وفى الأمثال : المرء حريص على ما منع ، وتواق إلى ما لم ينل .

ويقال : لو أمر الناس بالجوع لصبروا ، ولو نهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه .

وقالوا : ما نهينا عنه إلا لشئ .. وقد قيل :

أحب شئ إلى الإنسان ما منعا

فلما بحثت عن سبب ذلك ، وجدت سببين :

أحدهما : أن النفس لا تصبر على الحصر ، فإنه يكفى حصرها فى صورة البدن .

فإذا حصرت فى المعنى بمنع زاد طيشها .

ولهذا لو قعد الإنسان فى بيته شهراً ، لم يصعب عليه .

ولو قيل له : لا تخرج من بيتك يوماً ، طال عليه .

والثانى : أنها يشق عليها الدخول تحت حكم ، ولهذا تستلذ الحرام ولا تكاد تستطيب المباح .

---

(١) صحيح مسلم ٧ / ١٠١

(٢) الأمر بالمعروف لابن تيمية ٤٦ ، ٤٧

ولذلك يسهل عليها التعبد على ما ترى) [1] .

* * *

وفى تفصيل آخر لطبيعة النفس الإنسانية يقول ابن تيمية كاشفاً عن بعد آخر تتأكد به صعوبة المهمة وما تفرضه من حكمة تخرج بالتجربة أوفر ثماراً :

« إن كثيراً من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويبغضون من لا يوافقهم ، وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة ، من موالاة كل قوم لموافقيهم ، ومعاداتهم لمخالفيهم ، وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات :

كثيراً ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطرق ونحو ذلك ، وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب الخمر - مثلا - فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم ، وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسداً له على ذلك ، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم ، وإما لئلا يكون له عليهم حجة ، وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لئلا يكونوا تحت منته وخطره ، ونحو ذلك من الأسباب .

قال اللّه تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم - من بعد إيمانكم - كفاراً. حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [2] .

وقال تعالى فى المنافقين : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ، فتكونون سواء ﴾ [3] .

وقال عثمان بن عفان رضى اللّه عنه : « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » .

والمشاركة : قد يختارونها في نفس الفجور ، كالإشتراك فى الشرب ، والكذب والإعتقاد الفاسد ، وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزنى غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضاً ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص مشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ٣٣ / ٣٤ (٢) البقرة : ١٠٩ (٣) النساء : ٨٩

شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الإكراه ، أولا ينتهى إلى حد الإكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه ، فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم : انتقصوه واستخفوا به ، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى ، وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه ، وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال الله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [١] .

فإن داعى الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة ، فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ، لاسيما إذا كان نظيره ، لاسيما مع المنافسة ، وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له ، من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع » [٢] .

وإذن .. فالمسالك وعره أمام الآمر بالمعروف .. وهى أشد وعورة أمام الناهى عن المنكر .. الأمر الذى يحمله مسئولية أكبر ، ويتقاضاه حكمة بالغة ، وصبراً جميلاً .

يقول الشيخ على الطنطاوى [٣] : « هذا هو طريق الجنة ، وطريق النار :

طريق النار فيه كل لذيذ ممتع ، تميل إليه النفس ، يدفع إليه الهوى ، فيه النظر إلى الجمال ومفاتنه ، فيه الاستجابة للشهوة ولذاتها ، فيه أخذ المال من كل طريق ، والمال محبوب مرغوب فيه .

وفيه الانطلاق والتحرر ، والنفوس تحب الحرية والإنطلاق ، وتكره القيود .

---

(١) البقرة : ١٦٥

(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٤٧/٤٨

(٣) تعريف عام بدين الإسلام ص ١٦ وما بعدها .

وطريق الجنة فيه المشقات والصعاب ، فيه القيود والحدود فيه مخالفة النفس ، ومجانبة الهوى ...

وأقام اللّه على طريق الجنة دعاة يدعون إليه ، ويدلون عليه ، هم الأنبياء .

كما قام على طريق النار دعاة يدعون إليه ، ويرغبون فيه ، هم الشياطين . وجعل العلماء ورثة الأنبياء :

فاطمة بنت محمد ما ورثت منه مالا ولا عقاراً .

والعلماء ورثوا منه هذه « الدعوة » فمن قام بها حق قيامها استحق شرف هذا الميراث .

وهذه « الدعوة » صعبة :

لأن النفس البشرية طبعت على الميل إلى الحرية ، والدين يقيدها . وعلى الإنطلاق وراء اللذة .. والدين يمسكها .

فمن يدعو إلى الفسوق والعصيان ، يوافق طبيعتها ، فتمشى معه مشى الماء فى المنحدر :

إصعد إلى خزان الماء فى رأس الجبل فاثقبه بضربة معول .. ينزل الماء وأنت واقف حتى يستقر فى قرارة الوادى .

فإذا أردت أن تعيده لم يعد إلا بمضخات ، ومشقات ، ونفقات بالغات .

والضخرة الراسية فى الذروة ، لا تحتاج إلا إلى زحزحتها وإمالتها ، حتى تتدحرج وتهوى ..

تنزل بلا مشقة ولا تعب ، فإذا أردت أن ترجعها ، وجدت المتاعب والمشقات .

وهذا هو مثال الإنسان :

الرفيق الشرير يقول لك : ها هنا إمرأة جميلة ، ترقص عارية ، فتميل إليها نفسك . ويدفعك إليها هواك . ويسوقك إليها ألف شيطان . فلا تشعر إلا وأنت على بابها .

فإذا جاء الوعظ ليصرفك عنها . صعب عليك الاستجابة إليه . ومقاومة ميل نفسك . وهوى قلبك .

فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهداً .

ولكن التعب وبل الجهد على دعاة الخير . وعلى الواعظ .

داعى الشر عنده ما تميل إليه النفس ، من العورات المكشوفة .والهوى المحرم ، وكل ما فيه متعة العين والأذن ، ولذة القلب والجسد .

أما داعى الخير . فما عنده إلا المنع :

ترى البنت المنكشفة فتميل إلى إجتلاء محاسنها فيقول لك : غض بصرك عنها ، ولا تنظر إليها .

ويجد التاجر الربح السهل من الربا ، يناله بلا كد ولا تعب ، والنفس تميل إليه فيقول دعه وإنصرف عنه ، ولا تمد يدك إليه .

ويبصر الموظف رفيقه يأخذ من الرشوة فى دقيقة واحدة ما يعادل مرتبه عن ستة أشهر ويتصور ما يكون له بها من سعة ، وما يقضى بها من حاجات فيقول له : لا تأخذها .. لا تستمتع بها .

يقول لهم : اتركوا هذه اللذات الخاسرة المؤكدة ، لتنالوا اللذات الآتية المغيبة :

دعواه ما ترون وما تبصرون .. إلى ما لا ترون وما لا تبصرون ...

... ثم إن المعاصى لذيذة ، لأنها توافق طبيعة النفس : إنك تجد لذة فى سماع الغيبة ، والمشاركة فيها . لأنها تشعرك بأنك خير من هذا الذى يذكرونه بالسوء .. وأفضل .

والسرقة لذيذة ، لأن فيها إمتلاك المال بلا كد ولا نصب .

والزنا لذيذ ، لأن فيه إعطاء النفس هواها . وإنالتها مشتهاها .

والغش فى الإمتحان لذيذ ، لأنه يوصل إلى النجاح بلا جهد .

والهرب من الواجب – مهما كان لذيذ على النفس ، لأن فيه الراحة والكسل » .

* * *

• على المستوى العالمى :

ومع هذا .. فهناك مجال آخر للمعركة يضاعف من مسئولياتنا : إن جهود الداعية

الفرد لها آثارها فى بيئته التى يعيش فيها .. ولا ريب . بيد أن للمعركة بعدا آخر يتقاضى الدولة أن تحشد جهودها لمواجهة المعركة بما يكافئها من جهاد موصول .. حيث ان للرذيلة جيشاً يخطط لذيوعها .. وتسللها إلى صفوفنا .. والوقوف على هذا المخطط ومقاصده أعون على التصدى له . وشل حركته . والدولة بإمكاناتها الضخمة قادرة على ذلك .

وتجربتنا مع هذا العدو شاهدة بذلك ..

لنقرأ من تاريخنا صفحات تحرك فينا بواعث الإنطلاق إلى ملاقاة هذا الكيد .. الذى يتربص بنا .. حتى لا نلدغ من الجحر مرتين .

إن عدونا الحقيقى هو النفاق .. نفاق الغادرين على المستوى العالمى الذى يتقاضى أمتنا أن تستعد :

والتاريخ يحدثنا أنه لما انتشر الإسلام فى كل بقاع الدنيا .. وأحس الأعداء بأنه من المستحيل وقف مده الزاحف بقوة السلاح .. عمدوا إلى المكر الخبيث ، المبيت ، حتى يعرقلوا مساره ..

ولبس العدو ثوب النفاق : فتكلم لغتنا .. وعاش حياتنا .. وفى نفس الوقت حاول أن يضرب ضربته من الداخل .

وفى مقدمة هؤلاء المنافقين عبد الله بن سبأ :

كان يهوديا ، ولكنه أعلن حبه لعلى رضى الله عنه وتشيع له ودافع عنه ذراً للرماد فى العيون ..

ثم بدأ يضرب ضربته .. أو يوجه طعنته حين أعلن أنه :

بعد البحث والدراسة تبين له أن عليا رضى الله عنه : هو الله ؟!!

فلما أخذه على رضى الله عنه بذلك وأمر بحرقه هو وأتباعه فى خندقه ..

لم يكف عن محاولته بل استغل الموقف للترويج لمذهبه الباطل فقال : الآن تأكدت أنم عليا إله لأنه لا يعذب بالنار إلا الله !! وعلى دربه سار أتباعه عبر التاريخ :

يرفعون شعار الإسلام .. بينما هم فى الواقع أعداؤه .. بل أخطر أعدائه .

إنهم يطلقون شعاراته .. بل ويؤدون فرائضه ذريعة إلى القاء ظلال من الشك على قواعده الأساسية .. حتى تنحل عراه مع الأيام .

ومن هنا كان النفاق أخطر أعدائنا ،، وكانت الشيوعية التى تمارسها .. رأس الحربة فى معركتنا معه ..

والعارفون بأحوال المجتمعات يرسلون صيحات التنبيه إلى خطر هذا النفاق على وحدتنا .. وقبل ذلك على ديننا .

يقول الدكتور « وصفى » مركزاً على العيب الرئيس من وراء تغلغل الشيوعية فى ديارنا :

إنه (تفكك الأمة . وظهور أحزاب خفية غير مشروعة . ذلك أن كل طائفة من المنافقين يعمدون إلى تكوين كتلة حول « مراكز القوى غير المشروعة » فإن من طبيعة الدول المذهبية أن تقوم فيها من الداخل أحزاب النفاق . وفى الخارج أحزاب الأعداء الصرحاء .

وربما ظهرت أيضا فى الداخل تشكيلات من الأعداء الصرحاء ، ومثل هذا الإنقسام يؤدى إلى حرب خفية فى المجتمع الإسلامى .

وهى حرب تهدد أمن المواطنين وسلامتهم .

ولا يبعد أن تقع الفتنة التى قد تنقلب فى أى وقت إلى حرب أهلية شديدة الخطر .

ولنا من واقع الحالة فى لبنان عظة ونذير » !!

* * *

• معنى تحطيم القيم فى مذهب الشيوعية :

معناه بإختصار : التحلل من كل الأخلاق الفاضلة اللازمة لترقية الحياة ، بمعنى التخلى عن هذه الأخلاق والردة إلى حمأة الرذيلة .. وناهيك بالردة نذيراً يضيع الأمة .

إن المرتد أشد ضلالا من الكافر الذى لم يدخل الإسلام أصلا .. وأشد منه أيضاً فساداً فى الأرض .

لأن المرتد كان من الإسلام فى ضوء مصباح غامر الضوء ..

فإذا إنطفأ المصباح زاد الإحساس بالظلام .. وبالتالى ذهبت القدرة على الحركة الراشدة .. ولم يبق إلا الخبط العشوائى .. بلا هدف ! وأشد من المرتد ضلالا وفسادا .. أولئك الملحدون .. والزنادقة .. لماذا ؟ [1] .

إن العالمين ببواطن الأمور يقررون ذلك فى ضوء المفهوم من آيات ربنا سبحانه وتعالى : إنه مركب النقص .. والإحساس بالهوان فى حياة نفوس عابثة لاهية .. - بينما ترى المسلمين فى ظل الإسلام على الطهر والنقاء - .. كل أولئك يفجر فى قلبه المفسد ثورة حاقدة .. تحمله على العدوان .. والبطش بهؤلاء الذين من الله عليهم بالفضيلة .. بينما لم يزل هو فى قبضة الشيطان .

وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ أناس يتطهرون ﴾ [2] .

إنهم لا يطيقون رؤية النظافة .. ومن ثم لا يريدون لهؤلاء الأطهار أن يعيشوا بينهم ..

ومن هنا يحاولون التنكيل بهم .. ونفيهم من الأرض .. إراحة للضمير الذى يؤرقه مشهد المسلمين الوقور النظيف !

ويعلق الحقد الكامن عن نفسه كما يصوره الحق سبحانه : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [3] .

إنهم .. بدل أن يقابلوا الطهر بالطهر .. والعفاف بالعفاف .. يعلنونها حربا نفسية ساخرة حاقدة - مركزة فى هذا التساؤل الذى تبينه الآية الكريمة : ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ ؟

ثم يسترسلون مع خواطر السوء التى تزين لهم أنهم أذكى عقولا من هؤلاء .. وأشرف معدنا - فى زعمهم - ومن ثم فلو كان إسلامهم خيراً .. فلا يمكن أن يسبقونا اليه .. بل كنا نحن أولى به منهم !

---

(١) الفكرة هنا للندوى .   (٢) النمل : ٥٦   (٣) الأنعام : ٥٣

وذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ (١) .

وهكذا يدمغهم الحق سبحانه وتعالى بالرد الحاسم القاصم : ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ (١)

وتلك حجة الكسالى .. كما هى حجة الحاقدين .

* * *

• لا عذر لمرتد :

وإذا كان الكافرون منطقيين مع أنفسهم فى حربهم للإسلام وكيدهم له .. فما هو عذر الذين يحملون شارات الإسلام .. ومع ذلك يكيدون له كيداً .. ويدورون فى فلك الشيوعية الدولية .. محققين أهدافها على حساب دينهم الحق ؟

كهؤلاء الحكام فى أفغانستان .. الذين فرشوا الطريق بإخوانهم فى الدين أمام السلاح الروسى الغادر ؟

إن لهم عقابا مثلهم شديداً . إن لم يكن أشد .. لأنهم بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .. ولأنهم كفروا .. بعد أن عرفوا .

وكان حريا بمن عرف .. أن يعترف !

كان حريا بمن عرف حلاوة الإيمان أن يعترف به دينا .. وأن يرتضيه منهجا لحياته .

والآيات القرآنية الكريمة تؤكد سوء عقابهم .. فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ (٢) .

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٣) .

وإن خير عقاب لهؤلاء القوم أن نقطع عليهم الطريق .. بتهيئة البيئة النظيفة التى لا

---

(١) الأحقاف : ١١ (٢) إبراهيم : ٢٨ ، ٢٩ (٣) النحل : ١١٢

يعيش فيها أمثال هؤلاء الناس .. ولن يتم ذلك إلا بدعاة أذكياء حكماء .. ودولة تمكنهم من تنقية الجو لتأخذ الحقائق سبيلها إلى القلوب .

* * *

• من ملامح المخطط المعادى :

ولا نزال نذكر كيف أن « وايزمن » - الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لدولة إسرائيل - استطاع أن يحمل الحلفاء على التعهد بإقامة الدولة اليهودية مقابل أن يقدم إليهم اختراعه لمادة « الاستون » لاستعمالها ضد خصومهم فى الحرب العالمية الأولى ، والإتفاق الذى تعهد فيه زعماء يهود بإعطاء روسيا سر القنبلة الذرية مقابل التخلى عن الموقف التقليدى فى رفض الصهيونية والسباق إلى دعم إسرائيل والسماح لليهود بالهجرة إليها والذى نقل سر القنبلة الذرية إلى روسيا هو اليهودى « روزنبرج » وزوجته .

وقد يعجب كثيرون عندما يقارنون بين عدد يهود فى المجتمعات الغربية وأمريكا وعدد المسلمين ، ويرصدون أثر اليهود وتأثيرهم وغياب المسلمين وإنعدام أثرهم ، والحقيقة أن القضية فى العالم اليوم ليست قضية أكوام من البشر وأعداد من الخلق وإدعاءات عاطفية بقدر ما هى قضية تخصصات وفاعلية ودراسة وتخطيط .

قرأت فى مجلة عربية خلاصة رواية تعرض فى دولة أجنبية .

بطل الرواية الممثل المغامر « أرسين لو بين » .

وقد عمد المؤلف إلى تصوير البطل فى صورة فتى ، ثائر ، يصارع غريمه . بوسائله التى يحاول بها إغراء المراهقين .

وهذا الغريم : شاب : من أم أفريقية ، وأب أسيوى .

ثم هو يتكلم العربية ، ويعتنق الإسلام !

ويواصل المؤلف حبك قصته ، فيلاحق هذا الغريم ، فيعلق برقبته كل مشكلات العالم

ولهذا السبب يهجم عليه منقذ العناية « أرسين لو بين » فيصرعه ويسدل الستار !!
نعم يسدل الستار على محاولة خبيثة أريد بها اتهام كل ما هو عربى أو إسلامى أو

شرقى .. وإلقاء ظلال من الشك عليه .. ووضع زمام المبادرة فى يد « الرجل الأبيض» الذى يبدو فى زى المصلح الإجتماعى .. والثائر الحر ! يريد أن يريح الدنيا كلها من هذا « العربى المسلم » والذى خرجت كل المشكلات من تحت رأسه .. وبإيعاز منه !!

إنها صورة من صور الفتنة المشار إليها بقوله تعالى .

﴿ ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ﴾ [1] .

وتستمر الفتنة الماكرة آخذة سبيلها على كل مستوى وبكل وسيلة .. فى مجلة الأمة يسجل باحث إسلامى :

« تلاحظ أن الكنيسة تحفظ احصاءات ودراسات دقيقة عن كل بلد فى العالم من حيث عدد المسلمين وغير المسلمين والنصارى وإمكانات الدعوة للتنصير فيها ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وإلى أى مدى يمكن الاستفادة منها وتسخيرها لأهدافهم ، واحتياجات المجتمعات وكيفية ربطهم بالكنيسة وجعل علاقات دائمة معها ، وأضرب لذلك مثلين :

- أحدهما : من « الفلبين » حيث دمر الجيش هناك مدينة « سوكو » التى هجرها من بقى فيها من الأحياء إذ ضربت برا وبحراً وجواً وعلى أنقاض تلك المدينة جاء قس ليعيد بناء المدينة الإسلامية مستفيدا من الموارد المحلية فبنى ثلاثة آلاف بيت وملكها للمسلمين بأقساط لمدة خمس وعشرين سنة ، وبنى لهم مدرسة وكنيسة ومعنى هذا أن تتنصر المدينة كلها وترتبط بالكنيسة مع أن رجلا واحدا من أضعف أثرياء المسلمين يمكنه بناء تلك المدينة حيث تقام المبانى من الخشب هناك وهذا هو مجال عمل المنظمات والهيئات الإسلامية بدلا من الهبات المتقطعة ، والبيانات السياسية التى تدين وتستنكر وتفتى أحيانا .

ولا أزال أذكر أن مبلغ أحد عشر ألف دولار جمعها المصلون فى جمعة واحدة فى دولة قطر سنة ١٩٨١ ميلادية كانت سببا فى إعادة تعمير سبعة وثلاثين مسجداً فى قرى المسلمين ومدنهم فى الفلبين .

---

(١) المائدة : ٤٩

– ثانيهما : من « مالاوى » الدولة الأفريقية التى كانت نسبة المسلمين فيها ٦٠ ٪ وصلت الآن ٢٠ ٪ فقد عقد فيها مؤتمر الشباب المسلم لدولة أفريقية الجنوبية فى أبريل ١٩٨١ ميلادية وذهبنا لتفقد قرى المسلمين فى الجبال والوديان وكانت القرية كلها تملك مصحفاً واحداً ينتقل كل يوم من بيت إلى آخر ليقرأه أهل البيت ، وليكون ذلك اليوم عيداً لهم ، ولهذه الدولة أرسل وفد رسمى من ثلاث هيئات إسلامية واحدة منها جامعة إسلامية ، وكما حدثنا الأخوة هناك نزل الوفد فى أفخم فنادق العاصمة القديمة وأرسلوا مرافقاً لهم يقوم بالترجمة ليجمع أصحاب المدارس والعاملين فى الهيئات الإسلامية وعندما حضروا طلبوا إليهم أن يزودوهم بالمعلومات ويكتبوا إحتياجاتهم دون أن يغادر الوفد الفندق إلى المؤسسات والمنشآت الإسلامية التى كتبوا عنها تقاريرهم ، والمعروف أن كثيراً من الدعاة لا يغادرون المدن الكبيرة ولا يختلطون بالناس ولا يعايشونهم ويحافظون على مستوى من التعامل يجعل الفارق بينهم وبين من يدعونهم كبيراً بينما تنتقل القساوسة فى القرى والأدغال يواسون ويعالجون ويطعمون ، وكل يملك سيارة قوية تتيح له التنقل والعمل بإخلاص وحب لما يعمل له . بينما يشكو الدعاة من ضعف أجورهم وتأخرها بالشهور وعدم إظهارهم بمظهر يليق بدعوتهم ، ويجعل لهم مكانة فى أعين الناس والسلطات هناك .

إن نجاح العمل الإسلامى فى العالم مرتبط بالصورة التى يقدم فيها وبصورة من يقدمونه فإذا كانت صورته باهتة ، ودعائه ضعافا وإمكاناته غير رشيدة ووسائله متخلفة وصوته خافتا والإخلاص فيه مفقوداً فلا فائدة من أجهزة ضخمة ، وشعارات كبيرة ولا بد من إعادة النظر ، وتغيير الخطط والعقليات والوسائل حتى تكون كما قال ﷺ : « شامة فى أعين الناس » .

ونختم هذه الفقرة بما جاء من أهمية الدعوة اليوم [١] : (الأهمية الذاتية للدعوة الإسلامية) .

لا ريب أنها قد تضاعفت . وأن واجب النهوض بها فى أعناق المسلمين أصبح أشد أهمية ، وأكثر اتساعا :

---

(١) د / محمد سعيد البوطى : العودة إلى الإسلام ص ١٦ وما بعدها .

فلقد كان القيام بهذه المهمة من فروض الكفاية فى أكثر الأحقاب التى خلت . أما اليوم : فلا نبعد عن الحق إن قلنا : إن القيام بهذا الأمر صار اليوم من الفرائض العينية . التى يتوجه الخطاب التكليفى بها إلى كل مسلم وعى الحقائق الإيمانية . والواجبات السلوكية للإسلام على نحو سليم .

ولم يعد خاصاً بفئة أو جماعة من المسلمين . وذلك للسببين التاليين :

السبب الأول : أو واقع الصحوتين اللتين أدركتا العالم الإسلامى . وأمم الغرب والشرق معاً ، لم يبدل من حال الأعداء التقليديين للإسلام شيئاً ، وربما نقصد بأعدائه التقليديين أولئك الذين يتبوؤن مراكز القيادة والحكم فى ربوع الغرب على اختلافها ، ولا يزالون يحلمون بآمال سيادة الرجل الأبيض على بقاع المعمورة ، إن لم يكن بأساليب الاستعمار القديم . فبوسائل جديدة أشد ذكاء ، وأعتى خطورة ، وأوغل خفاء .

كل ما فى الأمر أنهم أداروا الأشرعة نحو مسرى الرياح . وركبوا الموجة المقبلة . وآثروا أن يخدعوا العقول ، ويجاملوا النفوس . بدلا من أن يعاندوها فيزيدوا إلى الوعى الذى استيقظ عندهم الكراهية التى قد تقطع سبيل الحوار معهم .

ولا ريب أن هذا الأسلوب الجديد أحرى أن تبذل الجهود للوقوف فى وجهه ، وأن ينبه إليه ويحذر منه ، على ألسنة الداعين إلى الإسلام من المسلمين عموماً . وقادة المسلمين بوجه خاص .

السبب الثانى : أن العهد الذى يقبل فيه الناس إلى الإسلام تمسكا به ، أو تفهماً له . أحوج إلى المرشدين والدعاة من العهد الذى يدبر فيه معظم الناس عن الإسلام .

ذلك لأن أثر الدعوة إلى الإسلام فى صفوف المقبلين إليه أسرع ظهوراً وأقرب جدوى . وأهم فائدة منه فى صفوف المتأبين عليه والمحجوبين عنه وقد تكاثر اليوم عدد المقبلين إلى الإسلام داخل ربوعه . كما تضاعف عدد الراغبين فى فهمه خارج بلاده ، وأن بهؤلاء وأولئك لحاجة ماسة إلى من يعرض حقائق هذا الدين لهم بأسلوب علمى مبسط ويزيح عن طريقهم الغشاوات المصطنعة ، والشبهات المختلفة .

فإن لم يسرع من المسلمين الصادقين من ينهض بمسئولية هذا الشرع والبيان على أتم وجه . أوشك أن يسبق إليهم من أولئك الأعداء التقليديين وجنودهم من يجهض إليهم

تلك الرغبة . بابتداع صور مشوهة كاذبة عن الإسلام يضعونها نصب أعينهم ، ثم يتسللون بها إلى مكمن الوعى من نفوسهم .

فإما أن يعرضوا بعد ذلك عن الإسلام ويرجعوا إلى شر من الحالة التى كانوا عليها من قبل ، وإما أن يعتنقوا إسلاماً باطناً مزيفاً ، لا يصلح فساداً ، ولا يتفق مع علم ولا عقل ، كما آل إليه حال كثير ممن دخلوا فى الإسلام فى كثير من جهات أوروبا وأنحاء أمريكا ، ثم لم يجدوا من يبصرهم بحقيقة ما هم عليه وبمدى بعدهم عن الإسلام الذى يطمحون إليه .

وإننا لنسمع اليوم نداءات ، بل استغاثات تتوارد إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية . مقبلة إليهم من شتى أنحاء آسيا وأوروبا وأفريقيا ، تهيب بالمسلمين أن ينجدوهم بمن يعلمونهم مبادئ الإسلام وأحكامه . وأن يتداركوهم بالكتب والنشرات الإسلامية المبسطة ، التى تصلح أن تكون معتمداً كافياً بين أيديهم لتعليم أسرهم وأولادهم كل ما يجب أن يتعلموه من مبادئ هذا الدين .

* * *

خطوات البحث

نحاول - بمشيئة اللّٰه تعالى - أن تكون خطة السير مساوقة للحديث الشريف ... طبق الترتيب الذى جاءت عليه كلماته ... وذلك على النحو التالى :

١ - من الذى يقوم بالتغيير ؟

٢ - ومتى ؟

٣ - مستويات التغيير .

٤ - موقع الأمة اليوم من ها الحديث .

الفصل الأول

من الذى يقوم بالدعوة

من حق كل مسلم أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأن يجاهر بهما حتى الحاكم فى عليائه .

وإذا فرضت عالمية الدعوة أن يكون لها جهاز متخصص ، خبير بأصولها ، قادر على التصدى لمكر الأعداء بالليل والنهار ، فإن ذلك لا ينفى مسئولية كل مسلم فى حدود إمكاناته ، مهما كان موقعه ، متى توفر له ما يلى :

(أ) علم بالمأمور به ، والمنهى عنه .

(ب) قدر من اللين يستميل به القلوب .

(جـ) صبر يعينه على الوصول بالموعظة إلى قرارها .

(د) حكمة تمكنه من وضع الأمور فى مواضعها .

• أدلة عموم المسئولية :

١ - « والمسئولية قبل كل شئ استعداد فطرى ، إنها هذه المقدرة على أن يلزم نفسه أولا ، والقدرة على أن يفى بعد ذلك بالتزامه ، بوساطة جهوده الخاصة .

فإذا أخذت المسئولية بهذا المعنى الرحب والأولى ، فلن تكون سوى سمة من السمات المميزة ، التى يأخذها الإنسان من جوهر ذاته » [(١)] .

وبهذا المعنى يأخذ الإنسان حظه من المسئولية فى مجال التوجيه والإرشاد ، كفاء قدرته على الزام نفسه ، ثم وفائه بهذا الالتزام .. إنه حين ينهى عن المنكر يبذل بهذا

---

(١) محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق ١٣٧

النهى فطرته ، ولا يستجديه من خارج ذاته ، بحيث لا يخرج من عموم هذه المسئولية سوى المجنون والمعتوه .

٢ - يقول ﷺ : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » فقلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال « لله ولكتابه ، ولنبيه ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم » [١] .

إنهم يسألون عن المنصوح ، من هو ؟

ولا يسألون عن الناصح ، اعتقادا منهم بأن واجب النصيحة أمر مفروغ منه ، وإذ تعددت مجالات النصح هنا ، فذلك يعنى شمول المسئولية كل مسلم ، كل فى حدود طاقته ، وحدود اختصاصه .

٣ - والناس درجات :

فيهم الذى يملك ذاكرة قوية قادرة على الإحتفاظ بالمعلومات حية ، لكنه محروم من نعمة الفقه والاستنباط .

ومن مصلحة الدعوة أن يبلغ هؤلاء ما سمعوا ، انتقالا بالكلمة إلى تربة خصبة ، ولتستثمرها عقول قادرة على الفهم والاستنباط .

يقول ﷺ : « نضر الله أمرأ سمع مقالتى ، فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » [٢] .

وكان هذا مستند العلماء الذين قرروا : « جواز رواية الفضلاء وغيرهم من الشيوخ الذين لا علم لهم ، ولا فقه ، إذا ضبط ما يحدث به » [٣] .

وهكذا يتكامل الذكاء ، والذاكرة الواعية فى نشر العلم ، وتبليغ الدعوة .

٤ - بحكم المسئولية المشتركة التى قررها ﷺ تقريراً لا يدع عذراً لمعتذر يريد التفلت من تبعاتها : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته » [٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى تاريخه عن تميم الدارى .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد .

(٣) النووى ، شرح مسلم .

(٤) البخارى كتاب الوصية .

« فلكل منا بالضرورة بعض العلاقات ، وهو يشغل مكانا معينا ، ويمارس بعض الوظائف فى جهاز المجتمع :

فالأب مسئول عن رفاهية أولاده المادية والأخلاقية ، والمربى مسئول عن الثقافة الأخلاقية والعقلية للشباب ، والعامل عن تنفيذ عمله وكماله ، والقاضى عن توزيع العدالة ، والشرطى عن الأمن العام ، والجندى عن حفظ الوطن .

كذلك نحن - فرادى - مسئولون عن طهارة قلوبنا ، واستقامة أفكارنا كما أنا مسئولون عن حماية صحتنا وحياتنا ، حتى أننا نستطيع أن نجد فى كل لحظة من لحظات الإنسانية بعض المسئوليات » [1] .

٥ - وبحكم المصير المشترك ، سئل ﷺ ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » .

والأساس القرآنى هنا : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ [2] ، وما ظنك بتفاحة سليمة فى صندوق معطوب ؟

سوف تسرى إليها العدوى ، ولن يكون لها فضل على أخواتها ! وكذلك المسلم الصالح فى نفسه ، الساكت عن تحذير غيره ، إنه سيخسر فضائله يوماً ، حين لا تسمح البيئة ببقائها ، ولا باستثمارها .

أما العالم الناهى عن المنكر - فهو وإن لم ينجح فى إحباط مفعوله ، فإن معنى المقاومة ، ورفض المنكر سيظل ظاهرة صحية ، وإن سكنت اليوم فسوف تقاوم غدا ، وإنها لشوكة فى نحر العصاة لا تجعلهم يستمرئون الحياة ، حيث لم تترك لهم الميدان خاليا .

وأمة فيها ذلك اللون من المقاومة جديرة بالحياة ، يبقيها الحق سبحانه وتعالى بما ضمت عليه نفوسها من عناصر الخير : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ [3] .

٦ - والتواصى بالحق والصبر أحد دعائم الاستقرار فى حياة الأمة :

---

(١) دستور الأخلاق ١٣٩ (٢) الأنفال : ٢٥ (٣) هود : ١١٧

﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (١) .

فلا بد أن يكون هناك رأى عام بصير ، ناقد ، يلاحق الأحداث ، ويتصدى للإنحراف .

وبهذه الجهود المشتركة المتفاعلة لا يتمكن الإنحراف من قلوب العصاة . ولا بأس أن يأمر العالم وينهى ، ثم ينبرى له المدعو نفسه ليلفت نظره إلى قسوته فى الطلب مثلا ، فى حركة مباركة لا يفلت منها عابث بأقدار الأمة .

ولقد استحق بنو إسرائيل اللعنة حين غاب هذا الرأى العام الحارس .

يقول الشيخ محمد الخضر حسين : « فالتعبير بصيغة التفاعل فى قوله ﴿ تواصوا ﴾ و ﴿ لا يتناهون ﴾ (٢) يدل على تبادل الوصاية ، والتناوب فى النهى عن المنكر .

ويشير إلى أن الشخص الذى يوصى آخر بحق أو ينهاه عن منكر ، لا يعلو قدره على طاعة ذلك الموصى أو النهى إذا دعاه إلى صالح أو النزوع عن باطل » (٣) .

٧ - وإذا كان هناك من الأمور الدينية ما لا يقدر على تبعاته إلا المتخصصون كالمتشابهات التى لا يعلمها كثير من الناس .

فإن هناك ما هو واضح ، كوجوب الصوم والحج والصلاة .

وحرمة الزنا والسرقة والخمر مثلا ، إنها لا تحتاج إلى متخصص فى الدعوة .

ويكفى للنهى عنها مجرد العلم بها .. وذلك متاح للقاعدة العريضة فى المجتمع الإسلامى .

* * *

٨ - على أن ظروف العاصى نفسه داخلة فى الاعتبار :

فمن السهل على كل مسلم أن :

يرشد الجاهل ، ويذكر الناسى ...

---

(١) سورة العصر .

(٢) أى من قوله تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ .

(٣) دعوة الاصلاح .

أما مواجهة المضلين بالبرهان فهذا مما يحتاج فيه إلى التخصص :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [(١)] .

وقد قسم الحديث الشريف المذنبين إلى قسمين :

« المؤمن يرى ذنبه فوقه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » [(٢)] .

وإذ يحتاج المنافق فى فطمه عن ذنبه إلى داعية يجيد السباحة وسط المحيط .. وفى مواجهة العواصف وتقلبات الجو .. إلى جانب إجادته للمحاورة والغوص فى الأعماق .

فإن المؤمن الذى يرى ذنبه هائلا يسد عليه الأفق لا يحتاج إلى واعظ متخصص .. وفى استطاعة طفل صغير أن يدله على ذنبه .. لأن ضمير العاصى هنا .. يقظ .. حى .. فهو عون للواعظ فى مهمته .

* * *

٩ - يروى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فى مناظرة بينهما : اتق الله !

فأنكر عليه بعض الحاضرين وقال للرجل : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟!

فقال له عمر : دعه فليقلها لى .. نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها .. ولا خير فينا إذا لم نسمعها !!

إن عمر رضى الله عنه يؤكد حق النصيحة للرجل ، رافضاً مسلك الراغب فى تجريده من هذا الحق الذى يسميه عمر هدية .. حين يتفضل ناقد عليه بلفت نظره إلى الصواب .. وذلك قوله « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » !

« وهذا هو الإيمان : لا يمكن أن يظل خامدا لا يتحرك ، كامنا لا يتبدى فى صورة حية خارج ذات المؤمن .. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت .. شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها .

---

(١) التوبة : ١٤٢

(٢) الترمذى « كتاب صفة القيامة » .

فالدعوة إلى الله تنبعث من إيمان المؤمن بدينه وشريعته انبعاثاً طبعياً .

وإلا فالإيمان غير موجود . ومن هنا تبدو قيمة الإيمان .

انه حركة وعمل ودعوة .. وبناء وتعمير يتجه إلى الله .

انه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء فى مكنونات الضمير .

وليس مجرد النوايا الطيبة التى لا تتمثل فى حركة .. وهذه طبيعة الإسلام التى تجعل منه قوة بناء كبرى فى صميم الحياة .

والدعوة إلى دين الله هى بديهيات الإيمان . وهذه لفتة القرآن :

﴿ قل انى لن يجبرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ .

هذه هى القولة الرهيبة التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر .. أمر الرسالة والدعوة .. فلا فكاك من التبعة الثقيلة .. تبعة إقامة حجة الله على الناس وتبعة انقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا » [1] .

وإذا فات المسلم العادى أن يصوغ البرهان .. وإذا لم يستجمع عدة المواجهة والمناظرة .. فإنه بعمله طبق شريعة الله داع إلى الله من حيث يحتسب أو لا يحتسب . إنه قدوة يراها الناس .. فيتبعونها .. وإذن .. فلا فكاك من هذه التبعة الثقيلة !

١ - وإذ يقول ﷺ : بلغوا عنى ولو آية .. فمن منا لا يحفظ آية واحدة يقوم بإبلاغها ؟

قال ابن حزم : « الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم : إن قدر فبيده . فإن لم يقدر فبلسانه ، وإن لم يقدر فبقلبه ولا بد وذلك أضعف الإيمان . فإن لم يفعل فلا إيمان له » [2] .

وإذن .. فلا يعفى مسلم مهما كانت امكاناته من هذه الوسيلة المتاحة وذلك قوله : « ولا بد » .

---

(١) طريق الدعوة ١٤٥ جمع أحمد فائز .

(٢) المحلى ٩ / ٣٦١

وإلا .. فإن سلبية القلب هنا تعنى فقدانه الإحساس .. وخلوه من مشاعر الإنتماء إلى أمته .

ومعنى ذلك أنه معزول عن الأمة كلها . حين أتيحت له فرصته للإنكار فى سرية لا يراها أحد .. ومع ذلك فقد كان بها ضنينا !

* * *

• حتى العاصى ينهى عن المعصية :

جاء فى كتاب « البيجورى على الجوهره » [1] .

« المنكر ما أنكره الشرع وهو : الحرام والمكروه .

فيندب الأمر بالمندوب ، والنهى عن المكروه ، ويجب الأمر بالواجب والنهى عن الحرام وجوبا كفائيا ، فإذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين .

وهو فورى إجماعا .

ولا يختص وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمن لا يرتكب مثله . بل من رأى منكراً وهو يرتكب مثله فعليه أن ينهى عنه .

ولهذا قال إمام الحرمين : يجب على متعاطى الكأس أن ينكر على الجلاس .

وقال الغزالى : يجب على من زنا بامرأة أمرها بستر وجهها عنه » .

نعم .. يجب على العاصى أن ينهى غيره عن معصية هو خائض فى مثلها .. ولا شك أن لهذا النصح أثره .. حين ينبعث من بين سمار الليالى صوت عتاب من شريك لهم فى الإثم .. يشكل باللوم سخطا على المجلس وما يدور فيه .. بقدر ما هو بداية تراجع عن الاسترسال فى هذا اللهو المستعلن .. وحين تجئ الضربة إلى مجلس المعصية من داخله تكون أقوى حيث لا يهز الشجرة إلا فرع منها !

وحتى المباشر لجريمة الزنا حين يأمر من يزنى بها أن تغطى وجهها عنه .. فإن ذلك دليل على بقية ولو ضئيلة من حياة ينبغى أن تظل متشبثة بالبقاء .. وإلا فالمجاهرة ..

---

(١) صفحة : ٢٤٦

والمواجد الوقحة .. تذهب بكل ما تبقى من حياء .. لتكون الجريمة شيئاً سهلا .. يصير بالممارسة من أمور الحياة العادية من غير نكير .. وتلك مصيبة المصائب .

« وكل بشر على وجه الأرض : فلابد له من أمر ونهى . ولا بد أن يؤمر وينهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها : إما بمعروف وإما بمنكر . كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ (1) .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . يقتضى بها فعل نفسه ، ويقتضى بها فعل غيره إذا أمكن ذلك . فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته ، وبنو آدم لا يعيشون إلا بإجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعدا ، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر . ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : أثنان . كما قيل : « الإثنان فما فوقهما جماعة » .

لكن لما كان اشتراكاً فى مجرد الصلاة : حصل باثنين : أحدهما : امام والآخر مأموم . كما قال النبى ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه رضى الله عنهما : « إذا حضرت الصلاة فإذنا وأقيما : وليؤمكما أكبركما » (2) . وكانا متقاربين فى القراءة .

وأما فى الأمور العادية ، ففى السنن : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم » (3)، (4) .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف ،

---

(1) يوسف : 53

(2) البخارى (2 / 170) ومسلم (466) وأبو داود (589) والنسائى (2/77) وابن ماجه (979) والترمذى (325) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(3) أبو داود (2608 ، 2609) بلفظ « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم « والحديث سكت عنه المنذرى ، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح الجامع برقم (519) قال الخطابى فى معالم السنن (81/3) تعليق عبيد الرعاس ، ط حمص : إنما أمر بذلك ليكون أمرهم جميعاً ، ولا يتفرق بهم الرأى ، ولا يقع بينهم خلاف فيعنتوا ، وفيّه دليل على أن الرجلين إذا حكما رجلا بينهما فى قضية فقضى بالحق فقد نفذ حكمه » .

(4) كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر 66 / 67

الذى أمر اللّه به ورسوله ، ويؤمر بالمعروف الذى أمر اللّه به ورسوله ، وينهى عن المنكر الذى نهى اللّه عنه ورسوله ، وإلا فلابد أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى : إما بما يضاد ذلك ، وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله اللّه بالباطل الذى لم ينزله اللّه .

وإذا اتخذ ذلك دينا : كان دينا مبتدعا ضالا باطلا ، وهذا كما أن كل بشر فإنه حى متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله صالحا لوجه اللّه . وإلا كان عمله عملا فاسداً ، أو لغير وجه اللّه . وهو الباطل . كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (1) .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار : ﴿ والذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه ، أضل أعمالهم ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد اللّه عنده فوفاه حسابه . واللّه سريع الحساب ﴾ (3)

وقال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ (4) .

وقد أمر اللّه تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين .

كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فإن تنازعتم فى شئ فردوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ (5) .

وهكذا يتأكد حق البلاغ مهما كانت الظروف ، حتى الواقع فى الإثم الوالغ فيه يظل محتفظاً بحقه فى البلاغ ؟ !

ويروى فى تدعيم هذا الحق الثابت مهما كانت الظروف قول ابن مسعود رضى اللّه عنه : « إن من أكبر الذنوب عند اللّه أن يقال للعبد : اتق اللّه .. فيقول : عليك بنفسك » .

---

(1) الليل : ٤ (2) محمد : ١ (3) النور : ٣٩

(4) الفرقان : ٢٣ (5) النساء : ٥٩

وفى الحديث : « من قيل له اتق الله فغضب . وقف يوم القيامة . فلم يبق ملك إلا مر به ، وقال له : أنت الذى قيل لك : اتق الله فغضبت .. يعنى : يوبخونه » [1] .

* * *

• مسئولية العلماء :

وإذا كانت مسئولية البلاغ مشتركة .. ولا ينجو من تبعاتها أحد .. فإن العلماء يتحملون القسط الأوفى منها :

يقول الحق سبحانه : ﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ [2] .

يقول الشوكانى تعقيبا على الآيتين الكريمتين : « فوبخ سبحانه الخاصة ، وهم العلماء التاركون للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. بما هو أشد من توبيخ فاعل المعاصى .

فليفتح العلماء – يعنى المسلمين – مسامعهم لهذه الآية .. ويفرجوا لها عن قلوبهم . فإنها قد جاءت وافية البيان الشافى لهم : بأن كفهم أنفسهم عن المعاصى . مع ترك إنكارهم على أهلها ، لا يسمن ولا يغنى من جوع .

بل هم أشد حالا ، وأعظم وبالا من العصاة » .

إن التعبير بقوله تعالى : ﴿ يصنعون ﴾ يعنى التعمد وسبق الإصرار على السكوت .. يصيره خطيئة توفرت أركانها ..

أما العاصى : فإنه يعيش لحظة من لحظات الضعف الإنسانى .. وتحت وطأة الغريزة ينحرف .. ولذا وصف إنحرافه بالعمل : ﴿ ويعملون ﴾ لا بالصنع كما سبق .. بينما العالم يمسك بيده طوق النجاة .. لكنه يترك اليم يحتويه !

ومعنى ذلك : أن يكون العلماء أكثر غيرة على محارم الله .. بما عرفوا من الحق . وبحكم موقعهم القيادى بين الناس .

---

(١) الموضع السابق : ٢٤٧

(٢) المائدة : ٦٢ ، ٦٣

وقد مضت بالمسلمين أعصار - على مستوى العالم كله - غاض فيها معين الغيرة على الحق .. فبقيت الدعوة بلا حارس .. فطمع فيها اللصوص !

وهكذا كل أمر يتولاه من لا يغار عليه ..

وهو ما حدا ببعض [(١)] العلماء أن يستنكر فى مرارة :

كيف تسند قضية اغتصاب أرض إلى من يأكل أموال الناس بالباطل ؟

كيف تعرض قضية خدش عرض على من ينشأ فى بيئة لا تعرف العفاف ؟

كيف تعرض قضية العدوان على الدين على ملحد ؟

وكيف يؤتمن على نظارة مدرسة من لا يحسن التربية ، ولا يؤمن بالخلق ؟!

* * *

---

(١) د. القرضاوى

العلماء فرسان الحلبة

يقول الدكتور سعاد جلال مبينا خطورة الأمر والنهى وأهمية العلماء الفاقهين فى البلاغ :

(وهو باب عظيم من فقه الإسلام ، يجهل معناه وشرائطه كثير من المتصدين له .. ويستغله كثير من المسارعين إليه وبخاصة أصحاب الميول العدوانية الذين يجدون فى التعلق به ذريعة للتسلط على الآخرين ، باسم الدين ، والذين يعانون من أنفسهم بتفاهة الشخصية ، أو ضآلة الوضع الاجتماعى ، فيسعون من وراء الشرعية العامة لهذا المبدأ ، إلى إثبات أنفسهم به وإظهارها فى مجال خدمة الإسلام ، ولو كشف القناع عن بواعثهم الخلفية لتبين أنهم يضربون الإسلام ويخدعون أنفسهم .

ولم يفت العلماء السابقون هذا النظر فأحاطوا تجويز القيام بهذا المبدأ بالضمانات المحققة للاحتياط فى استعماله ، وأغلقوا الطريق على احتمال عروض الجهالة باعتبار فى نفوس مستعمليه باعتبار أنه مبدأ متفاقم الخطر والمسئولية ، وأنه سلاح ذو حدين : إذا أحسن استعماله بالشروط التى قررها العلماء كان أعظم أدوات بناء المجتمع ، وإذا استعمل بجهالة ، أو قصد به طلب الحظوظ الدنيوية من المال ، والجاه ، والرئاسة ، ودعوى حماية الإسلام أدى إلى اشتعال نيران الفتنة فى المجتمع ، وانتهى به إلى التهدم والضياع .

وفى تاريخ المسلمين الماضى والحاضر ، من المصائب والفجائع التى ترتبت على إستخدام هذا المبدأ بغير حق ، وبغير فهم ما يعد من الأسباب الحقيقية لضعف المسلمين وتمكن أعدائهم منهم .

لقد حكم القرآن لأمة محمد - عليه السلام - بأنها خير أمة أخرجت للناس لقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا من حيث إنها تملك صناعة أو زراعة ، أو علما كونيا . أو جيشاً ، فأفاد ذلك أن تحقق مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أعظم تأثيرا فى فلاح الأمة ، وإعزازها وحياطتها من هذا كله. وأن قوة الأمة وفلاحها

وحياطتها تنبع من سلطان الرأى العام على ضمان العدل والقانون والفضيلة فى الأمة .

مايسميه الشرع بلأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . هو مايعرف فى زماننا بسلطة الرأى العام . وهى سلطة مستمدة من ضمير الأفراد فى الأمة العظيمة – إذا بلغ هذا الضمير مراتب الإنسانية ، والوعى الوطنى والاجتماعى المرتبة المميزة التى لايملك معها المرء السكوت لنفسه ولا لغيره عن قول الحق ، وإعلان الغضب على الظلم والرذيلة ، وإهدار قداسة القانون .

ليس فى مقدور القوانين أياً كانت ، ولا فى رقابة الدولة مهما اتسعت تحقيق العدالة ، والأمن للأمة ، مالم تكن من فوق ذلك كله سلطة الرأى العام المتحركة فى ضمير الأفراد دائماً . المكتشفة لأخطاء الحياة اليومية المبادرة إلى ردع المعتدين على القانون والفضيلة بحيث يستشعر هؤلاء دائماً أنهم فى قبضة القصاص ، مهما عظم سلطانهم .

ومن رائع الحكمة فى القرآن أنه يذكر الأحكام ويذكر معها عللها التى تترتب تلك الأحكام عليها ، ليدل على أمرين .

أحدهما : أنه لايخاطب المكلفين بأحكام الشريعة إلا على جهة الإقناع ببيان السبب فيما دعاهم إليه .

ثانيهما : دلالتهم على الأحكام المترتبة على تلك العلل وأنها لا توجد عند فقدها .

ثم إن الله نص على العلة حينما أخبر بكون الأمة المحمدية هى خير أمة أخرجت للناس . بكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر : فإذا زالت هذه العلة زال معها الحكم بكونهم كذلك – وتساووا مع غيرهم أو انحطوا عنهم .

وهذا هو الذى حدث فى أثناء حركة التاريخ فعلاً ، ترك المسلمون وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقتلوا سلطة الرأى العام فى مجتمعاتهم فتسلسلت بهم أحداث السوء حتى انهاروا وأصبحوا من أضعف أمة فى الناس : ولم يكن لهم بد من ذلك المصير المؤلم .

لم يكن من عمل القرآن أن يخترع للمسلمين قوانين حياة خاصة بهم ، وإنما كانت

أعظم وظائف القرآن أنه كشف لهم حقائق النواميس الكونية الخاصة بترقى الجماعات وإعزازها .

ودعاهم إلى العمل بها كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « بالتزام الموافقة بين سلوكهم ، وأحكام النواميس الكونية فإن فعلوا فقد ظفروا بأنفسهم ، وإلا فهم من الهالكين .

ولا يخرج مبدأ « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » إلى الوجود إلا بأداة الفكر الحر ، والتعبير الحر والنقد الحر ، فشرعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على جهة الوجوب الكفائى – كما قرر العلماء – تقتضى شرعية هذه الحرية على جهة الوجوب – أيضاً – : لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما قرر الأصوليون – أيضاً – وإذن فحرية التعبير عن نظر العقل فى أمر يتعلق به مصلحة الدولة ، أو مصلحة الجمهور واجب شرعى ووجوبه يتسلط على جهتين : جهة الأمام ، الذى يجب عليه أن يطلق الإذن للكافة باستعمال هذه الحرية ولايحجر عليهم فى استعمالها إلا عند معارضتها فى بعض محالها بخوف ضرر متأكد ، لا موهوم يصيب بعض مصالح الدولة فعندئذ يباح للإمام منع حرية النقد على أن يكون ذلك رخصة مؤقتة تقدر بقدر الضرورة التى دعت إليها وجهة القادرين على إبداء الرأى وتوجيه النقد إلى مايتعين انتقاده بمقدار تحقق المصلحة من عملهم وهنا نلاحظ أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أوسع سلطة فى الإسلام من مبدأ حرية النقد فى الأمم المتحضرة لاقتصار شرعية هذه الحرية فى تلك الأمور العامة ... لا الأمور الشخصية ، أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهو فى الإسلام يتناول القسمين جميعاً .

قلنا إن « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » فرض كفاية لافرض عين ، أى : إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، كما قلنا إن حرية البيان ، والانتقاد واجبة على المسلمين تبعاً لوجوبه – فهل تكون هى الأخرى ، فرض كفاية .

نقول نعم : لأن البصر بمواطن المؤاخذة والانتقاد ، ومعرفة الصحيح من الفاسد فى أمور المجتمع والدولة مما لا تتهيأ القدرة عليه لكل الخلق ، فمن الناس عاجزون عن ذلك ، أو مشتغلون عنه بأحد فروض الأعيان ، كالسعى على المعاش .

وإذا كان الأصل فرض كفاية لزم ، أن يكون شرطه الموقوف عليه - فرض كفاية .

ثم مامعنى قولهم فى فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ؟ أى بعض ؟ وما مقدار هذا البعض ؟

والذى أراه ، أن البعض المقصود هو من كان من أهل الخبرة بالأمر الذى يتكلم فيه . فمن دونه ليس من أهل الخبرة ..

فهذا إذا تكلم لايسقط به الغرض عن عامة المسلمين .

وأما مقدار البعض الذى يسقط بإنكاره الغرض ، فهو البعض الذى يتم بعدد أفراده إزالة المنكر المشهود ، فإذا لم يف عدد المنكرين بإزالة المنكر لزم زيادتهم ثم زيادتهم إلى الحد الذى يحصل عنده إمكان زوال المنكر ، وبغير ذلك لا يسقط الغرض عن عامة المسلمين ، ويظلون آثمين » .



العلماء والحكام

إذا صلح العلماء وصلح الأمراء وكانوا جميعاً على كلمة الحق . فمعنى ذلك صلاح الأمة كلها .

لكن اتصال العلماء بالسلاطين باب إلى الفتنة لاينجو منها إلا من عصم اللّه تعالى . فإذا فرضت مصلحة الدعوة أن يتصل العلماء بالأمراء . فإنها تفرض أيضاً أن يحتفظ العالم بعزته المشتقة من علمه وتقواه .. فلا يبيع دينه بدنياه . موقناً أن عزة المؤمن أولا : فى غناه عن الناس . وأن شرفه فى قيام الليل كما قال بشر بن الحارث .. فعليه أن يطلب العزة من مظانها . والشرف من مورده . فلا يغريه مال . ولايستذله منصب .

من عزة العلماء :

وفى عزة النفس ينشد الإمام الشافعى رضى اللّه عنه :

على ثياب لو يباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهل أكثرا

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها ... نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وما ضر نصل السيف اخلاق غمده ... إذا كان عضباً حيث وجهته فرا

(فهو يفخر بنفسه ويعتز بها . ويقارنها بنفوس من يرى من البشر المتنافسين فى الدنيا . المتهالكين على الأطماع . فترجح بها وتسمو عليها لأنها ليست من بابتها . ولا من واديها .

إذ بينما هذه مطلبها الكمال ، وتطلعها إلى معالى الأمور .. إذا بتلك إنما تستهويها المادة ، وليس لها مطلب غير الدينار والدرهم ، اللذين يتوصل بهما إلى قضاء مآربها الوضيعة ، والظهور بمظاهر العظمة الكاذبة من لباس فاخر ، وزينة متناهية ، لم يكن للشافعى رحمه اللّه منها إلا ثياب بسيطة تراد للستر لا للمباهاة ،

بحيث لو عرضت للبيع فى السوق لما تجاوز سومها الفلس الواحد ، من بخس ثمنها ، ووكس قيمتها .

ولكن متى كانت قيمة الشافعى وأمثاله فيما يلبسون أو يأكلون أو يسكنون ؟ وأين هم الآن الذين عايشوه من أهل الثراء الواسع ، والمآكل والملابس . والدور والقصور ، والخدم والحشم ، والرياش والأثاث .

هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ؟

إنها ملايين النفوس ، وأعداد الذر من الناس ، لانعرف لها اسما ، ولاتقف منهم على أثر ، تمتعوا بزينة الحياة الدنيا ، وكانت هى غاية مرادهم ، فذهبوا ولم يتحدث عنهم رائح ولا غاد .

والشافعى فى ثيابه الرخيصة ، ونفسه الغالية ، مايزال على مر العصور وتعاقب الأجيال ، خالد الذكر ، على القدر ملء سمع الدنيا وبصرها » [١] .

أجل مايزال الشافعى مثال العالم المعتز بعلمه .. المزرى بكل ما يملك الظالمون من قوة ستنتهى يوماً إلى البوار ، ويبقى بعد ذلك ما ينفع الناس .. يقول رضى الله عنه [٢] :

غنى بلا مال عن الناس كلهم — وليس الغنى إلا عن الشئ .. لابه
إذا ظالم يستحسن الظلم مذهبا — ولج عتوا فى قبيح اكتسابه
فكله إلى صرف الليالى فإنها — ستبدى له مالم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالماً متمردا — يرى النجم تيهاً تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو فى غفلاته — أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح : لا مال ولا جاه يرتجى — ولا حسنات تلتقى فى كتابه
وجوزى بالأمر الذى كان فاعلاً — وصب عليه الله سوط عذابه

*

(١) أدب الفقهاء ١٢١ ، ١٢٢ للشيخ عبد الله كنون .

(٢) ديوان الشافعى ١٧

وفى تعبير كاشف عن الإباء فى قلوب العلماء .. وغناهم القانع بما آتاهم اللّه من الحكمة وفصل الخطاب يقول أبو الحسن النعيمى :

إذا أعطشتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً وريا

فكن رجلاً : رجله فى الثرى وهامة همته فى الثريا

أبيا بنفســـك عن باخل تراه بما فى يديه أبيا

فإن اراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا

- مدح العلماء :

وإذا سن الإسلام التنويه بمن أحسن : تقديراً له ، ودفعاً إلى مزيد من الإحسان ، فإن مديح السلاطين مزلقة قد تفرض على المادح تحريف الكلم عن مواضعه .

ولقد كان العلماء بنجوة من هذا الداء .

فقد بخلوا بمديحهم أن يكون إلا للّه تعالى .

وإذا منحوا .. كانوا محكومين بهدى الإسلام ..

بل ربما وصل الإباء ببعضهم ففرض على الحاكم أن يمدح هو العالم حيا ويرثيه إذا مات .

وكان منهجهم فى هذا الباب واحداً من أهم العناصر فى تكوين شخصيته المسلمة .. وأساساً من أسس رقى الأمم . يقول الشيخ عبد اللّه كنون [١] : (لا يمدح الفقهاء رغبة فى المال . ولا يتعرضون للأمراء قصد الحصول على جوائزهم .

فإن ذلك شأن الشعراء : ابتذلوا الشعر بالتكسب به ، بعد أن كان عزيزاً رفيعاً . أما الفقهاء فقد احتفظوا للشعر بمكانته العالية ، لاعتزازهم بالعلم وترفعهم عن السؤال ، ولقد كانوا هم الذين سجلوا هذه الانتكاسة التى وقع فيها الشعر ، منذ عهد النابغة والأعشى .

فليس غريباً أن ترى عكس القضية بالنسبة إليهم . أى أن يمدح الأمراء الفقهاء !

---

(١) أدب الفقهاء ص ١٤٣ ، ١٤٤

فهذا هو الخليفة أبو جعفر المنصور يقول فى عمرو بن عبيد وقد بهره علمه وزهده :

كلكـــم يمشى رويد ... كلكـــم يطلب صيد

غيـر عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه .. رثاه بأبيات من نظمه [1] ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه .

وأصفقت [2] كلمة الفقهاء على ذم من خالف هذا السلوك . وتعلق بأذيال الملوك ! حتى قال أبو القاسم الشاطبى :

قـــل للأميـــر مقالة ... مـــن عالـم فطن نبيه

إن الفقيـــه إذا أتى ... أبوابكم لا خير فيـــه

وقد كان هذا الموقف الكريم وارداً ضمن منهجهم فى الإصلاح . هذا الإصلاح الذى لا يتم بحال إذا ربط العالم مصيره بالحاكم .. وصارت المناصب غايته العليا .. ولو على حساب كرامته ودعوته !

وإنما الإصلاح الحقيقى إذا استقل العالم بفكره ورأيه . وصدر فى أحكامه عن القرآن والسنة . لا عن هوى الحاكم .

• الصور المقابلة :

وإذا بدت صورة العالم المعتز بعلمه وغناه تسر الناظرين .. فإنها تزداد وضاءة إذا كشف الغطاء عن الصورة المقابلة .. صورة المنافق المتزلف البائع دينه بدنياه .. أو بدنيا غيره .

ولما كانت الأشياء تتميز بأضدادها فإننا نثبت هنا صورة المنافق القلق .. الحائر .. المتقلب ..

ليزداد الذين اعتزوا اعتزازاً .. ويستيقن الآكلون بأقلامهم وألسنتهم أنهم يأكلون فى بطونهم نهاراً .

قال الشاعر محمد حمام :

ما دامت فى جنة النفاق ... فاعـــدل بساق ومل بساق

(١) انظر ابن خلكان ج ل ص ٣٨٥

(٢) اتفقت .

ولا تقـــارب ولا تبـــاعـــــد ودر مـــع الثور فـى السواقى

وضاحك الشمس فى الدياجى وداعـــب البدر فـــى المحاق

ولا تحقــــق ولا تـــدقـــق وانسب شآما إلـــى عراقـــى

وقـــل كـــلاماً بغير معنى واحلف علـــى الإفك بالطلاق

ولا تصـــادق ولا تخاصـــم واستقبـــل الكـــل بالعنـاق

فـــأى شخـص كـــأى شخص بلا اختـــلاف ولا اتفـــاق

وأى شـــئ كـــأى شـــئ ما دمت فـــى جنـــة النفاق

ولذلك وضع الفقهاء من العلماء مبدأ استقلال القضاء عن عجلة الحكم الدوارة ليظل حارساً للحق .. حامياً من التلون والنفاق . وهو ما فطن إليه الأجانب أخيراً ..

يقول الشيخ عبد الله كنون فى نفس الموضع توضيحاً لهذا المعنى : « وهم يصدرون فى ذلك عن مبدأ استقلال القضاء إذ كانوا هم أهله ومسئوليه . وعن مبدأ حرية الفكر . إذ كان لهم حق الرقابة على سياسة الدولة بموجب تصديهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فمهمتهم لا تتلاقى بحال مع مداخلة الأمراء ومدحهم . وإسلاس القياد لهم . ولذلك كانوا يشبّهون بالقرد من إذا خرق هذا الناموس منهم ولم يحافظ على وقار العلم وجلاله .

وكان العامة معهم على هذا الرأى :

فهم لا يكبرون قدر العالم إذا كان يحشر نفسه فى حاشية السلطان . لأن ذلك مدعاة إلى موافقته على هواه .

والأمر بكل الأحوال لا يعدو ما فطن له الغربيون أخيراً . ولم يحصلوا عليه إلا ببذل التضحيات الجسمية . وهو حماية القانون . والتعبير عن الرأى . بفصل السلطات والحصانة النيابية .

وأكثر ما يمدح الفقهاء تقريظاً لزملائهم من أهل العلم والدين . وتمجيداً للرسول ﷺ . وثناء على الله عز وجل . ولا يعنى هذا أن أحداً منهم لم يمدح أميراً ولا ذا سلطان قط . فلكل قاعدة شذوذ .

وقد كان هناك من العلماء من مدحوا الملوك والخلفاء .

إلا أنهم قلة . ومع ذلك فهم لم يستهتروا فى هذا الأمر استهتار غيرهم من الشعراء ولم يتخذوه حرفة .

وكانوا لا يمدحون إلا من يستحق المدح » .

إذن فلا مانع من اتصال العلماء بالحكام شريطة ألا يكونوا متطفلين .. ولا سائلين وأن ينطلق العالم فى معاملته للحاكم من فكره الحر . ورأيه المستقل .. غير مادح إلا من يستحق المدح .. بعيداً عن الشعراة التقليديين الذين هم فى كل ودا يهيمون .

ولكن ما بال أناس يحرفون الكلم عن مواضعه . فيحجرون على العالم حتى لا يتصل بالحاكم مهما صدقت النوايا وشرفت الغايات ؟

هل القضية من خلاف العقيدة .. أم هو خلاف الرأى الذى لا يفسد قضية الود بين المسلمين ؟

• خلاف الرأى لا خلاف العقيدة :

عندما ظهر كتاب « الشعر الجاهلى » للمرحوم الدكتور طه حسين . هاجمته الصحف هجوماً شديداً .

وعندما قرأ والد الدكتور طه حسين ماكتبته الصحف . فزع فزعاً شديداً . وكتب إلى ابنه رسائل تفيض بالحزن والأسف .

وفى كل رسالة كان يدعو لابنه بالهداية والتوفيق . فكتب الدكتور طه حسين إلى والده الخطاب التالى :

أبى : أنت أوصيتنى بألا أصدق كل ما أسمع . وأنا أوصيك بألا تصدق كل ما تقرأ .

ذكرت هذا الموقف لصديقى الذى جاء مذعوراً من هذه الغضبة المضرية من قبل شباب يرون أن اختيار مرشح مكان آخر من مسائل الإيمان التى تفرض مقاطعة المخالف فى الرأى فلا يلقى عليه السلام .. بل لا يقبل منه السلام !

وقلت له ما قاله الدكتور طه حسين لوالده ليجفف من دمعه الغالى .

ولتتضح له حقيقة الموقف الذى لا يعدو أن يكون زوبعة فى فنجان كما يقولون . فنحن مجتمعون على كلمة التوحيد والحمد لله . وتضمنا الفرائض المشروعة .

وإذن . فكل خلاف خارج هذه الدائرة رغوة عائمة سرعان ما تتبخر . لينكشف من تحتها الماء الصافى .

ولست أدرى إذا ذهب خلاف الرأى حول النوافل إلى حد أن تصم خصمك بالفسوق .. فكم تكون شقة هذا الخلاف حول فرضية الزكاة مثلاً ؟ إن مجرد الاتصال بالحاكم جريمة فى ذهن أناس لا نشكك فى إخلاصهم . ولكننا نشك كثيراً فى جدوى مسعاهم .. وفى النتائج التى يحلمون بها من وراء هذه العزلة المصطنعة .

ولا على الذين يحملون فى قلوبهم نوايا الخير . أن يمدوا أيديهم إلى الحاكم فى محاولة للاتفاق على تصحيح مسار الحياة طبق منهج الله تعالى .. ما على هؤلاء من حرج فيما اختطوا لأنفسهم من مناهج الإصلاح المرتكزة على هذه النوايا الطيبة .. ماداموا لا يساومون على العقيدة . ولا يتهاونون فى حق . ولا يهادنون فساداً . ورحم الله الإمام الشافعى عندما هوجم من قبل زملاء المهنة من العاملين معه فى الحقل الإسلامى إلى درجة أن دعا أحدهم عليه بالموت .. فلم يزد على أن أنشد :

تمنــى أناس أن أمــوت . وإن أمت	فتلك سبيــل لست فيهــا بأوحــد
وقد علموا – لو ينفع العلم عندهم –	لئــن مت .. ما الداعــى على بمخلد
وقــد يسبق الداعى إلى ما به دعا	فلا يأمنــن ألا يكــون هـو الردى

● مثال من الواقع :

إذا كان استقلال العالم عن مشتجر الآراء هو القاعدة النائية به عن مواطن التهم . إلا أن المرحوم الشيخ عمر التلمسانى كان لا يرى مانعاً من انضمام العالم إلى حزب سياسى ولو كان حزب الحكومة ما دام محتفظاً بشخصيته . مرتفعاً بها فوق الأطماع . قادراً على أن يوجه زملاءه فى الحزب إلى ما فى شرع الله تعالى من حكمة تدعو إلى تحكيمه فى شئون الناس .

وفى حديث مع العالم الجليل الشيخ محمد متولى الشعراوى [١] سأل المحرر الشيخ الشعراوى : من عادة الإنسان أن يقول شيئاً فى لحظة . ثم تمر به السنون . ويكبر وينمو . وينضج . ويراجع نفسه . وقد يغير رأيه .

فهل غيرت رأيك فى هذه القصيدة التى قلتها فى مدح الوفد والنحاس .

فرد الشيخ الشعراوى : لو كنت قد غيرت رأيى ما كنت قد حفظت القصيدة حتى الآن .

لقد كنت أتصور على سبيل المثال أن الثورة عندما قامت . فإنها سوف تعيد مصطفى النحاس إلى الحكم .. لأنه الزعيم الوطنى الذى ضحى بالكثير .

ثم أضاف الشيخ الشعراوى :

نعود إلى قصة الإنفصال عن الأخوان : عندما بلغ الشيخ حسن البنا نص القصيدة التى قلتها فى مدح مصطفى النحاس زعل الشيخ حسن . الله يرحمه .

وعاتبنى فى هذه القصيدة . فقلت له : يا شيخ حسن : إذا استعرضنا زعماء البلد اليوم . لنرى أقربهم إلى منهج الله . حتى نكون بأرواحنا معه . فلن نجد إلا النحاس

فهو رجل طيب . لا يدخن سيجارة ولا غيره . فإن كان لابد أن نوالى أحد السياسين : فلابد أن يكون النحاس هو السياسى الذى نواليه .

وحينئذ قال الشيخ حسن رحمه الله قوله المشهور : هو أعدى أعدائنا لأن له ركيزة فى الشعب . هو الوحيد الذى يستطيع أن يضايقنا .. أما الباقون فنقدر أن نبصق عليهم جميعاً ..

ومن هنا .. « ومنذ عام ١٩٣٨ انفصلت عن الأخوان » .

وهكذا كان الرد القاسى من قبل الإمام الشهيد سبباً فى اعتزال الشيخ الشعراوى .. جماعة الأخوان المسلمين .

ولم يحرمه الانفصال من أداء مهمته كداعيه إسلامى .. له فى كل قلب تقدير خاص .

---

(١) مجلة أكتوبر العدد ٥٥١ « وكان الشيخ الشعراوى قد ألقى قصيدة فى النادى السعدى مدح فيها « سعد زغلول » و « النحاس » عام ١٩٣٨ .

ويبقى الموقف درساً لشباب تنقصهم المرونه فى معاملة الحكام . فاتسعت بينهم مسافة الخلف .. إلى حد لا يسمح فيه الجفاء بلقاء لمصلحة الأمة ومصلحة الدعوة معاً

وما زال تراثنا الإسلامى حافلاً برجال على الطريق .. خدموا الدعوة تحت مظلة السياسة . حين وقفوا فى خندق واحد مع الحاكم فكانوا قوة للضعيف . ونصيراً للمظلوم .

داعية .. تحت مظلة السياسة :

يستنكف بعض الشباب أن يشتغلوا بالسياسة فراراً من حياة لا يجدون فى صدورهم حاجة إليها .. وأكتفاء . بخدمة الدعوة التى إليها يرغبون .

وفى غيبة العناصر الطيبة يتنافس المتنافسون لاحتلال مراكز التوجيه .

وعلى فرض صلاح القائد فإن حاجته ماسة إلى أعوان مخلصين يديرون معه دولاب العمل .

وإلا .. فإن بطانة السوء لتحجب جوهره فلا يصل إشعاعه إلا حيث يريدون . وسوف نبحث حينئذ عن الشباب المسلم فلا نجده .. وإذا وجدناه فعلى مركب اليأس المدمر من إصلاح كان منهم قريباً .. لكنهم لم يبتغوا إليه سبيلاً .

• رفقة الخير :

من أجل هذا كان أبو جعفر المنصور يقول : « ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر . لا يكون على بابى أعف منهم . هم أركان الملك لا يصلح إلا بهم .

أما أحدهم : فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم .

والثانى : صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى .

والثالث : صاحب خراج يستقصى لى . ولا يظلم الرعية . فإنى غنى عن ظلمها .

والرابع : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة .

ونسى أبو جعفر الركن الخامس والأهم وهو : الداعية الناصح .

ففى ضوء حكمته : يعدل القاضى .. وينصف الشرطى .. ولا يظلم صاحب الخراج .. ويصدق حامل البريد !

ونختار مثالاً لهذا الداعية « رجاء بن حيوة » رضى اللّه عنه .. الذى كانت حياته أسوة للدعاة .. حين علم .. .. وعلم .. واشتغل بالسياسة لخدمة الدعوة فكان له ما أراد .

دراسته :

استهل حياته بحفظ القرآن الكريم .. ثم تعلمه واستنبط منه على أيدى نخبة من أجلاء الصحابة الذين تلقوا أسرار الوحى فى مهبطه .

ولم يشأ أن يأخذ العلم على يد زميل له فى الدراسة والذى نسميه اليوم « عبد المعين » الذى تطلب عونه فإذا هو مثلك يطلب العون !

وقف على مفترق الطرق : بين علم قد استوعبه .. ومجتمع تعتريه علل تعوق سيره .

وإذا لم ترقه من الحاكم أفعال . فإن سبيله إلى الإصلاح أن يضئ شمعة بدل أن يلعن الظلام .. وذلك بالوقوف إلى جانب الحاكم ناصحاً أميناً ..

ومن هنا قرر الاشتغال بالسياسة !

منهجه فى الإصلاح :

أقام منهجه فى الإصلاح على ركائز منها :

١ - تقدير الطبيعة البشرية وميولها .

٢ - التعاون مع الحاكم فيما أتفقا عليه . واستعمال الحيلة فيما اختلفا فيه .

٣ - التصدى لحاشية السؤ حتى لا يأخذوا مراكزهم فى غرفة العمليات .

٤ - أن يكون الزمن جزءاً من العلاج فيما لم يستطع اتخاذ قرار بشأنه الآن .

حاشية السوء :

ذكر شخص لعبد الملك بن مروان بسوء . و « رجاء » حاضر . فقال الخليفة : واللّه إن أمكننى اللّه منه لأفعلن به وأصنعن .

فلما أمكنه اللّه منه . هم بإيقاع الفعل به . فقال رجاء : يا أمير المؤمنين : صنع اللّه ما أحببت . فاصنع ما يحب اللّه من العفو . فعفا عنه وأحسن إليه .

هذا الموقف بلغة العصر :

إن أحد المقربين للوزير يوغر صدره على زميله فى المكتب الفنى ؟!

وحققت الوشاية غرضها بالقسم على الانتقام منه فور القبض عليه .. وتوشك الرواية أن تتم فصولاً حين يتربع الواشى على القمة وحده فى غيبة زميله المغضوب عليه .

وأحس « المستشار » بمضاعفات الموقف .. وما يترتب عليه من آثار فنصح الوزير بالعفو صادراً فى نصحه عن حس إسلامى يرى فى التهمة غيبة أو بهتاناً .

وإذا استهدفت الوشاية حرمان الوزير من رجاله الذين يتساقطون من حوله .

فإن المستشار الأمين يمسك ثروة الرجال أن تزول فى معركة المصالح الشخصية .. وأشد الناس خسراناً من يبدد ثروة الرجال .

حين يكون الزمن جزءا من العلاج :

عرض عليه « سليمان بن عبد الملك » فى مرض موته فكرة نقل السلطة إلى الجدير بها .

وكان هوى الخليفة مع يزيد بن عبد الملك .

وكان قلب « رجاء » مع عمر بن عبد العزيز الذى سوف يحقق آمال المستشار فى الإصلاح .

فماذا يفعل ؟

إن العين بصيرة .. واليد قصيرة !

ولكن اليد القصيرة تطول بالحكمة ، وإذا قصر رمحك عن الغرض فتقدم خطوة إلى الأمام ..

وكان من حكمته أن شهد بالصلاح « لعمر » لما رشحه الخليفة مأخوذاً بتقواه ..

لم يرفض يزيد بن عبد الملك لما رشحه ولياً للعهد - ولم يكن أهلاً للولاية فى نظره - موهماً الخليفة أن حسم القضية بيده - بيد الخليفة - تاركاً للزمن حل مسألة « يزيد ابن عبد الملك » على يد عمر بن العزيز الذى سوف يحقق اللّه به الحق ويبطل الباطل

إذا ولى الأمر .. وإلا فلو اعترض على يزيد واستخفه الفرح بتولية عمر .. فربما تخلص الخليفة من الاثنين معاً .. وضاعت أحلامه فى الإصلاح .

تقديره للطبيعة البشرية :

مات ولد لعمر بن عبد العزيز ، فحزن عليه كثيراً ، فقال له « رجاء » أكان ابنك يا أمير المؤمنين يخلق ؟ قال لا ، قال : أفكان يرزق ؟ قال : لا ، قال : فما جزعك على مخلوق مرزوق ؟! اللّه خير له منك ، وثواب اللّه خير لك منه .

إن الداعية هنا يحاكم المدعو إلى العقل الواصل فى النهاية إلى الصواب فى موضوع النزاع ، وفى أسلوب خال من الجفاء أو الجفاف .

وحين يختلف الموقف .. وتتغير الأشخاص فإنه ينحى الدليل جانباً – حيث لاجدوى منه حينئذ – ليترك الطبيعة البشرية تعبر عن نفسها تعبيراً ترى من بعده الحق المبين .

فعندما فاض الحزن بسليمان بن عبد الملك وابن له يحتضر .. قال له « رجاء » إنى لا أرى بالبكاء بأساً لألم بات الأمر المفرط .

وأن الرسول ﷺ بكى عندما مات ولده إبراهيم رضى اللّه عنه ، فبكى سليمان واشتد بكاؤه بهذا التصريح ؟!

ولما أنكر عمر بن عبد العزيز على الداعيه فتواه قائلا : بئس ما صنعت بأمير المؤمنين ، قال له رجاء : « دعه يا أبا حفص يقضى من بكائه وطراً ، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى ، خفت أن يقضى عليه » .

ورحم اللّه الداعية الذى : تعلم القرآن .. واستنبط من حقائقه ، أسلحة نزل بها أرض الإصلاح .. فكان عوناً للحاكم .. وأملاً للمحكوم ..

وكان طبيباً للنفوس خبيراً باتجاهاتها .. فأضاف إلى العلم الشرعى بعداً آخر ساعده فى اقتحام مسار بها والاستيلاء عليها لحساب الحق ..

رحم اللّه داعية متجدداً .. مجدداً .. تظل الدعوة فى كيانه زهرة لا تقبل الذبول .. ونجماً لا يعتريه الأفول .

فلسفة ابن حيوه :

كان رجاء بن حيوة رضى الله عنه ينطلق فى دعوته من أصلين :

(أ) تقديره لطبيعة الإنسان بعامة ، وما يتطلبه من حيلة يستدرجه بها إلى الحق .

(ب) تم تقديره لظروف الحاكم بخاصة ، وما يجلبه السلطان من ضيق بالنصيحة وتبرم بقائلها ، يفرض على الداعية استعمال الحيلة .

وللحيلة دورها فى رجع المعاند إلى الحق من حيث لا يشعر .. وتاريخ الإنسان حافل بنماذج تحتذى :

١ - رأى أحد الملوك رؤيا ، فاستدعى مفسراً للأحلام فقال له : كل أهلك سيموتون قبلك .. فطرده ..

ولما استقدم شخصا آخر حكيماً عبر بما لا يصدم مشاعره .

فقال : أنت أطول أهلك عمراً .. فكافأه !

وإذا كان الخلاف بين المفسرين لفظياً ، إلا أنه لما اختلفت الوسيلة اختلفت النهاية .

٢ - هوجم اليونان يوماً ، فقالوا : نقول للرومان : ساعدونا مثلما ساعدناكم من قبل ..

وقال حكيمهم : بل إن ذلك يثير حفيظتهم .. وهو لون من المن يحبط مفعول العمل .. بل نقول لهم : طالما ساعدتمونا .. فاستمروا ، وإن شعباً عظيماً كشعب الرومان لن يبخل علينا بشئ .. ونجحت الفكرة .

٣ - وفى فترة حصار المسلمين ابان الحروب الصليبية كان صلاح الدين يرسل إليهم النجدة عن طريق بعض رجاله ، ولكنه كان يلبسهم زى النصارى ، وبأيمانهم الصلبان تمويها . ونجحت الخطة أيضاً .

أما عن تقديره لظروف الحاكم ، فقد كان على يقين أن للسلطان سكرة قد تنسى الحاكم ماضيه المألوف .. ليكون شخصاً آخر يطالعنا بخلق جديد ! إن صاحبك الأثير لديك .. قد يصبح غداً فى موقع السلطة فماذا يحدث ؟

إن الحرس عن يمينه وشماله ..

والأبواب التى تفتح لقدومه .. هو بالذات ..

ورنين الهاتف الذى يحمل إليه مشاعر الإعجاب .. والتقدير لكل ما يقول ويفعل .. بغض النظر عن سلامة موقفه .. وتوقيعه المبارك الذى يسوق الرزق بلا حساب .. وعدسات المصورين تلاحقه حيثما سار . كل أولئك يشكل غابة متشابكة تجعل من وصول النصيحة إليه أمراً صعباً ..

فلا بد من عمليه « تمرير » للنصيحة حتى تخلص إليه من خلال هذه الفروع المتشابكة .

هذا ما فطن إليه « رجاء بن حيوة » رضى اللّٰه عنه ، وحمله على ملازمة الحاكم .. محتفظاً بعقيدته ، نائياً بها عن مجال المساومة ، ثم نزل إلى ساحة الحكم بحيلته .. وبحنكته .

وهو أيضاً ما حمل بن القيم على لفت أنظار الدعاة إلى ما للسلطان من سكرة تفرض عليهم تقديرها ، وحسن التعامل معها ، يقول : « كثير من الناس يطلب من صاحبه بعد نيله درجة الرياسة الأخلاق التى كان يعامله بها قبل الرياسة ، فلا يصادفها ، فينتقض ما بينهما من المودة .

وهذا من جهل الصاحب الطالب للعادة .

وهو بمنزلة من يطلب من صاحبه إذا سكر أخلاق الصاحى، وذلك غلط . فإن للرياسة سكرة كسكرة الخمر أو أشد .

ولو لم يكن للرياسة سكرة لما اختارها صاحبها على الآخرة الدائمة الباقية ، ومحال أن يرى من السكران أخلاق الصاحى وطبعه .

ولهذا أمر اللّٰه تعالى أكرم خلقه عليه بمخاطبة رئيس القبط بالخطاب اللين ، فمخاطبة الرؤساء بالقول اللين أمر مطلوب شرعاً وعقلاً ، وعرفاً .

ولذلك تجد الناس كالمفطورين عليه : وهكذا كان النبى ﷺ يخاطب رؤساء العشائر والقبائل .

وتأمل امتثال موسى لما أمر به ، كيف قال لفرعون « هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى » [١] فأخرج الكلام مخرج السؤال والعرض لا مخرج الأمر .

وقال « إلى أن تزكى » ولم يقل : إلى أن أزكيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكى دون غيره ، لما فيه من البركة والخير والنماء ثم قال « أهديك إلى ربك » أكون كالدليل بين يديك ، الذى يسير أمامه .

وقال « إلى ربك » استدعاء لإيمانه بربه ، الذى خلقه ورزقه ، ورباه بنعمه صغيراً ويافعاً وكبيراً [١] .

• نصيحة الحكام .. فن :

وانطلاقاً مما سبق يتبين لنا كيف كانت نصيحة الحكام فنالا يجيده إلا الذين علموا .. والذين صبروا : « روى الحاكم فى المستدرك من حديث عياض بن غنم الأشعرى : « من كانت عنده نصيحة لذى سلطان ، فلا يكلمه بها علانية ، وليأخذ بيده فليخل به ، فإن قبلها ، فبها ، وإلا كان قد أدى الذى عليه ، والذى له « قال صحيح الإسناد »

• أسوة فى نصح الحكام :

فيما يروى عن بعض الصالحين : « لو كانت لى دعوة مستجابة لوهبتها للحاكم .. ففى صلاح الحاكم صلاح الأمة » .. ومن هنا قال ابن الجوزى أحوج الخلق إلى النصائح والمواعظ : السلطان .

ولكن المشكلة : كيف ننصح السلطان ؟

وفى محاولة للإجابة عن هذا السؤال نقدم هذا الموقف :

كان المنصور - الخليفة العباسى - قوى الشخصية يهابه الناس جميعاً . دخل عليه « الأوزاعى » يوماً فقال له عظنى ..

وقد أراد القدر نفع المنصور فهيأ قلبه لقبول النصح .. وساق إليه موعظة على فراغ الفكر سوق المطر إلى الأرض القاحلة ﴿ فيخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ .

---

(١) بدائع الفوائد ج ١٣٣/١٣٢/٣ .

قال الأوزاعى : يا أمير المؤمنين : إن الله هو الحق المبين ، ومن كره الحق فقد كره الله .

يا أمير المؤمنين : إن الملك لا يدوم لأحد ، وإنما الملك لله وحده .. ولو دام لأحد ما وصل إليك ..

واعلم : أن أعز الناس عند الله التقاة .

فمن طلب العز بطاعة الله تعالى رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصيته وضعه الله وأذله .

فلما انتهى الأوزاعى من موعظته أمر له المنصور بمال .

فاعتذر الأوزاعى عن قبوله وقال : يا أمير المؤمنين .. ما كنت لأبيع نصيحتى بعرض الدنيا فأحرم ثوابها ، وأقلل من نفعها .

وما دام أمير المؤمنين قائماً فينا بالعدل .. فنحن فى خير الله ثم فى خيره .

• الخليفة يخترق الأسوار :

لقد كان المنصور ذا شخصية ساحقة ربما أمسكت ألسنة فلم تنطق بالحق وأطلق ألسنة أخرى تلهج بالثناء عليه .. والإشادة بسياسته .. وقبل أن يصنع المديح سداً بينه وبين الآخرة يخترق هو الأسوار .. طالباً النصيحة الواصلة به إلى حيث يشم رائحة الآخرة بما فيها من حساب وجزاء .. وحقق بهذا الطلب معنى أساسياً .. فلما قال الأوزاعى نصيحته تمت الصورة .. صدقاً وعدلاً !

• الداعية عند حسن الظن :

وإذا كان المنصور الخليفة المتألق لم يخدعه مجده السياسى فطلب من الأوزاعى أن ينقده .. وجلس بين يدى العالم تلميذاً يتعلم فن الحياة ! فإن الأوزاعى أيضاً لم يخن أمانة الدعوة ولم يخدع بما تجره الزلفى من متاع : وقالها كلمة باقية :

(أ) ذكره بمسئوليته فى ارساء دعائم العدل وصولاً بالحقوق إلى أصحابها ..

(ب) ثم حذره بأن التفريط فى هذا الواجب معناه الاعراض عن الله وما يترتب على الاعراض من مخاطر .

(جـ) وأخيراً : فتح بصره على الباب الذى تهب منه رياح الفتنة وهو استشعار الحاكم بأنه وحده فوق القمة ، وعلى الأمة أن تدور فى فلكه .. وأن للعزة باباً غير التسلط وهو طاعة اللّٰه تعالى والأخبات إليه .

وكان من الممكن أن يفتح الأوزاعى النار على الخليفة وهو آمن .. لأن الخليفة هو الذى طلب النصيحة .

ثم إنه لا يطلب على الموعظة أجراً ، فما أحراه أن يقسو فى الدعوة لكنه لم يفعل .

وقدم النصيحة فى طبق من أدبه وتقواه ، وحرصه على الدعوة أن تظفر بخليفة كالمنصور يكون سنداً لها .

إن بعض الدعاة يرسلون وابلاً من المواعظ يصبونه على رءوس الحكام .

إنه وابل من المطر ، ولكنه فوق طاقة الأرض فلا تصلح به !!

إنه صيب من السماء : فيه ظلمات ورعد وبرق ، فكيف يستيقظ قلب المدعو لهذا الاعصار ويتأمل حياته ، والمدافع الثائرة لم تترك له فرصة الاستيعاب ؟!

وهل ينسى الأوزاعى أن ذلك الوابل يحكم على الدعوة بالعزلة .. فلا يكون تفاهم .

وهل ينسى الدعاة سنة اللّٰه فى البشر .

إن الإنسان مفطور على بغض من ينافسه فى دنياه ، إذا كان لا يؤمن إلا بالدنيا ، وعلى بغض من يحرمه من شهواته إذا كان لا يعرف إلا هى ولا بد من الحكمة المانعة من الصدام .

• احتلال قلب الخليفة :

ولقد وصلت الموعظة إلى قلب الخليفة ، لأنها صدرت عن داعية عرف كيف يسددها وكيف يمهد لها تمهيداً .

وعندما أراد المنصور أن يترجم عن إعجابه بها قرر أن يكون ذلك فى صورة جائزة مالية .

ولم يكن يدرى أن القدر يخبئ له درساً آخر أبلغ من الموعظة نفسها !

لم يكن الأوزاعى من ذلك النوع المتحمس القاطع حبال التفاهم مع الحاكم ..

ولم يكن من ذلك النوع الآكل على موائدهم المانع بالأكل أن تصل موعظته إلى مستقرها .

ولكنه كان وفياً لدعوته وفاء يفرض عليه كسب المزيد من الرجال لا أراقة المزيد من الدماء .

وإذا أراد الخليفة أن يجعل من الموعظة « درساً خصوصياً » مدفوع الثمن ، فقد علمه العالم أن هناك شيئاً أغلى من المال هو : أن تحقق النصيحة ثمرتها ..

وهذه هى جائزته !

إنه قطعة من السكر ، تذوب فى الماء ، فتتركه حلوا ، وتختفى عن الأنظار .

ولو قبل الأوزاعى المال ، ولو قبل المنصب لما استطاع فى الغد أن يقول كلمته بهذه القوة ، لأنه سصبح متحدثاً باسم الخليفة لا باسم الدعوة !

يقول ابن الجوزى فى صيد الخاطر : « ينبغى لمن وعظ سلطاناً أن يبالغ فى التلطف ولا يواجهه بما يقتضى أنه ظالم ، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة ، فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إذلالاً ، وهم لا يحتملون ذلك .

وإنما ينبغى أن يمزج وعظه بذكر شرف الولاية ، وحصول الثواب فى رعاية الرعايا ، وذكر سير العادلين من أسلافهم .

ثم لينظر الواعظ فى حال الموعوظ قبل وعظه .

فإن كانت سيرته حميده ، وقصده الخير ، زاد فى وعظه ووصيته .

وإن رآه ظالماً لا يلتفت إلى الخير ، وقد غلب عليه الجهل ، اجتهد فى ألا يراه ولايعظه ، لأنه إن وعظه خاطر بنفسه ، وإن مدحه كان مداهناً .

فإن اضطر إلى موعظته كانت كالإشارة . وقد كان قوم من السلاطين يلينون عند الموعظة ، ويحتملون الواعظين .

حتى أنه قد كان المنصور يواجه بأنه ظالم فيصبر .

وقد تغير الزمان وفسد أكثر الولاة ، وداهنهم العلماء ، ومن لا يداهن لا يجد قبولاً للصواب فيسكت .

وقد كانت الولايات لا يسألها إلا من أحكمته العلوم ، وثقفته التجارب .

فصار أكثر الولاة يتساوون في الجهل ، فتأتى الولاية على من ليس من أهلها .

ومثل هؤلاء ينبغى الحذر منهم . والبعد عنهم .

فمن ابتلى بوعظهم فليكن على غاية التحرز فيما يقول . ولا ينبغى أن يغتر بقولهم : عظنا .. فإنه لو قال كلمة لا توافق أغراضهم ثارت حرارتهم . فمن اضطر تلطف غاية التلطف . وجعل وعظه للعوام . وهم يسمعون . ولا يعنيهم منه بشئ والله الموفق [١] .

وبعد :

فقد نبه الأوزاعى الخليفة بأن العدل أساس الملك .. وهو أساس الدعوة أيضاً :

فكلما كان العدل وطيد الأركان .. كلما عاش الداعية آمنا مطمئناً .. موفور الكرامة . مرفوع الهامة .. بعيداً عن اغراء الحوافز والجوائز . وما أحوج الدعوة إلى الأمراء والعلماء :

أمراء : يطلبون النصيحة .. ولا يستكبرون ..

وعلماء : ينصحون ولا يفضحون !!

* حظوظ العلماء :

ويجدد ابن القيم تحذيره للعلماء .. شارحاً أن ما يفوتهم من نوال السلطان لا يساوى شيئاً إزاء ما يتحقق لهم من صلاح البال . وهو ما لا يتحقق للسلطان أبداً .. قال (وقد رأينا جماعة من العلماء خالطوا السلطان فكانت مغبتهم سيئة . ولعمرى أنهم طلبوا الراحة فأخطئوا طريقها . لأن غموم الطلب لا توازيها لذة مال ولا لذة مطعم . هذا فى الدنيا قبل الآخرة .

ومن أشرف وأطيب عيشاً من منفرد فى زاوية [٢] لا يخالط السلاطين ولا يبالى أطاب مطعمه أم لم يطب .

---

(١) صيد الخاطر . . ٥٠

(٢) لقد عاب هذا النوع من قبل .

فإنه لا يخلو من كسرة وقعب ماء . ثم هو سليم من أن تقال له كلمة تؤذيه أو يعيبه الشرع حين دخوله عليهم أو الخلق .

ومن تأمل حال بن حنبل فى انقطاعه . وحال ابن أبى ذؤادبة ويحيى بن أكثم عرف الفرق فى طيب العيش فى الدنيا والسلامة فى الآخرة .

وما أحسن ما قال ابن أدهم : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف .

ولقد صدق ابن أدهم . فإن السلطان إن أكل شيئاً خاف أن يكون قد طرح له فيه سم وإن نام خاف أن يغتال ، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفرجة ، فإن خرج كان منزعجاً من أقرب الخلق إليه واللذة التى ينالها تبرد عنه . ولا تبقى له لذه مطعهم ولا منكح .

وكلما استظرف المطاعم أكثر منها ففسدت معدته . وكلما استجد الجوارى أكثر منهن فذهبت قوته ، ولا يكاد يعد ما بين الوطء بقدر بعد ما بين الزمانين ، وكذلك لذة الأكل .

فإن من أكل على شبع ، ووطئ من غير حدة شهوة ، لم يجد اللذة التامة التى يجدها الفقير إذا جاع ، والعزب إذا وجد امرأة .

ثم إن الفقير يرمى نفسه على الطريق فى الليل فينام ، ولذه الأمن قد حرمها الأمرا‌ء فلذتهم ناقصة . وحسابهم زائد .

واللّه ما أعرف من عاش رفيع القدر بالغاً من اللذات ما لم يبلغ غيره إلا العلماء المخلصين كالحسن وسفيان وأحمد [٢] والعباد المحققين كمعروف فإن لذة العلم تزيد على كل لذة .

واما ضرهم إذا جاعوا أو ابتلوا بأذى ، فإن ذلك يزيد فى رفعتهم .

وكذلك لذة الخلوة والتعبد ، فهذا معروف ، وكان منفرداً بربه طيب العيش معه ، لذيذ الخلوة به .

---

(١) ساقطة من الحديث .　　　(٢) ساقطة من الحديث .

ثم قد مات منذ نحو أربعمائة سنة فما يخلو أن يهدى إليه كل يوم ما تقدير مجموعة أجزاء من القرآن .

وأقله من يقف على قبره فيقرأ : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ [1] ويهديها له : والسلاطين تقف بين يدى قبره ذليلة .

هذا بعد الموت ، ويوم الحشر تنشر الكرامات التى لا توصف . وكذلك قبور العلماء المحققين .

ولما بليت أقوام بمخالطة الأمراء أثر ذلك التقدير فى أحوالهم كلها . فقال سفيان بن عيينة : منذ أخذت من مال فلان الأمير ، منعت ما كان وهب لى من فهم القرآن .

وهذا أبو يوسف القاضى ، لا يزور قبره اثنان .

فالصبر عن مخالطة الأمراء أوجب ضيق العيش من وجه ويحصل طيب العيش من جهات .

ومع التخليط ، لا يحصل مقصود ، فمن عزم جزم .

كان أبو الحسن القزوينى . لا يخرج من بيتة إلا وقت الصلاة . فربما جاء السلطان فيقعد لانتظاره . ليسلم عليه .

ومد النفس فى هذا ربما أضجر السامع ، ومن ذاق عرف [2] .

جهاد العلماء :

ومع هذه المحاذير الآنفة .. فقد سعدت الأمة الإسلامية بعلماء أجلاء كان لهم فى النقد الاجتماعى باع طويل .

لقد استجمعوا خصائص الدعوة . وواتتهم الظروف ليقولوا كلمة الحق فى أحلك الظروف ..

وإليك نماذج من هؤلاء العلماء :

---

(١) أى سورة الإخلاص .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى ٣٤٥ ، ٣٤٧ .

روى السبكى فى طبقات الشافعية [1] أن قاضى القضاة شرف الدين محمد بن عين الدولة لما تولى القضاء فى الديار المصرية للملك العادل « الأيوبى » شهد عنده « العادل » وهو فى دست ملكه مراراً ، والقاضى يسوف فى قبولها ، فتفطن العادل لذلك ، فقال له : هل تقبلنى أم لا ؟ [2] فقال : لا أقبلك ، وكيف أقبلك ، وفلانة تطلع إليك بحنكها [3] كل ليلة وتنزل ثانى يوم سكرى على أيدى الجوارى وتنزل فلانة من عندك أنحس مما نزلت الأولى . فتناوله الملك العادل بكلمة شتم ، فردها عليه فى وجهه ، ثم عزله ونزل إلى بيته معزولاً . فخشى العادل من رد شهادته . وخشى أن يذكر ذلك عند الملوك ووجوه الناس ، فنزل بنفسه إلى منزل القاضى ، وترضاه ، وأعاده إلى القضاء .

وفى كتاب النصيحة بما أبدته القريحة للشيخ أحمد المنوفى [4] أن عبد الصمد الدمشقى لما تولى قضاء دمشق تداعى إليه خصمان ، فجاء أحدهما بكتاب العادل بالوصية عليه فلم يفتحه ، وظهر الحق لخصم حامل الكتاب فقضى له ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حامله ، وقال : كتاب اللّه قد حكم على حامل الكتاب ، فبلغ العادل ذلك . فقال : صدق كتاب اللّه أولى من كتابى .

ولقد كان لمثل هذين الموقفين أثره على السلطان العادل ، فلم يبق فى الملك إلا سنتين وثلاثة أشهر حيث خلع سنة ٦٣٧ هـ ثم قتل بعد ذلك وتولى مكانه أخوه الصالح نجم الدين أيوب .

ومواقف العز بن عبد السلام من ملوك بنى أيوب ومن بعدهم من المماليك الأتراك مما لا يستطيعه إلا ورثة الأنبياء الذين باعوا أنفسهم للّه بيع السماح ، فحينما تنازع الملك الصالح إسماعيل ونجم الدين أيوب ، واستولى الصالح على دمشق ، ونجم الدين على مصر ، اصطلح الملك الصالح مع الأفرنج على أن ينجدوه على نجم الدين ، وسلم إليهم صيدا وبعض القلاع والحصون ، ودخلوا دمشق لشراء السلاح . وقد جعل خطابتها للعز فما كان منه إلا أن أفتى بتحريم بيع السلاح لهؤلاء لأنهم سيقاتلون به المسلمين ،

---

(١) تاريخ الإسحاقى ص ١٢٦ النسخة المهمشة .

(٢) أى هل تقبل شهادتى أم لا ؟

(٣) آلة من آلات الطرب .

(٤) نقلاً عن المرجع السابق .

وقطع خطبة الصالح ، وزاد فى آخر خطبته قبل أن ينزل من المنبر : « اللهم أبرم لهذه الأمة ، أمراً رشدا تعزفيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك [١] ، والناس يبتهلون بالدعاء والتأمين ، فأعتقل الشيخ ثم اطلق ، فنزح إلى بيت المقدس ، فأسره صاحب نابلس . ولما طلب منه ليعود إلى مناصبه وأكثر مما كان عليه أن ينكسر للسلطان ، ويقبل يده . قال لمن ساومه على ذلك : ولكن يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدى فضلاً أن أقبل يده . يا قوم : أنتم فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به .

ولما تحول إلى مصر وأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب . وفوض إليه كثيراً من الأمور ، وولاه الخطابة والقضاء ثم التدريس بالمدرسة الصالحية لم يمنعه ذلك أن يأمره وينهاه على رؤوس الأشهاد . قال الباجى : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان نجم الدين أيوب فى يوم عيد بالقلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، وقد خرج على قومه فى زينتة على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يديه ، فالتفت الشيخ إليه وناده : يا أيوب . ما حجتك عند الله إذا قال لك . ألم أبوئ لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى ذلك ؟ قال نعم . الحانة الفلانية تباح فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته ، والعساكر واقفون . فقال : يا سيدى . هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى . فقال : أنت من الذين يقولون : « وجدنا آباءنا على أمة » . فرسم السلطان بأبطال تلك الحانة . قال الباجى : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذا الخبر : يا سيدى كيف الحال ؟ فقال : يا بنى رأيته فى تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقلت : يا سيدى ، أما خفته ؟ فقال : والله يا بنى استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامى كالقط [٢] .

وقصة فتواه بأن المماليك أرقاء وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت المال إلى أن ذهب إليه كبيرهم « نائب السلطنة » شاهراً سيفه مقسماً أن لابد أن يقتله إلى أن طرق عليه بابه وقوله لولده حين خوفه به : يا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله .

---

(١) اقتبسه من دعاء سفيان الثورى فى صدر الدولة العباسية انظره فى الحلية لأبى نعيم جـ ٧ ص ٨١

(٢) من أخلاق العلماء ص ١٧٤ ببعض اختصار .

وخروجه إليه كالقضاء النازل حتى أيبس يده وأسقط السيف منها وأرعد فرائصه وأبكاه وأخضعه لحكمه فيه وفى سائر المماليك من المعروف المأثور ، وتفصيل هذه القصة فى طبقات الشافعية (١) .

ولما خرج الظاهر بيبرس صاحب الوقائع الشهورة مع التتار ثم الصليبيين أستفتى العلماء فى أخذ أموال الرعية فأفتوه ، إلا النووى فإنه امتنع ، وكلمه كلاماً شديداً ، فغضب منه ، وأمره بالخروج من الشام . فخرج إلى بلده نوى ، ثم رسم برجوعة فامتنع وقال : لا أدخلها والظاهر بها . فمات الظاهر بعد شهر سنة ٦٧٦ هـ بدمشق (٢) . ومن تتمة القصة أنه سأله عن سبب إمتناعة ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ، ثم من اللّه عليك ، وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصه من الذهب وعندك مائتا جارية ، لكل جارية حق من الحلى . فإذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً من الحوائض ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى ، أفتيت بأخذ المال من الرعية (٣) ويروى نحو هذه القصة مع الشيخ عز الدين فى مثل هذا المقام لكن مع الأمير قطز (٤) .

وكثير من المثقفين فى هذا العصر الذين غذتهم المدارس والجامعات المدنية بكل شئ إلا مبادئ الإسلام ومآثر الأسلاف ، يجهلون أن قادة الشعب وزعماء الدين كانوا يواجهون الطغاة بالنصيحة والزجر ، بالنفوس والأرواح ، لم يكونوا إلا من هؤلاء العلماء .

روى الجبرتى أنه لما حضر حسن باشا الجزائرى إلى مصر ، وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية ، واستباح أموالهم ، وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم ، زاعماً أنهم أرقاء لبيت المال ، اجتمع الأشياخ وذهبوا إليه ، فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار قائلاً له : أنت أتيت إلى هذه البلدة ، وأرسلك

---

(١) وقد أوردها صاحب أخلاق العلماء بطولها ص ١٧٥ ، ١٧٦ عن الطبقات جـ ٥ ص ٨٤ .

(٢) من تاريخ الشرقاوى على هامش الاسحاقى ص ١٢٨ .

(٣) أخلاق العلماء ص ١٧٩ .

(٤) الشرقاوى ص ١٢٥ .

السلطان إلى إقامة العدل ، ورفع الظلم كما يقول . أو لبيع الأحرار ، وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال : هؤلاء أرقاء لبيت المال . فقال له : هذا الأمر لا يجوز ، ولم يقل به أحد ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وطلب ديوانه ، وقال له اكتب أسماء هؤلاء ، وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره . فقال له أحدهم : أكتب ما تريد . بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا ، فأفحم ، وانكف عن إتمام قصده ، وتتبع أموال الأمراء وودائعهم ، وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند أبى الأنوار وديعة ، فأرسل يطلبها ، فامتنع عن دفعها قائلاً : إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة ، فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها فى قيد الحياة ، فأشتد غيظ الباشا منه ، وقصد البطش به ، فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق . فكان يقول : لم أر فى جميع المماليك التى وليتها من اجترأ على مخالفتى مثل هذا الرجل . فإنه أحرق قلبى [١] .

ومن الذى يعرف أن الشيخ الدردير رضى الله عنه كان قائد ثورة يخشى بأسه الظالمون ، ويخضع لأمره الغاصبون .

روى الجبرتى أنه فى عام ١٢٠٠ هـ نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى سالماً الجزار ونهبوه حتى حلى النساء والفرش ، فثار أهل الحسينية واتجهوا إلى الجامع الأزهر ، ومعهم طبول وانضم إليهم كثير من العامة ، وبأيديهم نبابيت ومساوق وذهبوا إلى الشيخ الدردير باعتباره شيخ العلماء فساعدهم بالكلام ، وقال لهم : أنا معكم ، فخرجوا من نواحى الجامع ، وأقفلوا أبوابه . وانتشروا بالأسواق وغلقوا الحوانيت ، وأخذوا يصيحون ويدقون الطبول ، وقال لهم الشيخ الدردير : فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، ونركب معهم بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم . فما كان من الأمراء إلا أن حضروا إليه راغبين فى الصلح ، خائفين من تضاعف الحال [٢] .

وبعد ذلك بتسع سنوات تزعم شيخ الأزهر الشيخ الشرقاوى ثورة أخرى على هؤلاء الأمراء ، كان سببها أنه حضر إليه أهل قرية بشرقية ببلبيس ، وذكروا أن أتباع محمد

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٠١ وانظر أخلاق العلماء ص ١٧٩ .

(٢) الأزهر فى ألف عام : الخفاجى بتصريف واختصار جـ ١ .

بك الألفى ظلموهم ، وطلبوا ما لا قدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ من ذلك ، وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وذلك بعد أن خاطب مراد وإبراهيم بك ، ولم يبديا شيئاً ، وأمر الشيخ الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت ، ثم ركبوا ثانى يوم إلى بيت السادات ، وتبعهم كثير من العامة ، وازدحموا أمام الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك . فأرسل إليهم يسألهم عن مرادهم . فقالوا : نريد العدل ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها . فقال : لا تمكن الإجابة إلى هذا كله ، فأنا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش ، فقالوا : ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والمماليك . والأميريكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ .

ثم انفض المجلس ، ويركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف ، وباتوا فيه . فماكان من مراد بك إلا أن عاد فخطب ودهم وطلب منهم الصلح (١) .

والحديث عن سائر مواقف علماء الأزهر فى وجوه الظالمين والغاصبين معروف ، ناهين عن المنكر ، مجاهدين فى سبيل الله ، مما لايتسع له المقام . وفى عدد صفر من هذه المجلة نبذة صالحة من مواقف خالدة للشيخ حسن العدوى ، وشيخ الإسلام الأنبابى. والشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمد بخيت ، وشيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وشيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم . وإنه لايزال يرن فى الآذان صوت شيخنا الشيخ محمود أبو العيون رحمه الله وهو يجلجل على صفحات الأهرام آمرا بالصون والعفاف ناهياً عن المجون والاستهتار إلى أن يواجه فوزية أخت فاروق فيما أعلنت عنه من إقامة حفلة ساهرة لجمع التبرعات لعمل من أعمال البر على طريقة ذلك الأوان بقوله :

إحدى لياليك فهيسى هيسى   لا تنعمـــى الليلة بالتعريس

وبعد .. فإنا لنرد غرب القول أن يفيض فى وصف أثر الأزهر فى بناء الأمة الإسلامية عامة والمصرية خاصة بناء استطاعت به أن تواجه جحافل التتار ، وجيوش الصليبيين ، وأن تزلزل به أقدام الفرنسيين ، وتقض به مضاجع الإنجليز الغاصبين . وهو حديث لا ينكره ولا يغض منه إلا كل من يجادل فى الحق بعد ما تبين بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٢) .

---

(١) المرجع السابق ببعض اختصار جـ ١ ص ٨٥   (٢) من مقال بمجلة الأزهر .

تمام المسئولية :

ومن تمام مسئولية العالم أن يتحرى الحكمة فى مخاطبة العوام .. كما تسلح بالورع فى صلته بالحكام ..

إن لبعض الدعاة زلات فى المجال الأول تترتب عليها منكرات وانحرافات تجعله عبئاً على الدعوة ذاتها .. وفى مخالطته للحكام .. قد يمد يده فلا يستطيع أن يمد رجله .

بمعنى أن يطعم فمه .. فتستحى عينه ! ..

أى أنه يرى المنكر .. فيتجاهله ولا يشتبك معه ..

وكيف وهو غارق فى الدنيا مع ولى نعمته ؟!

إن مسئولية العالم بالدرجة الأولى : تطهير المجتمع من المنكر لا أن يسهم فى إتساع دائرته .

وهو مع العوام .. كما هو مع الحكام على خطر عظيم .

ولابن الجوزى كلام حسن نثبته هنا .. تبصرة وذكرى : « تأملت أشياء تجرى فى مجالس الوعظ ، يعتقدها العوام وجهال العلماء قربه وهى منكر وبعد .

وذلك أن المقرئ يطرب ويخرج الألحان إلى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب أشعار المجنون وليلى ، ويخرق ثوبه هذا ، ويعتقدون أن ذلك قربة .

ومعلوم أن هذه الألحان كالموسيقى ، توجب طربا للنفس ونشوة ، فالتعرض لما يوجب الفساد غلط عظيم .

وينبغى الاحتساب على الواعظ فى هذا [1] وكذلك المقابريون منهم فإنهم يهيجون الأحزان ليكثر بكاء النساء ، فيعطون على ذلك الأجرة .

ولو أنهم أمروا بالصبر لم ترد النسوة ذلك ، وهذه أضداد للشرع . قال ابن عقيل : حضرنا عزاء رجل قد مات له ولد ، فقرأ المقرئ : ﴿ يا أسفى على يوسف ﴾ [2] فقلت له : هذه نياحة بالقرآن .

---

(١) أن ينبغى على المحتسب أن يمنع الوعاظ من هذا .

(٢) يوسف الآية ٨٤ .

وفى الوعاظ من يتكلم على طريق المعرفة والمحبة ، فترى الحائك والسوقى الذى لايعرف فرائض الصلاة يمزق أثوابه دعوى لمحبة اللّه تعالى .

والصافى حالاً منهم - وهو أصلحهم - يتخايل بوهمه شخصاً هو الخالق فيبكيه شوقه إليه لما يسمع من عظمته ورحمته وجماله .

وليس ما يتخايلونه المعبود ، لأن المعبود لا يقع فى خيال .

وبعد هذا فالتحقيق مع العوام صعب ، ولا يكادون ينتفعون بمر الحق إلا أن الواعظ مأمور بألا يتعدى الصواب ، ولا يتعرض لما يفسدهم . بل يجذبهم إلى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج إلى صناعة ، فإن من العوام من يعجبه حسن اللفظ ومنهم من يعجبه الإشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر .

وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكنه ينبغى أن ينظر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المباح فى اللفظ ، قدر الملح فى الطعام ، ثم يجتذبهم إلى العزائم ، ويعرفهم الطريق الحق .

وقد حضر أحمد بن حنبل ، فسمع كلام الحارث المحاسبى فبكى ، ثم قال : لا يعجبنى الحضور ، وإنما يبكى لأن الحال أوجبت البكاء (١) .

وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص ، فينهون عن الحضور عندهم .

وهذا على الإطلاق لا يحس اليوم ، لأنه كان الناس فى ذلك الزمان متشاغلين بالعلم فرأوا حضور القصص صادا لهم ، واليوم كثر الأعراض عن العلم فأنفع ما للعامى مجلس الوعظ ، يرده عن ذنب ، ويحركه إلى توبة ، وإنما الخلل فى القاص ، فليتق اللّه عز وجل (٢) .

---

(١) بل لقد قال . ما سمعت فى الحقائق مثل هذا الرجل ، ولا رأيت مثل أصحابه معه وقد علل السبكى فى طبقات الشافعية ١١٨/٢ تنفير الإمام أحمد عن مجلس المحاسبى بأن المحاسبى كان يسلك طريقاً صعباً لا يسلكه أحد فخاف على البادئين ألا يوفوه حقه . هذا ولم يكن المحاسبى واعظاً كما فهم بن الجوزى ، بل كان عالماً بالنفس له مريدوه فى هذا الشأن انظر تحقيقاً لهذا الموضوع فى مقدمة كتاب « المسائل فى أعمال القلوب والجوارح للمحاسبى » نشر عالم الكتب بالقاهرة .

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى ١٠٨/١ . ١١٠ .

ومن فقه عمر رضى الله عنه احتياطه إزاء المستويات التى لا تستوعب مهام الأمور :
« امتنع عمر عن بحث الأمور العامة أمام الجمهور الواسع الذى قد يضم المغرضين والسذج ، واقتصر على إسماع من يظن فيه الفقه والنبل فحسب . ولذلك حين أراد أن يقوم فى مكة أيام موسم الحج خطيب ليفند لغطا لغط به بعض الجهال حول بيعة أبى بكر رضى الله عنه وأحداث يوم السقيفة فقال له عبد الرحمن بن عوف : « يا أمير المؤمنين : لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم . فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم فى الناس . وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير . وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها .. فأمهل حتى تدخل المدينة . فإنها دار الهجرة والسنة .. فتخلص بأهل الفقه وأشرف الناس . فتقول ما قلت متمكناً . فيعى أهل العلم مقالتك .

ويضعونها على مواضعها : أما والله إن شاء لأقومن بذلك أول مقام أقومه بالمدينة » [1] .

مسئولية الأميين :

وإذ يتحمل العلماء قسطهم الأوفى بحكم خبرتهم .. فإن الإسلام لا يعفى الأميين من السعى وصولاً إلى المعرفة .. والفقه :

خطب ﷺ يوماً . فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال :

« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم . ولا يعظونهم . ولا يأمرونهم ولا يفهمونهم .

وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم . ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم . ويفقهونهم . ويعظونهم ، ويأمرونهم وينهونهم .

وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون .. أو لأعاجلنهم بالعقوبة [2] .

---

(١) الراشد . العوائق ١١٢ .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف .

إنها .. من قبل العلماء : حملة تربية وتعليم .. ووعظ ناقد مصلح يستهدف الانتقال بالجاهلين إلى مستوى يدركون به حقائق الإسلام .

ومن قبل الأميين : سعى دءوب لا يستهدف فقط مجرد الإحاطة ببعض ألوان من المعارف . بل هى المعاناة المستمرة المنتهية بهم إلى فقه الدين .. هذا الفقه الذى يسدون به منابع الفتنة .. ويحققون به النصر على الشيطان .

منكر العادة .. ومنكر العبادة

إن إحساس الأمة - بمسئولياتها - فاتر اليوم تجاه حرمات الإسلام التى تنتهك كل يوم .. وكأن أمر الدين .. لا يعنيها !

وصار الأمر على ما يقول الشاعر :

ما لـــى أرى الناس والدنيا مـولية ... وكـــل حـــى عليها ســوف ينبتر

لا يشعـــرون بما مـــن دينهم نقصوا ... فإن همو نقصت دنيا همو شعروا !

إنهم يشعرون إذا ما خرمت قاعدة من قواعد حياتهم اليومية وعوائدهم القومية :

إذا أهملت ظاهرة من ظواهر الزواج .

إذا عطلت شارة من شارات وداع الأموات .

إذا حدث تقصير فى أمر دنيوى يتعلق بالذات .

إذا حدث هذا تقوم الدنيا ولا تقعد .. حتى يعود الحق المضيع إلى صاحبه .

أما إذا أهملت صلاة الجماعة .

وإذا استشرت الغيبة والنميمة .

إذا قطع إنسان رحمه .

إذا حدث هذا .. فلا يشعر به أحد !!

إتخذ ناد رياضى قراراً بفصل أحد أعضائه لأنه شجع نادياً منافساً ! وأصدرت إحدى الشركات قراراً مماثلاً بفصل موظف فيها لأنه شرب زجاجة غازية من إنتاج شركة أخرى !!

يفعل هذا .. بينما لا تتحرك شعرة فى رأس ، لو قيل للنادى أن هذا الفتى لايصلى .. ويتباهى بالفطر فى رمضان !

ولو ضبط هذا الموظف يشرب خمراً ما التفت إليه أحد !!

* * *

الفصل الثانى

قبل التغيير

• مسئولية النهى متى :

إنما يتحرك الداعية لتغيير المنكر إذا رآه بعينية : « من رأى .. » .

ولعل فى التعبير بالفعل الماضى « رأى » مايشير إلى صيرورة المنكر واقعاً ملموساً تراه العين بالفعل الماضى كل عناصره .. وهنا تبدأ مسئولية تغييره بخلاف ما إذا كان التعبير بالفعل المضارع : فإن دلالته على الحال والاستقبال توحى بعدم تمام الذنب .. وبالتالى لا تتحقق الرؤية الكاملة . التى تجعل من التدخل أمراً واجباً .

فلعل المذنب أن يقلع عن ذنبه الذى شرع فيه وباشره فعلا .

وهى على أى حال لمحة تفرض على الداعية أن يتريث .. ولا يأخذ موقف المهاجم كلما رأى بادرة معصية ربما تكون فقاعة تظهر .. ثم تنطفئ بذاتها .. وبلا صدام .. على أن الداعية محكوم بتوجيهات الاسلام قبل أن يخطو خطوته الأولى .. والتى نلمح إليها فيما يلى :

تغيير النفس قبل تغيير المنكر :

إن الخطوة الأولى على طريق الاصطلاح .. تبدأ من الذى يقوم بالاصلاح وإذا كانت الوقاية من السيئات سبيلاً إلى الفوز برحمة اللّه تعالى [1] . فإن الوصول بالناس إلى هذا الفوز العظيم يحتم سلامة القاعدة التى ينطلق منها الارشاد .

---

(١) كما يفهم من قوله تعالى : « وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم » غافر : ٩

ومن بين عناصر السلامة هذه .. عنصر يتصل بذات الداعية نفسه .. وهو أن يبدأ .. فينتهى قبل أن ينهى :

« أخرج ابن جرير فى تاريخه عن سالم : أن عمر بن الخطاب كان إذا صعد المنبر ينهى الناس عن شئ .. جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وأن الناس ينظرون إليكم نظر الطير .

وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله .. إلا أضعفت عليه العقوبة .. لمكانه منى » .

والأساس القرآنى لموقف عمر رضى الله عنه ، قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ (١) .

« إن القائل الحكمة وسامعها شريكان .. أولاهما بها من حققها بعمله ، فحقق هذه الحكم بعملك ، تكن أولى بها ، وأجدر أن ينسب إليك ، وابدأ باصلاح نفسك ، يصلح الذين معك ، من ناشئة الدعوة . فإنها وصية الامام الشافعى .. أرشد بها مؤدب أولاد هارون الرشيد فقال : « ليكن أول ما تبدأ به من اصلاح أولاد أمير المؤمنين : اصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بيدك ، فالحسن عندهم ماتستحسنه ، والقبيح عندهم ما تركته .

فانظر قوله : القبيح عندهم ما تركته .

لم يقل له : القبيح عندهم ماقلت لهم إنه قبيح . بل ما لم تعمل به ، ولم تقربه .. » (٢) .

إن التوجيهات الواصلة إليك من الواعظ تستقر فى ذاكرتك .. ومن ثم .. فهى عرضة للنسيان .

أما الواعظ نفسه كقدوة طيبة فإنه يظل فى الوجدان .. ومن أجل ذلك لاينسى !

و إن من نصب نفسه لوظيفة الهدى ودعاء الناس إلى الخير ، يجب أن يكون أبعدهم عن التصنع ، وأحرصهم على الكمال ، فإن أدنى هفوة منه تسقط اعتباره ، وتسهل التهاون به ، فلا يكون لكلامه تأثير فى القلوب ويصير مجلسه مسلاة يتلهى الناس بحضوره .

---

(١) الأحزاب : ٣٠.

(٢) محمد الراشد ، المنطلق ص ٣٧ ، ٣٨

وقالوا : ما أحسن التاج .. وهو على رأس الملك أحسن ! .

وما أحسن الموعظة ، وهى من الفاضل المتقى .. أحسن [1] .

إن للداعية إلى جانب وظيفته التعليمية مهمة أخرى تعكس ما يقول ليصير واقعاً يراه الناس شارة صدقه ، ودليل إخلاصه ، ومهما جد فى تحصيل العلم .. والفوز بأرقى الشهادات .. فإنه مطالب بتطبيق ما يقول .

« سئل الإمام أحمد عن الرجل يكثر من كتابة الحديث وطلبه ، أيسوغ له ذلك ؟

فقال : « ينبغى أن يكثر العمل به على قدر زيادته فى الطلب » [2] .

ولقد كان الفضيل بن عياض على حق حين استشعر خطورة الوظيفة الداعية إلى التسلح بما يكافئها من قوى نفسية .. فرارا من العواقب الوخيمة النازلة بمن يسعى إلى الهيجاء بغير سلاح .

قيل له : ألا تأمر وتنهى ؟ فقال : إن قوماً أمروا فكفروا !!

قال الإمام الغزالى : « وذلك أنهم لم يصبروا على ما أصيبوا » [3] .



(١) الوعى الإسلامى جـ ٤ / ١٤.٣

(٢) المنطلق ص ٣٨

(٣) الاحياء جـ ٢ ص ٣.٨

النصيحة : بين التغيير والتعبير

إن دعوتنا « إلى الله » وليست إلى حزب سياسى .. ومن ثم .. فوسيلتنا إلى غرس أعوادها لا بد أن يكون لها من شرف الغاية ما ينأى بها عن التشهير .. والتنكيل بالعصاة .. مدفوعين بشهوات الاستعلاء .. والرغبة فى كشف المخبوء .. إن للطاعة أحياناً سكرة تنسى الطائع نعمة التوفيق إليها .. فيزهو بها .. على نحو يقف بالداعية فى صف عصاة من نوع آخر يكون مثلهم فى حاجة إلى تذكير !

وقد يجهد المسلم نفسه فيضيع عمره فى تتبع سوآت المسلمين .. فى محاولات مستمرة لاحصاء أعمالهم عليهم .. وربما سخر لذلك أهله وولده .

وفى الوقت الذى يعفو الخالق عن عباده ويسترهم .. يأبى المخلوق الضعيف إلا التشهير والتدمير !

« روى الإمام أحمد فى مسنده عن عامر بن واثل : أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله ﷺ فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم » قال رجل منهم : إنى لأبغض هذا فى الله تعالى !

فقال أهل المجلس : لبئس ماقلت ، والله لننبئنه ، ثم قالوا : يافلان - لرجل منهم - قم فأدركه ، وأخبره بما قال ، فأدركه رسولهم فأخبره ، فأتى الرجل رسول الله ﷺ ، وحكى له ما قال ، وسأله - أى الرسول - أن يدعوه له - فدعاه له ، وسأله الرسول فقال : قد قلت ذلك .

فقال الرسول ﷺ ، لم تبغضه ؟ فقال : أنا جاره ، وأنا به خابر ! والله ما رأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يارسول الله : هل رآنى أخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال : لا .

ثم استطرد : والله مارأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر . قال : فاسأله يارسول الله : هل رآنى أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئاً ؟ قال :

لا ... والله مارأيته يعطى سائلاً ولا مسكيناً قط . ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله فى سبيل الله إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر . قال : فاسأله : هل رآنى نقصت منها ؟ أو ماكست فى طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال : لا .. فقال رسول الله ﷺ:

« قم فلعله خير منك !! » .

بل ربما سمح مسلم لنفسه أن يتألى على الله فيحكم بحرمان مسلم من مغفرة ربه .. وأنه - بهذا التحكم - يصبح أسوأ وأشقى مآلا من المذنب نفسه .. الذى يتفضل سبحانه بالمغفرة عليه حين كسرته المعصية ووقف ذليلاً بسببها بين يدى ربه .. بينما نأت بالمعجب تزكية نفسه .. بعيداً ! .

روى مسلم :

قال رجل : والله لايغفر الله لفلان . فقال الله عز وجل : « من ذا الذى يتألى على .. ألا أغفر لفلان .. إنى قد غفرت له . وأحبطت عملك .

إن قسوة الناهى على المنهى .. تضاعف العبء على كاهله .. وبدل أن يكون الداعية مع أخيه المسلم .. على الشيطان .. يصبح مع الشيطان ..على أخيه .. أى أنه يقطع طريق العودة خلف العاصى .. فلا يستطيع أن يفئ إلى أمر الله ..

جاء فى « مدارج السالكين » لابن القيم : « وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك » .

يحتمل أن يريد به : أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها .

وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى ﷺ : « من غير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » قال الإمام أحمد فى تفسير هذا الحديث : من ذنب قد تاب منه .

وأيضاً : ففى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعير .

وفى الترمذى أيضاً مرفوعاً : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك » .

ويحتمل أن يريد : أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه . وأشد من معصيته:

لما فيه من صولة الطاعة . وتزكية النفس . وذكرها . والمناداة عليها بالبراءة من الذنب . وأن أخاك باء به . ولعل كسرته بذنبه وماأحدث له من الذلة والخضوع . والأزراء على نفسه . والتخلص من مرض الدعوى ، والكبر ، والعجب ، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب ، أنفع له ، وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والاعتداد بها ، والمنة على الله وخلقه بها .

فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله !

وما أقرب هذا المدل من مقت الله ، فذنب تذل له لديه أحب إلى الله من طاعة تدل بها عليه ..

وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً .. خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمل .

وإنك إن تضحك وأنت معترف . خير من أن تبكى وأنت مدل . وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين .

ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر .

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو ، ولا يطالعها إلاأهل البصائر فيعرفون منها بقدر ماتنا له معارف البشر . ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون [(١)] .

إن مهمة الداعية الأساسية تطهير نفسه من الغيظ وشهوة الانتقام من مخالفيه فى دعوته .. وليكن قلبه وعاء للحب وإرادة التوفيق لهم ..

وبدون ذلك لا تكون دعوة ، ولا دعاة :

إن الدعاة المحكومين بشهواتهم .. يسخرون الدعوة لخدمة هذه الشهوات .. وإذا تعارضت مصالحهم مع مصلحتها . لم يترددوا فى تقديم ما يحقق منفعتهم .. بينما الداعية الحق هو : من يستبعد من حياته عوامل ربحه وخسارته .

والدعوة فى تقدير أمثاله هى الأصل .. وهم خدم لها .

---

(١) مدارج السالكين ج ١٧٦/١ ، ١٧٧ .

إن الشفقة على العاصى .. خير وأجدى من مشاعر الكبرياء التى توسع الهوة بينهما ...

« وهذا المعنى التحليلى قد نبه عليه القرآن الكريم فى شخص الداعية الأعظم - عليه الصلاة والسلام - وذلك قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ [(١)] .

فالدعاة إلى الله تعالى : لا يغتاظون ، ولا يكرهون المنابذين لهم . بل يحل فى نفوسهم مكان الحنق والغضب لأنفسهم .. الشفقة والحزن على المخاطبين بالدعوة .. لأن شفقتهم على الناس أسبق من شفقتهم على أنفسهم ..

إن الكلمة الطيبة .. النظيفة من لوث الحقد والغيظ أقطع من السيف فى تطويع نفس المدعو . وإذعانه للدعوة [(٢)] .

قيل لبعض السلف : أتحب أن يخبرك أحد بعيوبك ؟

فقال : إن كان يريد أن يوبخنى .. فلا !

فما دامت إرادة التوبيخ والتشهير من وراء النصيحة .. فهى مرفوضة حين فقدت أهم عناصرها وهو الإخلاص للحق .

ولقد عبر الإمام الشافعى عن ذلك حين قال :

تعهدنـــى بنصحـــك فى انفراد ... وجنبنـــى النصيحة فى الجماعة

فإن النصح بيـــن الناس نـــوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه

فإن خالفتنـــى وعصيت أمـرى ... فلا تغضب إذا لـــم تعط طاعة

إن المخطئ - ما عدا المستهتر - يحس فى قرارة نفسه أنه ارتكب إثماً .. وهو يحاول إخفاءه فراراً من ألسنة الناس .. فإذا أنت كشفته .. فقد أضفت إلى عذاب الضمير تعذيب الجماعة فيثقل الضغط عليه .. فيتمادى فى الإثم .. ثم إن عملية التوبيخ نوع من الوصاية يراد فرضها على من يأباها ولو كان مخطئاً . وهذه واحدة من سمات النفس الإنسانية .

---

(١) الكهف : ٦٦

(٢) من مقال للدكتور محمد سعاد جلال .

أعداء المروءة:

تبتلى الجماعة بفئة لا تقف عند حد التشهير .. بل إنها تفتش فى الأضابير بحثاً عن العيوب المنسية لإعلانها .. ليبدو إخوانهم عراياً من لباس الفضيلة .

ثم يبلغ بهم العدوان منتهاه حين يحاولون ستر الحسنات .. لإظهار إخوانهم فى موقف لا يحسدون عليه .

وقد تصدى لهم أولو النهى من المؤمنين فكشفوا عن خبيئتهم .. ودوافعهم .

قال النسابة البكرى لرؤبة بن العجاج :

ما أعداء المروءة ؟

قال : بنو عم السوء : إن رأوا حسناً ستروه ، وإن رأوا سيئة أذاعوها [١] .

إن يسمعوا الخير يخفوه وإن سمعوا　　　شراً أذاعوه وإن لم يسمعوا كذبوا !

وهذه الوقاحة أو الجرأة مردودة إلى أنفس طبعت على الشر ومردت عليه ، يقول الشاعر :

وأجـــرأ مـــن رأيت بظهر غيب　　　على عيب الرجال ذوو العيوب

ذلك بأن « أصحاب العيوب يتوقعون نقداً لهم من ناصح أمين يظنونه مهاجماً فيتداعون لأخذ زمام المبادرة وتحويل الهجوم بهمز ولمز » .

ومن هنا كان تشهيرهم بالناس على قدر ما فى أنفسهم من جرائم الشر : جاء فى عيون الأخبار [٢] : « قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس : لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها » .

ومن أعراض هذا المرض :

المبالغة والتهويل فى نقد الغير بقدر ما تكون الغفلة عن نقد أنفسهم :

« ذكر أبو هريرة رضى الله عنه ذلك فقال لمن هذا شأنه : « يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه . وينسى الجذع فى عين نفسه » [٣] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١١٨/١ .　　　(٢) جـ ٢ ص ٤

(٣) فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد للبخارى ٤٨/٢ .

وتفرض الحكمة على المسلم أن ينجو بنفسه من هذا الصنف الماكر .. بقبول نصح الناصحين .. ودوام مراقبة النفس ، تخلصاً من عيوبها ، حتى لا يكون للماكرين من سبيل إلى النيل منه ..

وللسلف الصالح توجيهات رشيدة فى هذا الباب نشير إليها فيما يلى :

أهمية الناصح الأمين

احتلت النصيحة مركزها الممتاز فى حياة الصالحين ، وأدت دورها فى توثيق الروابط بين المسلمين ، كما كان لها أثرها فى تطهير البيئة من جراثيم الفساد .

قال عمر بن عبد العزيز رضى اللّه عنه : « من وصل أخاه بنصيحة له فى دينه . ونظر له فى صلاح دنياه . فقد أحسن صلته . وأدى واجب حقه » [(١)] .

ولم يكن رضى اللّه عنه يبيع كلاماً .. وإنما كان أسبق الناس إلى تنفيذ ما يدعو إليه ..

قال يوماً لمولاه مزاحم : « إن الولاة جعلوا العيون على العوام . وأنا أجعلك عينى على نفسى . فإن سمعت كلمة تربأ بى عنها – تنزهنى عنها – أو فعلاً لا تحبه . فعظنى عنده . وانهنى عنه » [(٢)] .

فانظر كيف جعل الخليفة « مزاحم » العين البصيرة التى تراقب .. بل وتحاسب .. بالوعظ والنهى .. وعلى الفور لحظة وقوع المحظور .. أولاً بأول !

ويالها من يقظة تحمل الخليفة على الحذر .. حتى إذا مات .. لم يكن فى صحيفته ما يشين .. بعد أن وجد الناصح الأمين !

بينما يموت غيره من الخلفاء الذين اصطفوا سدنة النفاق فزينوا لهم سوء أعمالهم .. فلما ماتوا .. قامت قيامتهم !!

وهذا ما حدا ببلال بن سعد التابعى أن يقول لصاحبه « عبد الرحمن بن زيد » : «بلغنى أن المؤمن مرآة أخيه .. فهل تستريب من أمرى شيئاً ؟ » [(٣)] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٥٧٢/٦

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٨١/٢

(٣) زهد ابن المبارك ٤٨٥ .

بل إن ميمون بن مهران كان له من الشجاعة الأدبية ما حمله على أن يعرض نفسه يوماً على جميع أصحابه ويقول لهم : « قولوا ما أكره .. فى وجهى .. لأن الرجل لاينصح أخاه ، حتى يقول له فى وجهه ما يكره ! » .

مقياس المودة :

ولقد كان الشافعى رضى اللّه عنه يجعل من مقاييس مودة الرجل قبوله للنصح : قال : « ما نصحت أحداً فقبل منى إلا هبته واعتقدت مودته ، ولا رد أحد على نصحى إلا سقط من عينى ورفضته » .

ويبقى الود ما بقى العتاب :

قال صاحب لابن السماك « واعظ هارون الرشيد » الميعاد بينى وبينك غداً .. نتعاتب ، فقال : بل بينى وبينك غداً .. نتغافر !!

بل لقد رقت القلوب وشفت .. واستقامت الألسنة وعفت فى لحظات الصفاء الجامعة على الود بعد العتاب .

قال شاعرهم :

قـد قضينا لبانـة من عتاب   وجميـل تعاتـب الأكفاء

ومـع العتب والعتاب فإنـى   حاضـر الصفح واسع الإعفاء

وقال آخر :

تعالوا بنا نطوى الحديث الذى جرى   ولا سمع الواشـى بـذاك ولا درى

تعالـوا بنا حتى نعود إلى الصفا   وحتـى كـأن العهـد لم يتغيرا

لقد طال شـرح القال والقيـل بيننا   وما طـال هذا الشـرح إلا ليقصرا

مـن اليـوم تاريخ المحبـة بيننا   عفا اللّه عن ذاك العتاب الذى جـرى

وهكذا تصفو القلوب من الكدر .. لتصبح على أفضل مما كانت ..

وما أجمل قول الشاعر :

عتبتم فلـم نعلـم لطيب حديثكم   أذلك عتب أم رضـاً وتـودد ؟؟

• مضاعفات التشهير :

كان عمر رضى الله عنه يقول : « رحم الله امرءا أهدى إلى عيوبى » .

وذلك هوالأخ الذى عناه الحسن البصرى بقوله : « أخ لك تصيب من عشرته خيراً . فإن زغت عن الطريق قومك » .

وهو لون من التعاون على البر والتقوى ينقى المجتمع مما يعكر صفوه .

أما إذا تحولت النصحية إلى تجريح أو شماتة فإن ذلك مزلقة إلى شيوع روح الاتهام .. ورمى الناس بما ليس فيهم .

فإنك إذا عيرت عاصياً .. فسوف يرميك بما فيك ، وما ليس فيك . ولن تكونن بنجوة من التشهير ، بل ربما كان رد العدوان أقسى !

من أجل ذلك يحذر الإسلام من مغبة هذا اللون من التراشق الذاهب بسكينة المجتمع .

روى ابن عساكر فى تاريخه عن عمر رضى الله عنه قال : « ولا تعيروا أحداً فيفشو البلاء فيكم » [(١)] .

وإنما يفشو البلاء بسبب من تبادل التهم ..

روى البيهقى عن يحيى بن جابر قال : « ما عاب رجل قط رجلاً بعيب إلا ابتلاه الله بذلك العيب » وهذا سر فشوه .

وكان النخعى يقول : « إنى لأرى الشئ فأكرهه . فما يمنعنى أن أتكلم فيه إلا مخافة أن ابتلى بمثله » .

ومن طريف ما قرأته فى هذا المعنى : لو أن رجلاً عير رجلاً برضاع كلبة لرضعها !!

ولقد كان ابن سيرين إمام زمانه ...كان ثقة .. مأموناً . عالياً . رفيعاً . فقيهاً . كثير العلم . يصوم يوماً ويفطر يوماً . وهو الذى قيل فيه : « رأيت ابن سيرين فى السوق ، فما رآه أحد إلا ذكر الله تعالى » .

---

(١) كشف الخفا ٢/٤٩٧

ومع هذا الماضى المشرق . فلم يفلت من عقاب كلمة عابرة قالها معيراً بها أخاه المسلم فقد ركبه الدين . ثم حبس بسببه فقال : إنى أعرف الذنب الذى أصابنى هذا : عيرت رجلاً منذ أربعين سنة فقلت له : يا مفلس !!

• منهج فى تجنب التعيير :

وكان للعلماء توجيهاتهم فى التنديد بالتعيير لما له من أثر فى شيوع المعايب : ثم كانت لهم مناهجهم فى توقيه .

قال أكثم بن صيفى لبنيه : « يا بنى : كفوا عن ذكر مساوئ الناس تصف لكم قلوبكم » .

قال محمد بن كعب القرظى : « لا تعير أخاك واحذر شيطانك . وإذا رأيت الأخ من إخوانكم قد استحوذ عليه الشيطان . فإن استطعتم ألا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .. فافعلوا . وسلوا ربكم العفو والعافية . ولا تعيروه . وادعوه . وآنسوه . وجالسوه .

وإذا رأيت الأخ من إخوانكم يعمل بشئ فى طاعة الله عز وجل فإن استطعتم أن تكونوا خيراً منه فافعلوا . فقد أمرتم أن تسابقوا فى الخيرات » [١] .

عن بكر بن عبد الله المزنى قال [٢] : احملوا إخوانكم على ما كان فيهم . كما تحبون أن يحملوكم على ما كان فيكم . فليس كل من رأيت منه سقطة أو زله وقع من عينيك .

فإن كان فيك صلاة فلا تعجبن بها . فلعل صاحب المعصفرة والشعر السكنى [٣] ينال من النبيذ أحياناً أوفى للعهد منك . وإن كان فيك وفاء للعهد فلا تعجبن به . فلعل الذى نقمته فى بعض حالاته أوصل للرحم منك .

وإن كان فيك صلة للرحم فلا تعجبن بها . فلعل الذى تمقته فى بعض حالاته أكثر صوماً منك .

وإذا رأيت من هو أكبر سناً منك فقل : هذا خير منى ، صام وصلى وعبد الله قبلى .

---

(١) التوبيخ والتنبيه ٧٣ ، ٧٤ (٢) المرجع السابق : ٥٣ ، ٥٤

(٣) الثوب المصبوغ بنبات العصفر . والسكنى : حى من العرب يقال لهم سكن .

وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل : هو خير منى ، أحدث منى سنا . وأقل ذنوباً

وإذا رأيت الناس أكرموك ورأوا لك حقاً فقل : هذا الفضل منهم على .

وإذا رأيتهم استخفوا بك فقل : هذا بخطئى وذنبى .

واتخذ أكبر المسلمين لك أباً . وأوسطهم لك أخاً . وأصغرهم لك ابناً . أيسرك أن تضرب الطفل الصغير . أو تظلم الشيخ الكبير ؟

ولتشغلك ذنوبك عن ذنوب العباد . وليسعك ما أنعم الله به عليك عما أنعم الله به على العباد .

ولا تنظروا فى ذنوب الناس كالأرباب . وانظروا فى ذنوبكم كالعبيد .

ولا تعاهد القذاة فى عين أخيك . وتدع الجذع معترضاً فى عينك .. فوالله ما عدلت .

• الفرق بين النصيحة والتأنيب :

وربما دق الفرق ولطف بين النصيحة والتأنيب ثم خفى على المسلم فوقع فى الاثم وهو لا يدرى .

وقد أعاننا العارفون على أنفسنا بتبيان الملامح الفاصلة بين ما يليق وما لا يليق حتى لا تزل منا الألسنة .

يقول ابن القيم : « إن النصيحة إحسان إلى من تنصحه . بصورة الرحلة له . والشفقة عليه . والغيرة له وعليه . فهو إحسان محض . يصدر عن رحمة ورقة . ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه . والإحسان إلى خلقه . فيتلطف فى بذلها غاية التلطف . ويحتمل أذى المنصوح ولائمته . ويعامله معاملة الطبيب العلم المشفق للمريض المشبع مرضاً . وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته . ويتطلف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن . فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب : فهو رجل قصده التعيير والإهانة . وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح فهو يقول له يا فاعل كذا وكذا باستخدام الذم والإهانة فى صورة ناصح مشفق .

وعلامة هذا : أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شرًّا منه لم يعرض له . ولم يقل له شيئاً . ويطلب له وجوه المعاذير . فإن غلب قال : وأنى ضمنت له العصمة . والإنسان عرضه للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه . والله غفور رحيم .. ونحو ذلك .

فيا عجبا : كيف هذا لمن يحبه دون من يبغضه ؟

وكيف كان حظ ذلك منك للتأنيب فى صورة النصح .

وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة . وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب : أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته . وقال :

قد وقع أجرى على الله . قبلت أم لم تقبل . ويدعو لك بظهر الغيب . ولا يظهر عيوبك . ولا يبينها فى الناس [(١)] .

* * *

---

(١) ابن القيم : الروح ٢٥٧ ، ٢٥٨

أهمية الستر

مع تقدير الإسلام لدور الداعية كناقد اجتماعي .. يركز على العيوب السارية منددأً بها . إلا أنه لا يبيح له كشف الناس عن أسرارهم . مكتفياً بعلانيتهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ (١) .

وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا .. » (٢) .

ونحن مأمورون أن نأخذ الظاهر . والله يتولى السرائر : عن مجاهد : « ولا تجسسوا » قال : « خذوا ما ظهر لكم . ودعوا ما ستر الله » (٣) .

إن من شأن المسلم أن يستر وينصح .

ومن شأن الفاجر أن يهتك ويفضح .

قال الفضيل : النصح يقترن به السر . والتعيير يقترن به الإعلان .

رغب رسول الله ﷺ فى الستر .. ثم رهب من مضاعفاته . ومن الترغيب قوله : «من ستر على أخيه فى الدنيا ستر الله عليه يوم القيامة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن فرج عن أخيه المسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » (٤) .

---

(١) الحجرات : ١٢

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ج ١١٨/١٦ - ١١٩

(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره ٨٦/١١ بسنده عن مجاهد .

(٤) أخرجه مسلم ١٤٣/١٦

• ومن الترهيب :

روى أبو داود عن معاوية :

« إنك إن تتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت تفسدهم »[1] .

وربما كان تدخل الداعى فيما اجتهد العاصى اخفاءه داعياً إلى إعلانه ، فاشتهر أمره ، وعلم بإمكان وقوعه من كان يعلم استحالته .. ومن ثم فربما حاول أن يجرب ؟! إلى جانب ما يمكن حدوثه من ذلك العاصى الذى كشفت ستره ، حين يعاندك .. ليصبح بالعناد مدمناً لهذا الذنب ، فتتحمل معه وزره .

قال بعض العارفين : « اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور عوراتهم وهن للإسلام وأحق شئ بالستر العورة » .

قال ﷺ لمن اصطحب أحد المسلمين ليعترف أمامه بالزنا : « هلا سترته بثوبك ؟ »

ويعلق الإمام الغزالى على ذلك بقوله : « إنها من أعظم الأدلة على طلب الشارع الستر للفواحش ، فإن أفحشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول يشاهدون ، وهذا لا يتفق .

وإن علمه القاضى بنفسه تحقيقاً ، لم يكن له أن يكشف عنه ، انظر إلى كثيف ستر الله : كيف أسبله على العصاة من خلقه ، بتضييق الطريق فى كشفه »[2] .

ويبلغ التهديد مداه فى قوله ﷺ : « يا معشر من آن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه : لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته »[3] .

• حكمة الإسلام :

ولا يعنى ذلك إفساح الطريق أمام الرذيلة لتنتشر .. وإنما هو تقدير الإنسان وظروفه وبيئته .

« وليس يخضع للقضاء سوى الرذيلة التى تتفشى ، وتعرض نفسها .. وتتحدى !

---

(١) رواه ابن حبان ، فى صحيحه . مورد الظمآن ٣٥٩

(٢) الاحياء ج ١٩٩/٢

(٣) رواه الترمذى وحسنه .

أما حالة الإنسان الذى يستتر ، وترتعد فرائصه حين يخضع لأهوائه ، وهو الواقع الذى لا ينكشف لنا بذاته ، ولا بواسطة صاحبه ، فإنه سوف يكون من اختصاص محكمة أخرى غير محكمة البشر ، والطريقة التى سوف يحاكم بها تتجاوز معرفتنا الراهنة ، والرسول ﷺ يقول : « ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره اللّه ، فهو إلى اللّه إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه » (١) .

وحتى لو أننى فاجأت أحداً من الناس – دون قصد منى – وكان يحاول أن يسرقنى أو يرتكب خطأ شخصياً أخلاقياً ، بل لو قبضت عليه متلبساً بجرمه ، فلست ملزماً بأن أقدمه للعدالة .

وقد كان من توجيه رسول اللّه ﷺ ، فيما روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : بلغنى أن رسول اللّه ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له « هزال » : يا هزال .. لو سترته بردائك لكان خيراً لك » (٢) .

أى أننا فى تقديمنا إياه إلى العدالة يجب أن نكون – فى غالب الأمر – على بصيرة بأمره .. ومراعاة لجميع الظروف التى أقدم فيها على فعلته .

فعلى حين أن من الأفضل لخير الناس جميعاً أن يسلم محترف الجريمة الشرير إلى السلطة الشرعية ، نجد أن المسكين الذى ربما أخطأ صدفة ، وبتأثير الضعيف .. قد يستحق أن يشمله عفونا » (٣) .

« ورحم اللّه الإمام أحمد : فقد سئل عن رجل يسمع منكراً ، ولا يرى مكانه ؟ فقال : ما غاب فلا تفتش » (٤) .

وفيما يروى : « أن صاحب الشرطة شكا إلى سليمان بن عبد الملك جماعة يجتمعون فى دار أحدهم فيشربون ، ويسمعون إلى الغناء ، ويصخبون ، فمال سليمان إلى أن يقيم عليهم حد الشرب ، وسأل عمر بن عبد العزيز صاحب الشرطة إن كان ذلك البيت قد أصبح ملهى مفتوحاً بابه لمن أراد أن يدخله ؟ فقال صاحب الشرطة : إنما هو حانوت

---

(١) البخارى ، كتاب الإيمان باب ١ .   (٢) الموطأ ، كتاب الحدود باب ١

(٣) د . محمد دراز الدستور الأخلاقى ٢٧١/٢٧٢

(٤) الأمر بالمعروف للخلال .

خمر وسفه ظاهر ، وعاد عمر يتثبت من صاحب الشرطة ، فعلم أنه بيت توصد أبوابه على من فيه وما فيه ، وإنه بيت أحد أغنياء دمشق ، ويلتقى فيه بأصحاب فى بعض الليالى فيسمرون خلف باب مغلق ، وأنه مكان خاص له حرمته ، وليس مكاناً عاماً يباح فيه الدخول لمن أراد اللهو والشراب ، فقال عمر : يا أمير المؤمنين : من وارت البيوت فاتركه » (١) .

• حدود الستر :

لا يشمل أدب الستر أولئك المجاهرين بالمعاصى .. المتباهين بها . يقول ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين .. وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره اللّه فيقول : عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر اللّه عنه » (٢) .

ولا شك أن الإعلان عن فسق هؤلاء مما تفرضه الحكمة تنديداً بصنف من الناس لايكتفى باقتراف الذنب حتى يشيعه بين الأبرياء تحريضاً على مثله .. وهكذا يصمون أنفسهم بوقاحة الإعلان .. بعد وقاحة العصيان .

* وربما صحت الأجسام بالعلل :

وإذ يطا من الإسلام من مشاعر الزهو فى صدور المتحمسين .. قبل أن يأكلهم الحماس ، ولا يبقى من عبادتهم شيئاً .

فإنه يفتح الطريق أمام التائبين العائدين الذين أبقوا بالمعصية من سيدهم .. ثم هاهم أولاء يعودون إليه ..

إنه يستقبل العائدين إلى الصف .. ليأخذوا مكانهم فى الطليعة كما كانوا من قبل .. بل ربما كانوا بالتوبة أرفع قدراً !

وبهذا يرد كثيراً من الأوهام فى أدمغة تحاول التربع فوق القمة وحدها .. ناظرة إلى التائبين العائدين شذرا .. فى محاولة لاقصائهم عن الساحة .. جاعلة من خطاياهم نقطة سوداء تمنعهم من الوصول .

---

(١) من مقال للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى .. الأهرام . ١٩٨٥/٧/١

(٢) البخارى . كتاب الأدب .

• سؤال .. وجواب :

وقد تساءل العلماء هنا قائلين ، « إن العبد إذا كان له حال أو مقام مع اللّه .. ثم نزل عنه إلى ذنب أرتكبه ، ثم تاب من ذنبه .. هل يعود إلى مثل ما كان أولا يعود ؟ بل إن رجع .. رجع إلى أنزل من مقامه ، وأنقص من رتبته ، أو يعود خيراً مما كان » [١] .

وأجاب فريق من العلماء كما جاء فى طريق الهجرتين - بأنه يعود بالتوبة إلى مثل حاله الأولى .. وربما كان وضعه أمثل .. وقالوا : « إن التوبة من أجل الطاعات وأوجبها على المؤمنين وأعظمها غناء عنهم ، وهم إليها أحوج من كل شئ ، وهى من أحب الطاعات إلى اللّه ، فإنه يحب التوابين ، ويفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله .

وإذا كانت بهذه المثابة فالآتى بها آت بما هو من أفضل القربات . وأجل الطاعات .

فإذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط . ونزول عن مرتبة . فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة . فإن لم تكن درجته بعد التوبة أعلى . فإنها لا تكون أنزل .

وأيضاً : فإنا إذا قارنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الحاصل بالتوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية ، والكلام إنما هو فى التوبة النصوح الكاملة . وجانب الفضل أرجح من جانب العدل . ولهذا كان فى جانب العدل آحاد بآحاد . وجانب الفضل آحاد بعشرات إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته .

وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة . فإن رحمة الرب تسبق غضبه .

وأيضاً .. فالذنب الحاصل بمنزلة المرض . والتوبة بمنزلة العافية .

والعبد إذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته . رجعت صحته إلى ما كانت بل ربما رجع أقوى وأكمل مما كانت عليه .

لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة . فإذا اعتل ظهرت تلك

---

(١) راجع طريق الهجرتين ٣٢٣ وما بعدها .

الأسقام . ثم زالت بالعافية جملة . فتعود قوته خيراً ما كانت وأكمل وفى مثل هذا قال الشاعر :

لعــل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

واحتج العلماء بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة :

« بأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار ، والتذليل للّه تعالى والتضرع بين يديه . والبكاء على خطيئته والندم عليها والأسف والاشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته .

واللّه يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه . واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه . ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته .

فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمنين .

ولهذا قال بعص السلف : لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما كان يبوء بالذنب أكرم الخلق عليه ﷺ .

وقد قال غير واحد من السلف : كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة .

قالوا : ولهذا قال سبحانه : ﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ فزاده على المغفرة أمرين :

الزلفى : وهى درجة القرب منه وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول جهمية وفراخهم .

والثانى : حسن المآب . وهو حسن المتقلب وطيب المأوى عند اللّه .

قالوا : ومن تأمل زيادة القرب التى اعطيها داود بعد المغفرة . علم صحة ما قلنا . وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان » .

وإذا بقيت فى النفوس بقية من شك فى صحة هذا .. فعليها أن تتصور ملكاً يدخل على زميله .. الملك .. وعبداً يدخل على هذا الملك .

إن الأول يدخل على نده بمشاعر الزهو .. بما يملك من خدم وحشم وضياع ومتاع .

ولكن العبد يدخل على الملك خاشعاً مستسلماً .. وهو شأن العبد الذى أبق بالمعصية من سيده ثم يعود إليه معترفاً بذنبه طالباً عفوه .

وقد قيل فى بعض الآثار : يقول اللّٰه تعالى لداود عليه السلام :

يا داود : كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك .. واليوم - وبالتوبة - تدخل على دخول العبيد على الملوك » .

ورحم اللّٰه ذلك العبد الصالح القائل : كنت بعد معصيتى أقوى رجاء لرحمة ربى .. منى فى طاعتى ، لأننى فى الطاعة اعتمد على عملى .. وهو قاصر .. وفى المعصية اعتمد على ربى . وهو واسع المغفرة .

● رحلة العودة :

ينزغ الإنسان من الشيطان نزغ فيخطئ .. ثم يصحو يوماً من سكرة الذنب على حداء نفسه اللوامة .. وبهذه الصحوة يستنزل غفران ربه ..

وتبدأ رحلة العودة إلى الحق والتى تقف به بين توبتين منه تعالى : أنه يأذن له فى التوبة .. ويمكنه من مباشرة أسبابها ..

فإذا تاب .. قبل منه ذلك رضا بما فعل..

« وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » يعفيهم من ثقلها ومضاعفاتها .. إلى جانب ذهابه سبحانه بكل ما يترتب عليها فى النفس وفى المجتمع .. فيما يشبه أن يكون فقدان الذاكرة لكل ما حدث من تجاوز فى سالف الزمان .. وليس ذلك فقط .. فإن الحق سبحانه وتعالى أشد فرحاً بهذه العودة من :

رجل .. فرد . يمشى فى صحراء جرداء .. فضل منه بعيره .. فضاع منه زاده .. وانقطع به سبيله .. وجلس يترقب الموت .. المؤكد .. حين ضاع الطعام .. والمركب .. والأنيس والمعين .. فأطل عليه الفناء من كل جانب ! وفجأة .. عادت إليه راحلته .. أى عادت إليه حياته .. ففرح فرحاً طاغياً .. شل فهمه .. وقلب مداركه .. حتى قال تعبيراً عن فرحته بالبعث الجديد : اللهم أنت عبدى .. وأنا ربك !! وإذا كان الحق سبحانه وتعالى أشد فرحاً بتوبة عبده التائب .. من هذا براحلته .. فما الظن بعبيد اللّٰه .. يريدون أن يسدوا الطريق .. ولا يمدوا أيديهم لغريق ؟!

* * *

من التطبيقات العملية

يتصور بعض الناس – خطأ – أن إقامة الحدود فى الإسلام تعنى تطاير الرءوس وإزهاق النفوس .

وبهذا التصور تنعقد حولهم سحب تحجبهم فلا تمكنهم من رؤية الجانب الإنسانى فى الإسلام . وبالذات فى الجانب الجنائى الذى زعموه شهوة انتقام . تنقض على المذنب إرادة تحطيمه ..

ونحن نضرب بعض الأمال تنجلى بها الحقيقة .. التى تبرز بها إنسانية الإسلام . وكيف يقف إلى جانب المذنب فى أزمته . إبقاء على آدميته . ودفاعاً عن كرامته .

وإذا كانت القسوة مطلوبة أحياناً . وبصفة استثنائية .. زجراً وتأديباً .. فإن الرحمة أيضاً مرعية فى شرعة الإسلام . الذى قد يضعها أحياناً فوق العدل .. انتشالاً للمذنب من وهدة الإحساس بالهوان . وفتحاً للطرق أمامه تارة أخرى .. ليأخذ سبيله مع الجماعة من جديد إلى المثل الأعلى . وقبل أن تتخطفه شياطين الإنس فى لحظة ضعفه لتصوغ منه سوط عذاب يلهب ظهر مجتمع لم يرحمه يوماً .

● حسن تقدير الدوافع :

روى ابن القيم : « أن امرأة رفعت إلى عمر رضى الله عنه قد اتهمت بالزنا فسألها عن ذلك . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين . وأعادت ذلك وأيدته . فقال على رضى الله عنه : إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم أنه حرام . فدرأ عنها الحد » .

فعلى رغم اعتراف المرأة الصريح المؤكد بالتهمة . إلا أن علياً – وهو المستشار الأمين الفقيه – أدرك بحسه البصير أن أسلوب المرأة يشير إلى جهلها بشناعة ما ارتكبت .

وإذا كانت شريعة العدل تفرض القصاص هنا . إلا أن للرحمة منطقاً آخر .

هذه الرحمة التى لا تسوى بين المجرم المحترف .. العارف بالنتيجة . وبين هذا الذى لم يدرك خطورتها فولغ فيها .

ومن هنا قالت الرحمة كلمتها المقدرة ظروف امرأة لا تعرف معنى ما صنعت . فكان ما كان .

وقد نتصور الآن شدة عمر وصرامته فى إقامة شريعة الله .. وكيف تخلت عنه الآن ..

لكنه عمر الإنسان ، المعبر بهذ الإنسانية عن طبيعة الإسلام الراغبة فى طى صفحة الماضى .. لتبدأ المرأة منذ اليوم حياة بلا عقد .

ولا ننسى فقه على رضى الله عنه والذى استبطن الموقف .. وقرأ ما وراء الكلام من أسرار النفس ..

وإلى جانب فقهه كانت نزعته الإنسانية الحريصة على انتشال المرأة من سقطة لو بقيت معها ما استطاعت أن تعيش بعد ذلك مرفوعة الرأس .

● وحتى لو عرفت الحكم :

وأحياناً تعرف الرأة الحكم الشرعى .. لكنها مع ذلك تقع فى نفس الخطأ لظروف قاهرة . وأيضاً .. فإن الإسلام لا يتخلى عنها . كما يشير إلى ذلك الموقف الآتى :

« رفع إلى عمر رضى الله عنه أمر امرأة اعترفت بالزنا . فلما أراد أن يرجمها . قال على : لعل بها عذراً . ثم قال لها : ما حملك على الزنا ؟ قالت : كان لى خليط . وفى إبله ماء ولبن . ولم يكن فى إبلى ماء ولبن ، فظمئت . فاستسقيته . فأبى أن يسقينى . حتى أعطيه نفسى . فأبيت عليه .. ثلاثاً . فلما ظمئت . وظننت أن نفسى ستخرج . أعطيته الذى أراد . فسقانى فقال على : الله أكبر : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ [1] .

ونحن الآن أمام امرأة أخرى غير تلك الجاهلة بالحكم .. وكان الظن أن يقام عليها الحد بلا جدال .

ومن حسن حظ المرأة - بل من حسن حظ المجتمع كله - أن كان الحاكم عمر .. وكان المستشار علياً !

---

(١) البقرة : ١٧٣

لقد اختفت من صدر على نزعة الانتقام من أمة الله .. وغلب حسن الظن .. ولماذا يغلب حسن الظن هنا .. وهناك .

إن للإسلام أعداء يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .. وإن نكتة سوداء توشك أن تثبت فى الثوب الأبيض ..

ومع حرصنا البالغ على أن يظل الثوب كذلك .. لكننا وبنفس القوة نتلمس الشبهة المانعة من إقامة الحد .. ردعاً لأعداء الإسلام .. حتى لا يجدوا ما يقولونه أو يتقولونه ..

وفى حواره رضى الله عنه مع المرأة تبين الآتى : أن المرأة فعلاً تعرف الحكم تماماً .. ومعترفة بالواقعة .

ولكن هل سعت بها قدماها طواعية طلباً للمتعة الحرام .. من أى طريق .. وفى أحضان أى رجل ؟

أبداً .. لقد فرض عليها الإثم فرضاً .

إنها امرأة شريفة .. تأكل من عمل يدها . تغدو وتروح بإبلها كل يوم حين يروح الناس وحين يغدون . لا تخطر الجريمة ببالها .. فضلاً عن مباشرة أسبابها . فماذا حدث ؟

كان لها جار سوء فلما جف لبنها . وغاض ماؤها . كان طبعياً أن تنشد عنده الرى وبدأت الدوافع الخبيثة تتحرك فى قلب الرجل .. فى محاولة للضغط عليها .. واقتناص المتعة العابرة الفاجرة ، ولعل وحشة الصحراء .. وبعد المسافات كانا فى صالحه .. فساومها .. بل وأغراها ..

فأبت أولاً ..

فلما أحست بوطأت العطش .. عاودته رغم علمها بالجواب سلفاً .. ولكنها تحاول .. لعل الذئب المستكن فى كيانه أن يسكت عواؤه رحمة بامرأة ضعيفة وشريفة واقعة تحت ضغط ظروف قاسية .

لكنه وضع شروط المعونة : أن تدفع أغلى ثمن ! فرفضت للمرة الثانية .. والثالثة ..

ولا يمكن أن نتصور امرأة من هذا النوع تجد منفذاً ولو ضعيفاً للهرب .. ثم لا تقصده ..

لكن السبل كلها أغلقت أمامها .. والرد الوقح هو .. هو . لم يتغير على لسان جار السوء .. إن لم يكن يتزايد عنفاً وتشفياً كلما وجد الفريسة تقترب من الشبكة !

وإذا كانت الحرة تجوع .. ولا تأكل بثدييها .. فقد كان الموقف هنا مختلفاً ..

إنها لا تواجه الجوع هذه المرة .. ولكنها تواجه الموت الأحمر ! فذهبت إليه مضطرة .. وفى قلبها من اللوعة المرة ما تحس به الحرة !

ثم أعطت ما تملك .. لمن لا يستحق .. كرهاً لا طوعاً .

الفرحة الكبرى :

وإنك لتلمح السعادة التى هزت علياً رضى اللّه عنه عندما هتف : اللّه أكبر .. سروراً بنجاة المرأة .

لقد وجد الحل فى الآية الكريمة التى دخلت بالمرأة فى ديوان الرحمة .. التى فازت بها عن جدارة واستحقاق .

وليت شعرى .. كم من نساء كريمات شريفات .. هن بريئات من تهم ألصقت بهن الصاقاً .. وضعناهن فى سجون من ذواتنا .. وكم من شياطين ينفخون فى النار حتى تظل مشتعلة ..

ويحدث الطلاق .. وتنهار البيوت ..

وما أحواجنا إلى إنسانية عمر .. وإلى رحمة على .. وفقهه ..

وإذن فسوف تخرج من السجن نساء كثيرات .. كريمات .. إننا حين نضع الرحمة فوق العدل أحياناً .. فإننا نفتح الطريق أمام تائبات تجعل منهن التوبة النصوح نماذج أخر .. أكثر عطاء .

وبعد .. فقد وقف الجهل فى الأولى .. والجوع وراء الجريمة الثانية .. ونرجو أن يتجه جزء من حماسنا ليكون تعليماً للجاهل حتى لا يخطئ .. وغذاء للجائع حتى لايعود . وردعاً للإنحراف والاستغلال . حتى لا تعشش الجريمة فى ديارنا وتبيض .

وإلا .. فإن الحماس وحده جعجعة .. ولا ترى طحناً !

قمة الإنسانية :

وهكذا يشتد حرص الإسلام على كرامة الإنسان .. ولو فى أسوأ حالاته :

وذلك هو الإسلام { الذى لم يفرق فى حق الحياة بين أبيض وأسود . ولا بين شريف ومشروف . ولا بين حر وعبد . ولا بين رجل وامرأة . ولا بين كبير وصغير } .

حتى الجنين فى بطن أمه له حرمة لا يجوز المساس بها .

حتى الجنين الذى ينشأ عن طريق الحرام لا يجوز لأمه ولا لغيرها أن تسقطه . لأنه نفس محترمة لا يحل الاعتداء عليها .

ولما جاءت امرأة إلى الرسول ﷺ وأقرت عنده أنها زنت .

وأنها حبلى من الزنا . وطلبت منه أن يطهرها بإقامة حد الله عليها قال لها : اذهبى حتى تلدى . فلما ولدت جاءت بطفلها مطالبة بإقامة الحد مرة أخرى فقال لها : اذهبى حتى تفطميه .

ولم ينفذ فيها العقوبة إلا بعد أن جاءت به بعد أن أصبح يأكل الطعام .

كل هذا رعاية لحق الجنين . ثم المولود الرضيع . لأنه لا ذنب له فيما جنته أمه. أو اقترفه أبوه . ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (1) .

من الحكم إلى الحكمة :

كان « أحمد بن المعذل » من فقهاء المالكية البارزين (2) ولم يكن لمالك بالعراق أرفع منه . وقد يسمى الراهب لفقهه ونسكه . وهو أخو « عبد الصمد بن المعذل » الشاعر المشهور . وكان يسكن مع أخيه فى دار واحدة . وكان عبد الصمد منهمكاً فى الشراب ، فكان أحمد يبكر إلى صلاة الصبح وهو امام المسجد . فيمر بأخيه ، وهو سكران ، فيحركه ويقول : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يعشرون ﴾ (3) .

وتارة يقول : ﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ (4) .

---

(1) الخصائص العامة للإسلام ٨٧/٨٨ د . يوسف القرضاوى .

(2) أدب الفقهاء للشيخ عبد الله كنون .

(3) النحل : ٤٥ (4) الأعراف : ٩٨

فيقول عبد الصمد ويرفع رأسه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ !! [1] .

ولعلنا نقدر مبلغ إحراج إمام المسجد هنا .. بسبب استهتار أخيه وانحرافه ..

هذا الانحراف الذى ربما استغله الخبثاء للنيل من أئمة المساجد بعامة .. لا من أخيه وحده !

بل ربما استغله أعداء الدين حجة يريدون بها التهوين من أمر الدعوة .. ومن دور الإمام الذى لم يستطع إصلاح عشيرته الأقربين ..

وتلك مشكلة الإمام هنا ...

فلم تكن مصيبته أنه لا يعرف الحكم الشرعى فى القضية ..

فرجل الشارع - حتى السكران نفسه - يعرف حكم الله فيها .. لكن القضية هى : كيف يسهم الداعية فى شفاء أمراض المجتمع .. والخروج مع أخيه من هذا المأزق المفروض ؟

إن مهمة الداعية لا تنحصر فى الإحاطة بالأحكام تفصيلاً .. وإنما هى إلى جانب ذلك : معايشة المجتمع .. واكتشاف علله .. والتعاون مع المذنب حتى يتوب .

وهذا ما فعله أحمد ابن المعذل رضى الله عنه : إن أخاه غارق إلى أذنيه فى الشراب ..

وإذن فالدخول مع الغافل فى نقاش لا يفيد ..

بل إن جدلاً من هذا النوع معركة قد يكسب المبطل الجولة فيها .. وينهزم المحق .. لاسيما إذا كان المبطل ذكياً .. يتلاعب بالألفاظ .. ويستغل - حتى آى القرآن - لترويج باطله ..

فلم تبق إلا الحكمة مركباً .. والتى تجلت فى هذا الدرس المكرور كل صباح يلقيه الإمام على مسمع أخيه المترنح .. لعله يتذكر أو يخشى .

ويلاحظ أن الموعظة هنا تميزت بخصائص منها :

---

(١) الأنفال : ٣٣

(أ) أنها عظة من القرآن الكريم . وللقرآن سحره فى الأخذ بالقلوب إلى الحق .

(ب) ثم إنها عامة لا تمس المذنب مسا مباشراً .

(جـ) هى أنها أيضاً متنوعة .. من آية إلى آية . يدور بها الداعية حول القلب لعل الهداية تهب عليه من أى باب .

(د) ومع سخرية السكران بأخيه الناصح فإن الإمام يتجاوزها .. إلى صبح جديد يكرر فيه موعظته الموجزة ، لعل وعسى .

إن الإمام لا يريد الانتصار فى معركة مهما كانت نتائجها . ولكنه أحرص ما يكون على هداية أخيه ، ولا يتم ذلك بالعنف ، وإنما بالكلمة الطيبة التى تنوب عنه فى التذكير .

ولقد كان من السهل على عالم بارز كأحمد بن المعذل أن يستعدى المصلين على أخيه « وما أطوع المصلين لإمام كابن المعذل » .

ولكن الإمام :

أولاً : لا يريد أن يقطع رحمه .

وثانياً : هو يعلم من ذكاء أخيه وامكاناته المهدرة ما يفرض عليه المصابرة ، وحرام أن تضيع هذه المواهب على موائد الشيطان ، وقليل من الصبر كاف لجذبه إلى الصف المؤمن .. وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

شئ من الحكمة يستعيد به الإنسان رشده :

مر « أبو الدرداء » على رجل أصاب ذنباً . والناس يسبونه - فقال لهم :

أرأيتم لو كان فى بئر أكنتم مستخرجيه ؟ قالوا : نعم . قال : فاستغفروا لأخيكم ، واحمدوا الله الذى عافاكم . فقالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله . فإذا تركه فهو أخى .

نطالع فى هذا المشهد عجباً :

رجل غلبت عليه نزوته فوقع فى خطأ .

ولكن المجتمع الصاحى يرقب هذا الخطأ الحادث ، ويلاحقة باللوم التثريب .

وصحيح أن ملاحقة المذنبين بالتقويم تصون المجتمع فلا تتسع دائرة الشرور . ولولا سهر الليالى من قبل هذا النفر الكريم لما وصل إلينا هذا الدين .

إن الإحساس الحى بالفضيلة تفرض على دعاتها حماساً غير عادى ، يواجهون به الرذيلة قبل أن يتطاير شررها .

ولكن الحماس فى اندفاعه قد يتجاهل طبيعة المخطئ فى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى ، فيضغط عليه . فلا يجد أمامه إلا واحداً من طريقين لا ثالث لهما : الكبت أو الانفجار وأحلى الأمرين مر .

وهذا ما دفع . أبا الدرداء - رضى اللّه عنه إلى التدخل انقاذاً للرجل من ورطة قد يخسر معها حياته . وفى نفس الوقت يعلم الناس درساً فى الدعوة إلى اللّه ، وخاصة هؤلاء المتحمسين فى انكار المنكر إلى حد التهور فكانوا كالمنبت : لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

إن صدق نوايا المنكرين هنا فوق الشك والتهم ، بيد أن ذلك لا يشكل سبباً يخول لهم اخماد بقية من الأمل فى صدر الرجل .

أمل يستأنف به حياة جديدة ، مثلهم ، وما دامت الغاية شريفة ، وقبل ذلك كانت النية صادقة ، فلا بد أن يكتسب المنهج شرف الغاية وطهارة النية .

لقد أذنب الرجل فعلاً ، واقتراف الذنوب أمر متوقع ، وبدل أن نتباكى على جريمة وقعت بالفعل ؛ فإن علينا اصلاح ذلك الكيان ليستقيم ولا يرتكب فى المستقبل جرائم أخرى .

وأولى خطوات الإصلاح معرفة أهمية القول الحسن فى مثل هذه الظروف : ﴿ وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [1] فهو مقدم على الصلاة والزكاة أيضاً .

ولا يعنى ذلك هدهدة المخطئ وفتح الذراعين له .. بقدر ما يعنى شيئاً من الحكمة يستعيد به رشده قبل أن يرسب فى القاع .

---

(١) البقرة : ٨٣

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ [1] .

فالأمر بالإستعاذة من الشيطان الرجيم يجئ عقب نفى استواء الحسنة والسيئة وضرورة دفع الثانية بالأولى . أى أن الشيطان الذى نجح فى جذب المخطئ إلى شراكه بالأمس يوشك الآن - بالعنف واللوم - أن يحتوى الناصح والمنصوح معاً .. هذا بمعصيته .. وذلك بأسلوبه .

وإذا كان المذنب وأمثاله مأمورين بحسن الاستماع : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ [2] .

فإن الذين يقفون على الشاطئ مأمورون معهم بل قبلهم بأن يكونوا من الحسن فى قمته : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ﴾ [3] ومن دواعى الإصلاح أن يسأل الناصح العنيف نفسه .

- إذا كنت قد شاهدت ذنباً واحداً .. فهل فتحت بصرك على جوانب حياة هذا المخطئ كلها .. لترى ما فيها من عناصر الخير .

- إذا كان قد ساءك فعل .. فربما سرتك أفعال .

ثم أليس من الجائز أن هذا المذنب قد أحدث توبة من ذنبه ولم تدر أنت بها وربما صار بالتوبة أفضل منك .

- وإذا كان ولابد من هجوم فليكن مركزاً على هذا العمل المحدد .. بدل أن تسب الشخصية كلها بما فيها من جوانب الصلاح . فالقضية بينك وبينه هى : عمله الخاطئ ... فإذا تركه زال ما بينكما .

أى أنه لحظة المعصية ما يزال أخاك .. ولكن مع إيقاف التنفيذ .

فإذا ترك الخطأ المحدد .. عادت مياه الأخوة إلى مجاريها .

---

(١) فصلت : ٣٣ - ٣٦ (٢) الزمر : ١٧ ، ١٨ (٣) الإسراء : ٥٣

- إن السب والتجريح يفسد قضية الود كما يضر بمصلحة الإسلام - فلحساب من يكون ؟

إنه قطعاً لحساب الهوى والمزاج الشخصى ...

أما الحق المجرد فيقولكم :

إنه أخوكم .. من دمكم ولحمكم .. فإذا كان قد سرق أو زنى مثلاً .. فما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر . فاحمدوا اللّه الذى عافاكم من أزمة تجاوزتكم ووقع هو فى براثنها .

وبهذا الحمد يكسر الإنسان شوكة الغرور فى نفسه فلا يتصور أنه بنجوة من العيب بذاته ولميزة فيه .. بينما الأمر فى جملته مردود إلى فضل اللّه تعالى .. فليكن الحمد شعار الموقف مودة ورحمة تجمع القلوب . لا ثورة جامحة تمهد الطريق أمام الشيطان الذى ينتهز الفرصة ليضرب ضربته الثانية ..

ولقد كان أبو الدرداء رضى اللّه عنه بهذا المسلك طوق نجاة يعود به المذنب إلى الحياة مرة أخرى . إن الاذن قد تسمع الغيبة يوماً .. وقد تستمرئ العين نظرة إلى محرم .. ولكن ذلك لا يعنى أن الإثم طبيعة النفس الإنسانية . وأن لحظة مباركة من صنع الإيمان كفيلة برد هذه الجوارح لتواصل رحلة الخير والفضيلة .. ويجب أن نفسح لها الطريق . إن اليد التى حملت السلاح يوماً لتقتل رسول اللّه .. هى نفسها التى حملت « الدرة » دفاعاً عن دين اللّه .

والقلب الذى طفح ببغضه عاد مفعماً بحبه .. عندما وجد الإنسان الودود .. وهذا هو موطن الأسوة فى حياته ﷺ .

لقد كان ﷺ رؤوفاً بالمؤمنين حريصاً عليهم .. وكان أشد بغضاً للمعصية منهم .. ومع ذلك فقد كان يحتوى بقلبه الكبير آمال الإنسان وآلامه .. فإذا هو أسير ود رسول كريم يصون كرامة الإنسان وسمعته .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى احترام كرامة الإنسان وسمعته وعرضه .. قبل تقديرهم لما له ونفسه ومنصبه .

وما زلت أذكر هذا المشهد فى القرية : قد يجلس جماعة فى ظل شجرة .. وما أسرعهم إلى نجدة فلاح تعثر جمله فوقع حمله . وإنك لتراهم كالريح المرسلة لو وقع فى بئر الساقية .. فإذا عادوا إلى الظل يجترون ذكرياتهم ثم اتهم صاحب الجمل فى عرضه كان فيهم ساكت يسمع فى خبث .. وخائض يمرغ العرض فى التراب وكأن الماشية أو الجمل أعز عليهم من عرض الرجل !!

إن الأمر ببساطة وفى ضوء تساؤل أبى الدرداء يكشف عن علة بشرية قديمة ..

فهم يخفون لنجدة هم محتاجون غداً لمثلها .. ولو أنهم تراخوا لما وجدوا سبيلاً إلى عون لو تكرر الموقف معهم .

وإخراج الماشية من بئر الساقية .. وإعادة الحمل المبعثر لون من المغامرة تتناقله ألسنة القرية .. وهو ما يرضى غرور الإنسان .

أما ثروة الإنسان الممثلة فى سمعته فلا بأس أن تبعثر .. لأنها موطن المنافسة فى معترك الحياة بينما انقاذ الماشية لا يضيف إلى رصيده الخلقى جديداً يثقل ميزانه . فلا بأس إذا هم أعانوه .

* وما أكثر الناس حولك حين يتعثر بعيرك .

* وما أسرعهم إليك عندما يشب فى منزلك حريق .

* ثم ما أقلهم لو تعرضت كرامتك للخطر إنهم يزيدون النار اشتعالاً .

ونزداد نحن إيماناً بجدوى حديث أبى الدرداء .. الذى استلهم منهج الرسول ﷺ .. هذا المنهج الذى لا يفرض نفسه بذاته على حياة الناس .. بل هو فى حاجة إلى رجال يتمثلونه .. ثم ينقلونه من آمال فى القلوب .. إلى حقائق .. تراها العين .. ويسجلها التاريخ .

من فقه عمر :

« بلغ عمر رضى اللّه عنه أن « أبا جندل » يعاقر الخمر بالشام ، فكتب له : ﴿ بسم اللّه الرحمن الرحيم : تنزيل الكتاب من اللّه العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ (١) .

---

(١) غافر .

لقد واجهه بمسئوليته أمام ربه .. ثم توارى هو .. لتقول الآية الكريمة كلمتها .. وفعلاً أثمر الدرس القرآنى ، وتاب أبو جندل توبة نصوحاً .

ولما تاب « طليحة الأسدى » بعد أن ارتد وادعى النبوة ، بعث بتوبته إلى عمر .. فقبلها .. ثم بعثه للجهاد مع سعد بن أبى وقاص محققاً بذلك رغبة طليحة .. إلا أنه حذره أن يجعله فى منصب قيادى !

لقد كان عمر رضى اللّه عنه يسمع الآية من كتاب اللّه تعالى أكثر من مرة .. ثم يسمعها بعد ذلك فى لحظة ما .. فكأنما يسمعها لأول مرة حين تملك أقطار نفسه وحسه وها هو ذا يجرب مع الرجل السكير : لقد وجه إليه - وهو القادر على التنكيل به - موعظة بليغة هى آية من كتاب اللّه تعالى .. ثم خلى بين الرجل وبينها .. فمست شغاف قلبه فتاب توبة نصوحاً .

ولقد كانت لعمر رضى اللّه عنه فى رسول اللّه أسوة حسنة حين استغل الموقف ليكون درساً فى الدعوة يؤكد ضرورة الوقوف إلى جانب العاصى بالحسنى .. وضد الشيطان .. والافان الشماتة قد تزيد من عناد الرجل ، هذا العناد الذى يصبح سلاح الشيطان فى معركة نتيح له نحن كسبها أحياناً بسوء تصرفنا .

ألا وأن عمر رضى اللّه عنه بحكمته تلك .. يؤكد أنه لا يعمل لنفسه ، وإنما يعمل للدعوة .

وإذن .. فلا مجال للانفعال الذاهب بفرص التوبة أمام الرجل .. ولتأخذ الحكمة الهادية بزمام الموقف .. كى ننجح فى كسب رجل هو خير للدعوة من حمر النعم .

وليت الدعاة الناصحين ينحون عواطفهم جانباً .. لتكون الكلمة الأخيرة للآية القرآنية الهادية .. بعيداً عن حظوظ النفوس التى إن أقحمت نفسها كانت نكسة .. نعوذ باللّه من آثارها .

من مشكاة النبوة :

وهذه المواقف الحكيمة .. ما هى إلا أشعة من مشكاة النبوة :

عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : أن رجلاً كان على عهد النبى ﷺ ، كان اسمه عبد اللّه ، وكان يضحك رسول اللّه ﷺ ، وكان النبى ﷺ قد جلده فى الشراب ، فأتى

به يوماً فأقربه فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه .. ما أكثر ما يؤتى به ! فقال النبى ﷺ : « لا تلعنوه .. فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله » [1] .

وهذا بعد آخر من أبعاد انسانيته ﷺ .. فلم يكن قصاراه أن يحمى العاصى من لعن إخوانه .. وكفى .. بل إن الشارب مع إدمانه .. وإقامة الحد عليه مرة .. بعد مرة .. إلا أن ذلك لم يمنع أن تكون هناك علاقة ما بينه وبين النبى الكريم .

يلقى الدعابة فيضحك لها .. جاعلاً من البسمة البريئة خيطاً رقيقاً يربطه بواحد من أمته .. استذله الشيطان .. ولعله يعود إلى الجماعة تائباً أصح مما كان .

وربما كانت العودة قريبة لأنه نفسياً مستعد لها .. إنه - بشهادة الرسول المؤكدة بالقسم - يحب الله ورسوله .. وإذن فليس هو بالشارب المحترف الذاهب فى الأرض حيران .. ولكن يبدو أن المعصية فرضت عليه فرضاً .. وهو يتلمس الخروج من المأزق .. والحب النبيل يهتف به ليصحو ، وما أكثر الخطائين الذين يتطلعون إلى اليد الحانية تمتد إلى الغريق لعله أن يفيق قبل أن يستحوذ عليه الشيطان .. ثم لا يعود .. وهذا مافعله ﷺ .

لقد أقام عليه الحد - فلا شفاعة فى حد من حدود الله - غير أنه استبعد السب لما يعلمه من حبه لله ورسوله .. وهو رصيد يجعلنا أكثر أملاً فى توبته .. وعندما يفتح عينية ليرى : إخوة يجبرون ولا يكسرون يسامحون ولا يعنفون فسوف يعود على جناحين من التسامح والعفو أشد نفوراً من المعصية وأكثر تقديراً لمجتمع لم يعزله يوماً .. ولم يكرهه لحظة ، لكنه فقط كره عمله .. فلما أقلع عنه عاد كما كان أخاً كريماً ، فليتأمل بعض المتحمسين الذين قد يحملهم الإخلاص إلى مزيد من القسوة فى معاملة العصاة ، لكن الإنسان لينال بالسماحة أضعاف ما ينال بالشدة ، وبالعفو أكثر مما ينال بشهوة الانتقام .

معاضد الشيطان :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ برجل قد شرب خمراً ، قال : « اضربوه » .

---

(١) البخارى ، باب ما يكره من لعن الشارب جـ ١٢/ ٥٧ .

قال أبو هريرة : فمنا الضارب بيده ، والضارب بنعله ، والضارب بثوبه ، فلما انصرف ، قال بعض القوم : أخزاك الله ، فقال : « لا تقولوا هكذا ، لا تعينوا عليه الشيطان » [(١)] .

أحياناً يتحول الإصلاح إلى تنفير ، والنصيحة إلى تعيير ، فيتحول الصفاء إلى تكدير .

وحين يحذر الإسلام من الخمر حفاظاً على العقل والجسم ، وحين يعد للسكارى عقاباً شديداً ، فإنه وبنفس القوة لا يجعل من العقوبة سوط عذاب يحول بين المنحرف وبين العودة إلى الجماعة طاهراً ، آخذاً مكانه مع إخوانه مثلهم وأشدا .

والحديث الشريف يكشف عن التعاون بين الحاكم والمحكوم على البر والتقوى .. فالمجتمع الغيور على دينه يسوق المنحرف إلى السلطة الشرعية ليلقى جزاءه .. حتى لاتسرى عدوى الانحراف إلى الآخرين .. ويبدو أن هذا المخمور كان مدمناً .. يؤذى بإدمانه مشاعر إخوانه .

ومن ثم .. وكل إليهم أمر تأديبه .. شفاء لصدورهم ، وإثباتاً لحق الجماعة فى حياة لا يكدر صفوها عربيد .

على أن يتم ذلك تحت إشراف السلطة الشرعية .. وبأمرها .

وعندما ما حقت كلمة العقاب على الشارب .. وشفى الله به صدور قوم مؤمنين .. تبدأ المهمة الكبرى وهى :

الوقوف إلى جانب المذنب حتى ينهض من كبوته .

وكل حركة تتجاهل حق العاصى فى التوبة تجافى روح الإسلام .. وكل كلمة تستهدف تدمير البقية الباقية من كرامته .. مرفوضة .. وهذا ما فعله ﷺ حين نهاهم عن لعنه .. حتى لا تكون العقوبة انتقاماً ، قد يثير فى نفس المذنب حقداً على أناس عذبوه .. ولم يرحموه فى لحظة ضعف يستغلها الشيطان ليستقطبه ، جاعلاً منه مجرماً عريق الإجرام .

---

(١) رواه البخارى .

ألا وإن العاصى وإن آلمه الجزاء الإلهى على يد إخوانه .. لكنه قد يعذرهم لأنهم ينفذون شرع الله ..

أما السب العلنى : فهو إجراء بشرى .. وهو غير مستعد لهضمه .. لأن القذيفه تأتيه من جهة بشرية .. لا تستريح لها النفوس .. التى ترفض الوصاية من غيرها .. ولو كان هذا الغير محقاً .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إذا زنت الأمة ، فتبين زناها ، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها [1] ، ثم إن زنت الثانية فليجلدهاالحد . ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر » [2] .

نلاحظ فى هذا الحديث الشريف أيضاً بروز المعنى الإنسانى الذى لا يغيب أبداً حتى فى أحلك الظروف .

فإذا تبين أن الأمة زنت .. وكان الأمر على مثل ضوء الشمس وضوحاً ..

فلا بد من إقامة الحد عليها بلا تردد .

على شرط ألا يوبخها ساعتئذ ..

فيكفى الحد الشرعى رادعاً وزاجراً .. وما زاد فهو على حساب الكرامة الإنسانية التى لا ينبغى أن تكون غرضاً يرمى بلا حساب .

فإذا تكرر الزنا .. وجب إقامة الحد .. أيضاً بلا توبيخ ..

ولماذا التوبيخ .. وقد تمت الجريمة فصولاً ؟

ألا يجر التوبيخ المستمر إلى استمرائه .. وضياع فعاليته .. بل ربما جر إلى نتائج عكسية من وراء عقاب لم يرد به التأديب .. وإنما أريد التعذيب ؟!

المهم أن توضع الأمة الزانية تحت المراقبة الدقيقة : فإذا عادت إلى الجريمة بعد ذلك .. ولم يفد فى تأديبها حدان .. فقد صارت شخصية غير مرغوب فيها .. وبقاؤها فى الحى بعد ذلك يحرك شهوات كانت راكدة .. وفتناً كانت نائمة .. يحرك اللاقطة التى تهفو إلى هذه الساقطة . والتى لا ترد يد لامس !

---

(١) أى لا يوبخها .

(٢) متفق عليه عن رياض الصالحين ٨٧

ولا يكفى الضرب بعد أن مات الشعور ..

ويأمر الحديث الشريف بعزلها .. وبيعها حتى ولو بشعرة واحدة ..

إن انتقالها إلى بيئة أخرى قد يكون فرصة تجرب فيها التوبة على أرض جديدة .. لا عاذل فيها ولا عاتب .

وربما حاولت التعفف فى غيبة اللائمين .. حتى إذا وجدت للعفة مذاقاً أحلى من الخطيئة .. اختارت أن تكون شريفة .

ونلاحظ أن الإسلام هنا لا يقطع الخيط أبداً .. بل يظل حريصاً على المسلم وهو على حافة الهاوية حتى لا يسقط فيها ، بدليل أنه ﷺ لم يقل لمالكها :

تخلص منها .. أو تصدق بها مثلاً ..

بيد أنه يجعل منها سلعة تباع .. ولها ثمن .. وحتى إذا كان الثمن « شعرة » لاتساوى شيئاً .. إلا أنها على أى حال .. سلعة لها قيمة .. مهما تكن هذه القيمة !

وربما أمسكت بهذه القشة الضعيفة يوماً .. فعادت بها إلى الشاطئ مرة أخرى .

* * *

حساب النتائج

لا بد – وقبل النهى عن المنكر – من أن يقدر الناهى لرجله موضعها قبل أن تخطو .

وأن يدرس الموقف بدقة ليعرف النتائج المترتبة على تدخله لتغيير المنكر .

وعلى ضوء هذه الدراسة يتحرك ، أو يتريث .. أو يتوقف ..

يقول ابن القيم فى أعلام الموقعين : إن إنكار المنكر أربع درجات :

الأولى : أن يزورل ويخلفه ضده .

الثانية : أن يخف .. وإن لم يزل جملة .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان . مشروعتان . والثالثة موضع اجتهاد . والرابعة محرمة .

وإذا حرص الإسلام على كيان العاصى حتى لا ينهار .. وينفلت عياره .. بما شرع من ستره سبيلاً إلى توبته ..

فإنه أحرص على الداعية نفسه بما شرع من ضرورة دراسة أبعاد المنكر المراد تغييره .. والاستشعار عن بعد بما يمكن أن يترتب على مواجهته من مضاعفات .

وهو أحرص ما يكون على المجتمع نفسه الذى ينبغى أن يظل نظيفاً والذى يمكن أن يستوعب الذنب الصغير اتقاء شر مستطير . فإذا ضمن الداعية تحقق فائدة من الإنكار .. فعل .. وإلا فلا .. فإذا حقق الإنكار :

(أ) منع المنكر .

(ب) أو كسر جاه فاسق .

(جـ) ارغام أنف منافق .

(د) تقوية قلوب المؤمنين .

فلا بأس من خوض معركة مضمونة النتائج .. وإذا لم تستطع شيئاً فدعه . وجاوزه إلى ما تستطيع .

« كتب عمرو بن عبيد الله إلى عبد الله بن شبرمه يعذله - يلومه - فى تخلفه عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكتب إليه ابن شبرمة يقول :

الأمـــر يا عمـــرو بالمعـروف نافلة والعاملـــون بـــه للّـه أنصـــار

والتاركـــون لـــه ضعفاً لهـــم عذر واللائمـــون لهـــم فـى ذاك أشرار

الأمــر يا عمـــرو لا بالسيف تشهره على الأئمة .. إن القتل اضرار [1]

فإذا لم يتيسر للمسلم تغيير المنكر .. أو تيسر لكن الخسائر تكون أربى من التغيير .. فلا عليه إن هو سكت .. بل محرم عليه أن يحاول تغيير منكر يلد ما هو شر منه .. لأن ذلك فضلاً عن كونه تبديداً للطاقة فى غير ميدان .. يفتح باباً من الفتن يصعب إغلاقه ..

والحكمة قاضية بالانتظار إلى أن تتهيأ ظروف الانتصار . وقد وضح الإمام الغزالى ما سبق بقوله : « يجوز للمحتسب . بل يستحب له أن يعرض نفسه للضرب والقتل إذا كان لحسبته تأثير فى : رفع المنكر ، أو كسر جاه الفاسق . أو فى تقوية قلوب أهل الدين .

وأما إن رأى فاسقاً متغلباً . وعنده سيف . وبيده قدح « خمر » وعلم أنه لو أنكر عليه لشرب القدح .. وضرب رقبته .. فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهاً . وهو عين الهلاك .

فإن المطلوب أن يؤثر أثراً ويفديه بنفسه .

فأما تعريض النفس للهلاك . من غير أثر فلا وجه له . بل ينبغى أن يكون حراماً . وإنما يستحب له الإنكار . إذا قدر على إبطال المنكر . أو ظهر لفعله فائدة . وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه .

---

(١) الأمر بالمعروف للخلال ٧٤/٧٥

فإن علم أنه يضرب معه غيره - من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه - فلا تجوز له الحسبة ..بل تحرم [١] .

ميزان الحساب :

لكن ما هو ميزان الموقف هنا .. وبأى منهج يواجه الداعية الموقف فيقدم أو يحجم ؟

إن « اعتبار مقادير المصالح والمقاصد هو بميزان الشريعة » .

فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص : لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لايفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوهما جميعاً : لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر : أمر به . وإن استلزم ماهو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعة رسول الله ﷺ ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه :

أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما . ولم ينه عنهما .

فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصح أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك فى الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع : فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، وينهى عن المنكر مطلقاً وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول

---

(١) الاحياء ج ٢/٣١٥

فإن علم أنه يضرب معه غيره - من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه - فلا تجوز له الحسبة ..بل تحرم [1] .

ميزان الحساب :

لكن ما هو ميزان الموقف هنا .. وبأى منهج يواجه الداعية الموقف فيقدم أو يحجم ؟

إن « اعتبار مقادير المصالح والمقاصد هو بميزان الشريعة » .

فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص : لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر بحيث لايفرقون بينهما ، بل إما أن يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوهما جميعاً : لم يجز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر : أمر به . وإن استلزم ماهو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعة رسول الله ﷺ ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه :

أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما . ولم ينه عنهما .

فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصح أمر ولا نهى حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك فى الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع : فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، وينهى عن المنكر مطلقاً وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ، ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بالمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول

---

(١) الاحياء ج ٢/٣١٥

* وما يزال المنكر مستمرا :

« صلى أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فى مسجد الرصافة ، فقام بين أيديهم قاص فقال : حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ، قالا : حدثنا عبد الرازق عن معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول تﷺ : « من قال لا إله إلا اللّه خلق اللّه من كل كلمة منها طيراً منقاره من ذهب وريشة من مرجان » وأخذ فى قصه نحوا من عشرين ورقة

فجعل أحمد بن حنبل ينظر إلى يحيى بن معين ، ويحيى ينظر إلى أحمد فقال له : أأنت حدثته بهذا ؟ فقال : واللّه ما سمعت بهذا إلا الساعة !!

فلما فرغ من قصصه .. قال له يحيى بن معين بيده تعال .. فجاء متوهماً لنوال .

فقال له يحيى : من حدثك بهذا الحديث ؟

فقال : أحمد بن حنبل . ويحيى بن معين .

فقال : أنا يحيى بن معين . وهذا أحمد بن حنبل !!

ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول اللّه ﷺ .

فإن كان ولابد من الكذب .. فعلى غيرنا !!

فقال له : أنت يحيى بن معين ؟

قال : نعم .

قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق .. ما تحققته إلا الساعة !!

فقال له يحيى : كيف علمت أنى أحمق ؟

قال : كأن ليس فى الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما ؟!!

قد كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ..

فوضع أحمد كمه على وجهه .. وقال : دعه يقوم .. فقام كالمستهزئ بهما » !! [(١)] .

* * *

---

(١) تحذير الخواص من أوهام القصاص ١٤٣

الوقاية قبل العلاج

• خطوات الحل الإسلامى :

يقول الشاعر العربى :

نعيب زماننا والعيب فينا ... ومـا لزماننا عيـب سوانا

وإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا لا نبدأ البداية الصحيحة على طريق الإصلاح بعلاج النفس حتى نخلصها من أدوائها أولاً .. ثم لا يكون من بعد جرائم .. ولا عقاب ؟

إن المشهد الآسر الجميل .. تغبشه نفس حاقدة معقدة :

وإذا الكريم مدحته بقصيدة ... قـرأ اللئيم الذم فى أبياتها

ولا بد من صحة الأساس ليسمق البناء ..

والحل الإسلامى هنا يمر عبر خطوات :

الخطوة الأولى : حراسة الخواطر الإنسانية .. قبل أن تتحول إلى كواسر يصعب التصدى لها .. قبل أن تصير عزائم وإردات لا يستطيع الإنسان عنها حولاً .. وإن استطاع فبمزيد من الخسائر ما كان أغناه عنها لو أنه صرف هذه الهواجس أولاً ..

خواطر كانت فى الشباب لأهلها .. عذاباً [1]

فصـارت فـى المشيـب عذاباً [2]

ولابن القيم الجوزية قاعدة مفيدة فى هذا الباب نثبتها هنا [3] .

« قاعدة : فى ذكر طريق يوصل إلى الاستقامة فى الأحوال والأقوال والأعمال وهى شيئان .

---

(١) بكسر العين . (٢) بفتح العين .

(٣) طريق الهجرتين ص ٢٤١ - ٢٤٣

أحدهما : حراسة الخواطر وحفظها . والحذر من إهمالها والاسترسال معها . فإن أصل الفساد كله من قبلها يجئ . لأنها هى بذر الشيطان . والنفس أرض القلب . فإذا تمكن بذرها . تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى .. حتى تصير إرادات .

ثم يسقيها حتى تكون عزائم . ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال . ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم . فيجد الإنسان نفسه عاجزاً أو كالعاجز عن دفعها . بعد أن صارت إرادة جازمة . وهو المفرط إذا لم يدفعها وهى خاطر ضعيف . كمن تهاون بشرارة من نار وقعت فى حطب يابس . فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها

فإن قلت فما الطريق إلى حفظ الخواطر ؟

قلت : أسباب عدة : أحدها : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه . ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك .

الثانى : حياؤك منه .

الثالث : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر فى بيته الذى خلق لمعرفته ومحبته .

الرابع : خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر .

الخامس : إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته .

السادس : خشيتك أن تتولد تلك الخواطر . ويستعر شررها . فتأكل ما فى القلب من الإيمان ومحبة اللّه فتذهب به جملة وأنت لا تشعر .

السابع : أن تعلم بأن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذى يلقى للطائر ليصاد به . فأعلم أن كل خاطر منها فهو حبة فى فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر .

الثامن : أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هى وخواطر الإيمان ودواعى المحبة والإنابة أصلاً . بل هى ضدها من كل وجه .

وما اجتمعا فى القلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة . فأخرجتها واستوطنت مكانها .. ولكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه .

التاسع : أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له . فإذا دخل القلب فى غمراته غرق فيه وتاه فى ظلماته . فيطلب الخلاص منه . فلا يجد إليه سبيلاً .

فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح . معذب مشغول بما لا يفيد .

العاشر : أن تلك الخواطر وادى الحمقى وأمانى الجاهلين :

فلا يثمر لصاحبها إلا الندامة والخزى .

وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها . وأفسدت عليه رغبته وألقته فى الأسر الطويل .

وكما أن هذا معلوم فى الخواطر النفسية . فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هى أصل الخير كله :

فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد .. ورجاء الثواب وسقيت مرة بعد أخرى . وتعاهدها صاحبها بحفظها . ومراعاتها والقيام عليها . أثمرت له كل فعل جميل . وملأت قلبه من الخيرات . واستعملت جوارحه فى الطاعات . واستقر بها الملك فى سلطانه . واستقامت له رعيته .

ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك . عملت على حفظ هذه الخواطر . فكان ذلك هو سيرها وجل عملها .

وهذا نافع لصاحبه بشرطين : أحدهما : ألا يترك به واجباً ولا سنة .

الثانى : ألا يجعل مجرد حفظها هو المقصود . بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والإنابة والمحبة والتوكل والخشية . فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره بأضدادها .

وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معاً كان خاسراً .. فلا بد من التفطن لهذا .

ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك . عملوا على إلقاء الخواطر وإزالتها جملة

فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقاً وفتحاً رحمانياً . وهم غالطون .

وإنما هى خيالات شيطانية . والميزان هو : « الكتاب الناطق . والفطرة السليمة . والعقل المؤيد بنور النبوة . والله المستعان » .

الخطوة الثانية : وقاية المرأة نفسها أولاً .. حتى لا تثير الفتنة النائمة .

والخطوة الثالثة : الضرب - وبشدة - على أيدى العابثين بنساء المسلمين .. وذلك قوله تعالى :

﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً ، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهاتاً وإثماً مبيناً ، يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ، لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (١) .

فلنبدأ بالاحتشام .. والالتزام ..

فإذا تعرض لبناتنا الطغام .. فلنحكم شرع الله فيهم .. وإلا .. فإن الآيات الكريمة تهدد الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ .

فإذا خرجت المرأة من دائرة العفاف .. فقد اكتسبت إثماً يحملها مسئولية ما يحدث من حولها !

وإذا كان الشر .. بالشر .. فإن البادئ أظلم !

• أهمية الوقاية :

قد يحميك غطاؤك من لفحات برد ينصب عليك من النافذة المفتوحة . ولكن المشكلة ما زالت قائمة ما دام البرد سارى المفعول !

فإذا أنت أغلقت النافذة فلا حاجة بك إلى غطاء . ولا دواء .. فأرحتالقلب .. والجيب معاً !

---

(١) الأحزاب : ٥٧ - ٦٢

أغلق النافذة .. لتريح .. وتستريح .

وهكذا يقرر الإسلام : « الوقاية .. خير من العلاج » .

والأمم التى تنكبت هذا الصراط السوى .. ضلت وأضلت ..

● مثال من هناك :

فى بعض الدول .. تغتصب امرأة كل سبع دقائق .. فماذا فعل الحكام هناك ؟

أنشأوا نوادى لتدريب المرأة على الدفاع عن نفسها فى مواجهة غاصبها ! ودعك من عملية التدريب على يد رجال ينفردون بالفريسة المستسلمة بين أيديهم .. واضحك بملء فيك من امرأة عارية .. فى الطريق تدعوك بالصوت .. والمشية .. والحركة .. وبإلحاح وكأنما تقول :

هيت لك ! .. فإذا شب الحريق الناشئ من تلامس الغاز والكبريت شرع السلاح لحسم معركة أثارتها المرأة ابتداء بخلاعتها .. ولو أنها استقامت على الطريقة .. وعلى الطريق . لما وجد فى الحياة ذئاب !!

سدنة النفاق :

ولهذا التناقض فلسفة نادى بها روادهم : فلا بأس من انتشار العرى وبحث الموضوعات الجنسية .. لماذا ؟

قال « برتراند راسل » : إن إباحة نشر الصور العارية وتداولها سيحمل على رواجها سنة أو سنتين . ثم يملها الناس ولا ينظر إليها أحد !!

يقول هذا .. بينما الواقع .. وقوانين النفس البشرية تكذبهم :

(أ) فليس كل ما يعتاده الإنسان يزهد فيه .

(ب) لو سلمنا بذلك .. فإننا لا ننسى تتابع الأجيال التى تتملى صور الخلاعة .. ثم يأتى من بعدها ليستأنف النظر ولا تنقطع سلسلة الفساد أبداً .

(جـ) أن صور المجون تثير فينا غرائزنا .. ثم لا تشبعها . وذلك هو الفن الرخيص .

الإسلام والجمال :

بلا جمال تصبح الحياة قاحلة .. أشبه بالمناطق القطبية التى يغطيها الجليد أبداً !

وإذا كانت الحكمة الصينية تقول : إذا كان لديك رغيفان .. فبع أحدهما واشتر بثمنه زهرة غذاء لعينك .. ونفسك .. فإن هذه الحكمة تنبثق من معين الإسلام اللافت إلى جمال الكون : فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كلوا من ثمره ﴾ [1] غذاء للمعدة ..

ويقول : ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ غذاء للروح ..

ولكنه الجمال بمعناه الشامل .. والسارى فى خفايا الكون .. فلا ينحصر الجمال فى المرأة فقط ..

ولماذا لا يكون الجمال فى الزهرة اليانعة .. والماء الجارى .. والثمار الناضجة ؟

روى ابن كثير عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً ﴾ [2] . قال : هو الرجل : يرى المرأة فكأنه يشتهى . فإن كانت له امرأة فليذهب إليها .. وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فينظر فى ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله .

إن الإسلام لا يحبس القلوب خلف الضلوع فلا تحس بجمال الحياة ، بيد أنه يطلق سراحها محكومة بهدى الله سبحانه .. حتى لا تتورط فى المستنقع الآسن :

قلبـــى يحب وإنما   أخلاقه فيه ودينه

كرامة الإنسان ودروس من القرآن والسنة :

طبق منهج القرآن فى صيانة عرض الإنسان أن يهان .. نراه أحياناً يوحى بترك الشئ من الحلال مخافة الوقوع فى الحرام .

وفى مجال غض النساء أبصارهن . وعدم إبداء زينتهن [4] ، يستثنى البعولة والآباء ، وغيرهم فيجوز فى حقهم النظر . ثم لا يذكر العم والخال ممن يجوز لهم رؤية

---

(١) الأنعام : ١٤١   (٢) الأنعام : ٩٩

(٣) النور : ٣٣   (٤) الأحزاب : ٥٧ - ٦١

ابنة الأخ وابنة الأخت . مخافة أن يصف كلاهما ابنة أخته أو أخيه لولده : وليس محرماً لها !

يقول القرطبى هنا [(١)] : (ترك من المحارم : العم والخال) .

عن الحسن البصرى أنها كسائر المحارم فى جواز النظر . وقد يذكر البعض للتنبيه به على الجملة . ولهذه لم يذكر المحارم من الرضاع فى هذه الآية .

وكذا فى سورة الأحزاب قال : ﴿ لا جناح عليهن فى آبائهن ﴾ الآية .

يقول الشعبى : إنما لم يذكرها الله تعالى لئلا يصفها العم عند ابنه ، والخال عند ابنه وذلك أن العم والخال يفارقان سائر المحارم فى أن أبناءهما ليسوا من المحارم .

فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه ، وليس محرماً ، ومعرفة الوصف قريب من النظر وهذا أيضاً من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط والتستر .

وإنما أبيح إبداء الزينة الخفية لهؤلاء المذكورين . لاحتياجهن إلى مواصلتهم ومخالطتهم . ولا سيما فى الأسفار والركوب .

وأيضاً لقلة وقوع الفتنة من جهتهم ، لما فى الطباع من النفرة من ممارسة القرائب والأقارب .

وإذا بلغ احتياط القرآن هذا المبلغ ، فإنه يدين كل محاولة للإصلاح لا تأخذ فى حسابها مبدأ الوقاية قبل العلاج .

قبل أن نحسم المعركة لصالح الشيطان :

« عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول - وأهوى النعمان بأصبعيه إلى أذنيه - : إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما متشابهات لا يعلمهن كثير من النفس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى .. يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا وهى القلب » [(٢)] .

---

(١) مجلد ٩ ج ٧٩/١٨

(٢) رواه مسلم جـ ١١/ باب أخذ الحلال .

بين مطالب البدن .. ومطالب العقيدة .. تدور المعركة فى داخل الإنسان .. والشيطان المريد غير بعيد يتحسس الموقف .

فإذا وجد الإنسان أقرب إلى الأقدام .. أغراه بالتجاوز .. وإن رآه أقرب إلى الأحجام .. ألهاه عن العمل ..

إن له فى كل حالة أسلوبه المناسب . والمطلوب منا ألا نمكنه من حسم المعركة لصالحه - والحديث الشريف .. يدفع المسلم فى محاولة لزحزحته عن منطقة المشتبهات ليكون فى مأمن من الوقوع فى الحرام الصريح ..

إن المسلم الواقع فى المتشابهات واقع فى نفس اللحظة فى قبضة الشيطان الذى نمكنه من رفا بنا حين نقترب من منطقة نفوذه !

وإذا استسهل المسلم المتشابه .. وقف به على شفا جرف يوشك أن ينهار به فى مستنقع المعاصى ..

وقليل من الورع ينأى به بعيداً .. تاركاً بينه وبين الحرام هذه المنطقة العازلة .. حتى لا يشم رائحة المحرم .. ولا يتملى ألوانه فإذا هو واقع فيه .

• اختلاف الناس :

والأمور التى تعبدنا اللّه تعالى بها :

(أ) حلال .. بين الحل .. لا يخفى على أحد .

(ب) حرام بين الحرمة واضح لكل أحد ..

(جـ) مشتبهات لم يتضح فيها معنى الحل . ولا معنى الحرمة . أما القسم الأول والثانى : فيستوى فى العلم بهما كل الناس ..

ولئن انفرد العلماء بإدراك حكمة الحل والحرمة بالإضافة إلى معرفة الحكم .. فإن ذلك لا ينفى استواء الجميع فى معرفة الحلال البين . والحرام البين .

أما المشتبهات : فقد اختلفت المواقف إزاءها .. فالعلماء يعرفون أحكامها : بنص .. أو قياس .. أو غير ذلك .

فإذا لم يكن شئ من ذلك .. اجتهد العالم فألحقه - عن طريق الدليل الشرعى - بالحلال أو بالحرام .

وقد يكون الدليل فى يد العالم ضعيفا يتطرق إليه الاحتمال .. فيكون من الورع تركه .. ليدخل فى باب المشتبهات .

• تفريع :

وإذا لم يظهر للمجتهد فيه شئ فما الحكم ؟ .. فيه مذاهب :

(أ) التحريم . (ب) التحليل .

(جـ) التوقف .. وهو الأصح لأن التكليف لا يثبت إلا بالشرع .

• موقف عامة الناس :

لا يعرفون .. فيقعون من حيث لا يحتسبون !

والحديث دعوة إلى معرفة هذه المشتبهات .. ثم توقيها بالزهد والورع .. عن طريق تزكية القلب بالطاعة والذكر .. ليظل آلة يميز بها المسلم معالم طريقه .. فلا يقع فى الحرام .

• أسلوب الحديث :

يرسم الحديث صورة بيانية بها نقطة البداية على طريق الانحراف : فقد شبه المكلف .. بالراعى . والنفس البهيمية .. بالأنعام . والمشبهات .. بما حول الحمى .. وتناول المشتبهات .. بالرتع فى الحمى .

فإذا كان الراعى قريباً من الحقل الأخضر يوشك بالاستمرار أن يقتحم حرمة هذا الحقل فيرعى ما لا يملكه ..

فإن الواقع فى المشتبهات يوشك أيضاً أن يقع فى الحرام الخالص .. جاهلاً أو متجاهلاً .. لماذا ؟

١ - قد تصادف بعض المحرمات فى الطريق .. فتركبها ..

٢ - تتساهل بالممارسة .. فتتعاطى الكبير بعد الصغير .. والمركب بعد البسيط .. والمعاصى بريد الكفر .

٣ - إذا تعودت على هذه الصغائر صعبت عليك العودة إلى الحلال .. والعادة طبيعة ثانية .

٤ - والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ [(١)] ، ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ [(٢)] ، ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ [(٣)] ، ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ [(٤)] .

لقد نهى عن القرب .. لأن من يقترب يوشك أن يقترف !

من أجل ذلك : فمن وقع فى الشبهات .. وقع فى نفس اللحظة .. فى الحرام بلا فاصل زمنى . كما يشير الحديث .. سنة لا تتخلف !

يقول ابن الجوزى [(٥)] : « ما رأيت فتنة أعظم من مقاربة الفتنة . وقل أن يقاربها إلا من يقع فيها . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم . وتحتمل الإباحة . إذا الأمر فيها مردد . فجاهدت النفس . فقالت : أنت ما تقدر .. فلهذا تترك .. فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت كنت تاركاً حقيقة ، ففعلت ، وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى فى تأويل أرتنى فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل .

فلما وافقتها أثر ذلك ظلمة فى قلبى ، لخوفى أن يكون الأمر محرماً ، فرأيت أنها تارة تقوى على بالترخيص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت ، لم آمن أن يكون ذلك الأمر محظوراً .

ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل فى القلب ، فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت فى قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر ، فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدرى أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فوالله الذى لا إله إلا هو .. لاعدت إليه ! فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته فى إمتناعها ، لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتفكير .

فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن ، وترك الترخص فيما يجوز . إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق .

---

(١) الإسراء : ٣٢ (٢) الأنعام : ١٥١ (٣) الأنعام : ١٥٤

(٤) البقرة : ١٨٧ (٥) صيد الخاطر ٢٤١/٢٤.

ثم يقول فى نفس الموضع ، محذراً من الاقتراب الحامل على الاقتراف : « وقل من يسلم عند المقاربة ، لأنه كتقديم نار إلى حلفا ، ثم لو ميز العاقل بين قضاء وطره لحظة وإنقضاء العمر بالحسرة على قضاء ذلك الوطر ، لما قرب منه ، ولو أعطى الدنيا ، غير أن سكرة الهوى تحول بين الفكر وذلك ، آه ، كم معصية مضت فى ساعتها كأنها لم تكن ، ثم بقيت آثارها ، وأقلها ما لا يبرح من المرارة فى الندم ، والطريق الأعظم فى الحذر ألا يتعرض لسبب فتنة ، ولا يقاربه ، فمن فهم هذا ، وبالغ فى الاحتراز كان إلى السلامة أقرب) .

• الحاجز الحصين :

وقد وقى الرسول ﷺ أمته من المعاصى قبل أن يقعوا فيها ، بما سنه من آداب سار على دربها العارفون ، فكانت الوقاية ، حتى لا يكون داء ، ولا تكون بهم حاجة إلى علاج !

وقد ضرب ﷺ أروع الأمثال للناس ، لعلهم يتقون : وذلك قوله : « إنى لأنقلب إلى أهلى ، فأجد التمرة ساقطة على فراشى ، فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها » [(١)] .

ولكن ، ماذا يحدث لو أكلها ؟

« أخرج أحمد فى المسند ١١ / ١٠ : أن النبى ﷺ أرق من الليل ، فقال له بعض نسائه : يا رسول الله : أرقت الليلة ، فقال : « إنى كنت أصبت تمرة تحت جنبى فأكلتها ، وكان عندنا تمر من تمر الصدقة ، فخشيت أن تكون منه » [(٢)] .

وبهذه الجدية فى تناول الأمور بلغ الرسول ﷺ قمة التقوى ، ووقاه الله بها من الوقوع فى الاثم ، الذى جعل بينه وبينه مساحة مما قد يحل له ، فراراً من الوقوع فيما لا يحل .

---

(١) البخارى ، كتاب اللقطة .

(٢) كتاب الزهد باب الورع ٢/ ١٤٠٩ .

« أخرج الترمذى وابن ماجه - وقال حديث حسن غريب - من حديث عبد الله ابن يزيد : (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع ما لا بأس به ، حذراً مما به بأس) » [1] .

والمؤمنون على الطريق :

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : « تمام التقوى : أن يتقى الله العبد ، حتى يتقيه من مثقال ذرة ، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال ، خشية أن يكون حراماً ، حجاباً بينه وبين الحرام » .

ومن أجل هذا استحقوا وصف « المتقين » على ما يقول الثورى : « إنما سموا بالمتقين ، لأنهم اتقوا ما لا يتقى » !

« كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بن عبد الله الحكمى : « إن أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزاً بينك وبين ما حرم الله عليك فافعل ، فإن من استوعب الحلال كله ، تاقت نفسه إلى الحرام » [2] .

إن الذى يرخى لنفسه الزمام ، حتى تستمرئ المتاع وإن كان حلالاً ، لا يستطيع بعد ذلك أن يحملها على طاعة الله تعالى .

إنه يقف بها على حافة هاوية لا تلبث أن توقعه فى حرام يقف الآن على مشارفه ، فيشم ريحه ، وتخلبه ألوانه ، وإنه لواقع فيه لا محالة .

وقد تقصد البحر يوماً : إمتاعاً للعين بمائه وإشباعاً للحس بهوائه ، ولكن ما رأيك ؟ إن فى الماء عرايا ، وعلى الشاطئ مجونا ؟

وإذن ، فمن الحكمة التنازل عن بعض ما أحل الله لك ، ولتأخذ خطوات إلى الخلف تاركاً « منطقة عازلة » بينك وبين الحرام . حتى لا تقع فيه ! ولقد رفض عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن توزع زوجته المسك حتى لا يعلق بها شئ منه .

وعلى الطريقة سار حفيده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . حين سد أنفه حتى لا يشم رائحة المسك ساعة توزيعه ، فلما خوطب فى ذلك قال : وهل ينتفع به إلا بشم ريحة ؟!

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ٣/١١١

لقد كانوا ينظرون إلى الآخرة كصندوق تدخر فيه الأعمال ، وحرام أن تذهب شبهة بما عملوا .

وكانت الدنيا فى حسهم : ظل زائل .

لا نقول ظل جدار ، أو ظل شجرة ، فقد يدوم ذلك زمناً ، لكنها ظل عصفور ، إذا طار ، فلا عصفور ، ولا ظل !!

ويرحم اللّه الحسن البصرى حين قال : « ما ضربت ببصرى . ولا بطشت بيدى . ولا نهضت على قدمى ، حتى أنظر : أعلى طاعة أم على معصية ؟ فإن كانت طاعة تقدمت ، وإن كانت معصية تأخرت » .

• المضمون الاجتماعى للحديث :

(أ) « إذا قال بعض العلماء » من عرض نفسه للتهم ، فلا يلومن من أساء به الظن » .. فإن واجب الظانين بالناس ظن السوء أن يعيدوا النظر فى كثير من أحكامهم على الناس والأحداث ، فى ضوء هذا الحديث الشريف : لا يبنون أحكامهم على الآخرين إلا على أساس من أمور يقينية وإطراح التهم التى لا سند لها ، والتى هى متشابهات لم تتضح معانيها تماماً ، وإذا ما توفرت لصديقك بعض الخصائص الفاضلة ، وإذا كان لزميلك حسنات تراها العين ، فليكن تقديرك له على قواعد من هذه الثوابت فى حياته ، واستبعاد ما تطلقه الألسنة المغرضة من أقاويل وأضاليل .

(ب) ويتصل الحديث اتصالاً مباشراً بالحياة اليومية ، فإصلاح كل أنواع الكسب مردود إلى العمل به والالتزام بأدبه .

فنحن مطالبون بالورع فى : المأكل ، والمشرب ، والوقت ، والجهد ، وإذا تساهل البعض فى استعمال الهاتف فى الديوان ، واستغلال الأوراق ، والحافلات ، فإنهم مأمورون بوزن ذلك بميزان الحديث ، حتى لا تمتد منهم الأيدى إلى ما فيه شبهة ، وقاية لهم من الوقوع فى الأخطاء الجِسام .

• الميزان الحساس :

وتتوالى أداة الاستفتاح : « ألا .. » مكرورة ، تنبيها للمسلم ليتعامل مع اللّه تعالى – على الأقل – بمثل ما يتعامل به مع البشر .

فإذا خاف الإنسان من حمى الملك ، فلا يقترب منه .

فما أحرى أن يبتعد عن حمى اللّه تعالى ، رغباً ورهباً .

ولا يتم الإصلاح إلا من القلب ، فبدونه لا يكون صلاح .

إن القلب : أول نقطة تكون من النطفة .

ومنه تظهر القوى ، ومنه تنبعث الأرواح ، ومنه ينشأ الإدراك ويبتدئ التعقل ، فلهذه المعانى خص القلب بذلك .

وقد قال الحسن لرجل : داو قلبك ، فإن حاجة اللّه إلى العباد صلاح قلوبهم .

ألا وإن « الإثم حزاز القلوب » [1] كما قيل : يحز فيها ، يقطعها ، ثم هو حواز عليها ، يحوزها ، ويستولى عليها أخيراً .

• المسلمون اليوم :

فسدت القلوب تحت مطارق الاعلام الذى يمكر بالليل والنهار !

وعجزت القلوب عن التمييز بين الحلال ، والحرام .

إنها قلوب تشتهى ، ولا تعقل !

بل إن البعض يدافع عن الإثم فى تحد ووقاحة !

وصاروا على ما يقول العقاد :

بين أذن تهوى الهتاف وعين تتحـــرى زجاجـــة الرسام !

أى أنهم يعبدون ذواتهم ، ولا ينظفون قلوبهم ، فأحلوا ما حرم اللّه علانية ، وأين هذا من القلب الحساس اليقظان :

كانت امرأة مسلمة تغزل الصوف فسألت ابن حنبل : تمر على مشاعل الظاهرية ، فنستضئ بها ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : أخت بشر الحافى قال : من بيتكن يخرج الورع الصادق .

---

(١) رواه أحمد عن ابن مسعود .

وما أحوجنا إلى قلب كهذا ، يشكل فى كيان الإنسان « رادار » تظهر على صفحته الرائقة خواطر السوء ، وهى بعيدة ، فتنشط الإرادة ، وتدمر الهدف قبل أن يصل إليه !

* * *

• دركات المعصية ومستويات التغيير :

تتفاوت الحقائق الدينية حسب أهميتها ، ومن ثم تختلف وسائل إبلاغها ، كما تختلف من حيث درجتها فى سلم الاهتمامات ، فهناك أصول وفروع .

فالأصول تأخذ نصيبها من التركيز والمتابعة ، بينما تبقى الفروع فى جدول الهموم بعد الأصول .

فإذا عكسنا الآية فكانت الفروع مركز اهتمامنا ، بينما الأصول مطوية غيرمرعية ، لا يكون بناؤنا على أساس :

إن وجود الحق سبحانه وتعالى ، وصدق النبى ﷺ ، والإيمان بالآخرة ، كل أولئك أهم فى ميزان الإسلام من الإيمان بصدق أبى بكر وعدل عمر ، وحياء عثمان مثلاً ، مع أهمية ذلك .

كما أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة خير من زيارة صديق ، أو عيادة مريض .

ثم ، إن نسبة التألم لهدم مسجد أو مدرسة أو مستشفى أكثر من التألم لهدم بيت أو حفر طريق .

وفى باب المعاصى : فإن جريمة الزنا ، والسرقة ، وقطع الطريق ، أدخل فى الاهتمام من حلق اللحية ، وجر الثوب خيلاء ، مثلاً .

إن تقدير النسب بين هذه الأمور يفرض على الدعاة « جدولة المعاصى » [١] .

لنبدأ بالأهم ، فالمهم ، وهكذا : لقد سمى اللّه تعالى الشرك ظلماً فى قوله سبحانه ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [٢] .

---

(١) الفكرة للدكتور القرضاوى .

(٢) لقمان : ١٣

وسمى اللمز والغيبة ظلماً ، فى قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بأس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ [(١)] .

فهل يستويان فى الجرم ؟

وسمى جحد آياته وقتل أنبيائه كفراً ، وسمى الحلف بغير اللّه كفراً .

فهل يستويان فى الاثم ؟

وإذا كان الحاكم مسلماً ولم يكن عند مسئوليته الكاملة كما أمر اللّه .

فهل يستوى مع حاكم ملحد يتخذ إلهه هواه ؟

لقد أمر الرسول ﷺ بالكف عن القتال متى سمع الأذان .

فكيف والحاكم اليوم مسلم ، يصلى ، ويصوم ؟!

بل ويسره أن يكثر الركع السجود فى بيوت أذن اللّه أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؟

* * *

مستويات تغيير المنكر :

بين الحديث الشريف مراتب تغيير المنكر . فحصرها فى ثلاث :

(أ) التغيير باليد .

(ب) التغيير باللسان .

(ج) التغيير بالقلب .

وإذ تتعدد الوسائل وتتدرج من : الصعب ، إلى الأصعب ، ومن السهل ، إلى الأسهل : فإن ذلك يعنى اشتراك الأمة كلها فى مسئولية التغيير . كل حسب قدرته وكفاءته .

يقول الإمام الغزالى فى بيان هذه المراتب : المعاصى المنكرة ثلاثة :

معصية ذهبت : كخمر شرب . وسرقة تمت . وإنكارها هو : إقامة الحد . وذلك للولاة لا للأفراد .

---

(١) الحجرات : ١١

ومعصية مباشرة ترتكب : كشرب خمر . فالواجب على كل فرد منعه ، ما لم يؤد إلى فتنة . أو معصية أشد منها .

ومعصية مترقبة : كمن يهيئ مجلساً ليشرب فيه الخمر ، فالواجب النصح دون تعنيف أو ضرب ، ولولى الأمر منعه إن تأكد انعقاد المجلس [1] .

من هم أولوا الأمر

و « أولوا الأمر » أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان « أولوا الأمر » صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح الناس . وإذا فسدوا : فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للأحمسية لما سألته : « ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم .

ويدخل فيهم : الملوك والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً فهو من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته : أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصية الله ، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه - حين تولى أمر المسلمين وخطبهم - فقال فى خطبته :

« أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى . حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى . حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله . فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » [2] [3] .

إن إقامة الحد مسئولية الحاكم وحده .

كما أن منع الفتنة بالقوة صميم اختصاصه . ولم يبق لى ولك إلا النصح بالكلمة أو بالحيلة .. على ألا يترتب على النصح ضرر أكبر .

---

(١) الإحياء ج ٢٨/٢

(٢) رواه ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٥ ص ٢٤٨ ، وقال : « هذا إسناد صحيح » .

(٣) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيميه ٦٩/٦٧

ومع ثبوت حق الحاكم فى التغيير بالقوة .. إلا أنه لم يكن يستغل سلطته فى التنكيل بالعصاة متى أغنت الموعظة عن العصا ..

ومع أن النصيحة كانت وسيلة المحكوم دون غيرها من وسائل العنف فقد كان بالنصيحة قادراً على تغيير المنكر .. والأخذ بيد العاصى إلى طاعة اللّه تعالى .

وإليك بعض هذه النماذج :

• دعاة . يبنون .. ولا يهدمون :

يقول أطباء الأبدان : عندما يسيغ الآكل اللقمة الأولى .. تتنبه معدته إلى عملها . قبل أن تمتلئ . ويتمكن حينئذ عصيرها من التأثير كما يجب .

أما الوجبة الكاملة دفعة واحدة فإنها تصدمها بثقلها .. فتتوقف أو تكاد . وإلى أن يدرك الآكل أن الطعام ليس حجراً . وإنما هو سكر قابل للهضم يكون قد مضى وقت طويل .. يفقده فى النهاية شهيته !

ومن طب الأبدان . إلى طب النفوس :

فعندما تكون الموعظة خفيفه .. تستوعبها النفس .. وتقبل عليها . ثم تستجيب لها .

وعندما تكون ثقيلة طويلة .. تمجها . ولا يستبين المنصوح ما فيها من دلائل اليقين .. بعد أن غاب فى زحامها فلم يدر ما يأخذ وما يدع .

• مثل من التاريخ :

يروى الإمام الواحدى : أن رجلاً من أشراف البصرة . كان يتنزه فى سفينة له . ومعه جاريته . فلما شرب . راحت الجارية تغنى . وتعزف على عود معها . وكان فى السفينة فتى من الصالحين فقير . فقال له الرجل : أيا فتى : أتحسن مثل هذا ؟ فقال الفتى : أحسن ما هو أحسن منه ! وكان الفتى حسن الصوت . فاستفتح وقرأ قولة تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيده ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ٧٧ - ٧٨

فألقى الرجل ما فى يده من الشراب فى الماء . وقال : أشهد أن هذا أحسن مما سمعت ! فهل غير هذا ؟ فقال الفتى : نعم . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ (١) .. الآية .

فوقعت فى قلب الرجل موقعاً حمله على إلقاء الشراب فى الماء . وكسر العود . ثم قال : يا فتى ، وهل هناك من فرج ؟ فقال الفتى : نعم وقرأ قوله تعالى :

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

نصاح الرجل صيحة عظيمة . ثم صمت . فنظروا إليه فإذا هو قد مات .

ماذا فى الموقف من دروس ؟

إن الفتى المسلم هنا قابض يديه على ما يشبه الجمر .. أمام دنيا فاتنة بالصوت .. والصورة !

ثم هذا التحدى السافر من الرجل الذى يستبعد أن يكون فى الدنيا أجمل مما يسمع ويرى ..

فماذا فعل الفتى المسلم ؟

لقد واجه التحدى بحكمة يحسد عليها .

وقد أقام منهجه فى الإصلاح على دعامتين :

الأولى : تجنب العنف .

والثانية : الالتزام بسنة التدرج فى الدعوة .

لقد كان بإمكانه أن يثب على الشريف فى حركة انتحارية يحطم العود .. والكأس معاً .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الزمر : ٥٣

لكنه فكر . وقدر ليكتشف أن النتيجة لن تكون فى قلب الرجل المفتون إلا مزيداً من الوله بالشراب .. ومزيداً من الوجد بالجارية !!

ومن حسن حظ الدعوة أن الفتى كان : حسن الصوت .. حسن العرض .. حافظاً لكتاب اللّه تعالى .. قادراً على دقة الاستشهاد بآياته .

وما دام يملك هذه الوسائل السليمة .. فلا مكان فى خطته للسلاح والدم المستباح !

• سنة التدرج :

ثم إن الرجل غارق فى دنيا مؤثرة وهوى متبع .. ومن الصعب انتزاعه من غمرة هواه بالضربة القاضية .. وإنما هى الحكمة الهادية . القاضية باستقطابه على سنة التدرج . حتى نمتص بالتدرج شحنة الإعجاب بالدنيا .. فإذا نجحنا فى الذهاب بها .. فسوف يكون معنا على الحق .. وإن أحاطت به أعواد . وحاصرته الجوارى الحسان .

وهذا هو الذى حدث :

ذكره أو لا بمتاع الدنيا القليل .. المنقطع . وكيف كان ظلاً زائلاً إزاء المتاع الحقيقى .. الدائم . فى الآخرة .

ومهما عب الإنسان من هذا النعيم عبا فهو إلى زوال يسلمه فى النهاية إلى موت يعقبه حساب عسير .

بشائر النصر :

وقد حقق المنهج أثره كما يلى :

١ - اعترف الرجل بحقارة ماهو مستغرق فيه .

٢ - إلقاء ما فى يده من الشراب فى الماء تعبير عملى عن ذلك .

٣ - طلبه المزيد من النصحية .

الدعوة تواصل المسير :

وعند هذه الصحوة الجادة . يتقدم الفتى مرحلة أخرى متجهاً إلى أعماق الرجل .. فتلا من الآيات ما يناسب هذه الصحوة : ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ ..

لقد زال بالآيات الأولى غشاوة .. وها هى ذى نفسه تطرق باب الهدى فيفتح أمامها .. وهذا هو الحق يستعلن لمن شاء أن يتخذه صاحباً .. وهنا يذكره الفتى بحقه فى اختيار مصيره .. إما إلى جنة .. وإما إلى نار .. منبهاً إياه إلى تفاهة متعة عابرة يظنها مع الكأس اليوم .. وأين هى من شراب يشوى الوجوه غداً ؟

ويا لها من قطرات .. تخلف من ورائها حسرات .

الكلمة الطيبة تؤتى أكلها :

وقد كان وقع الآية شديداً .. فكانت الحركة أشد وطأة على واقعه الأليم :

فلم يكتف الرجل - كما فعل أول مرة - بإلقاء ما فى يده .. بل إنه :

١ - ألقى بالشراب كله فى الماء .

٢ - ثم حطم العود .

٣ - وها هو ذا ينفصل شعورياً عن ماضيه الملوث .. مندفعاً بكل كيانه إلى حيث الخلاص .. إلى طوق النجاة .

وتؤتى الحكمة ثمرتها الأخيرة .. حين تفتح باب التوبة على مصاريعه .. أمام تائب يرجو رحمة ربه .. التى تسع التائبين جميعاً .. مهما كانت ذنوبهم أحجاماً .. وأرقاماً !

ويسقط الرجل مغشياً عليه ..

لقد ألح عليه إحساس بأنه أخذ من النعيم فوق ما يستحق .. وضيع من العمر ما لا يمكن تعويضه .. فكان على موعد مع الموت بإذن الله .. شاهداً على زملائه الغارقين فى اللهو بتفاهة ما يفعلون .. دافعاً لهم إلى توبة تغسل الماضى ليولدوا من جديد .

وتبقى من حكمة الفتى المسلم أمارات :

إنه لم يقل للرجل : إن ما أنت عليه عبث ولهو - وإنه لكذلك - ولكنه افترض جدلاً أنه « حسن » .. ولكن هناك ما هو أحسن منه .. فى عملية استدراج نسلم فيها للباطل ببعض مقدماته حتى نوقعه فى الشبكة صيداً ثميناً !

إننا - كمسلمين - نطلب الهداية للناس ..

فلنأخذ إليها سبيل الحوار الهادئ .. بلا يأس يشل من حركتنا .. وبلا غرور يعزلنا عن إخوان لنا .. ولتبقى الجسور ممتدة بين أفراد الأمة إمتداداً تتواصل به الأجيال .

التغيير باللسان :

قد يبدأ أولاً بالعتاب الرقيق ..

ثم بالعظة البليغة ..

ولا بأس أن يشتد النكير بعد ذلك أمام إصرار العاصى وتحديه .

ربما كان العاصى جاهلاً أو غافلاً .. وحينئذ فعظه فى خلوة : ستراً عليه .. وكسباً لثقته .. وإلا فالإعلان يبعده .. وقد قيل : ما أغضبت رجلاً فسمع منك .

فإن خاف العاصى .. فبها ..

وإلا .. فأعلن ذنبه على الملأ لعله يخاف الفضيحة فيرجع عن غيه :

وفى قصة نوح عليه السلام شاهد على ذلك .

وذلك قوله تعالى : ﴿ ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً ﴾ .

« ومن حكمة الجمع بين الإعلان والإسرار . إزالة ما يقع فى نفس المدعوين من إتهام الداعى بأنه ما أراد من دعوته علانية إلا تلويث عرضه » [١] .

« شكا أبو بكر المروزى إلى أحمد بن حنبل . جارا له يؤذيه بالمنكر .

فقال : مره بينك وبينه . قلت : تقدمت إليه مراراً . فكأنه يضحك . قال : وأى شئ عليك ؟ إنما هو يضحك على نفسه ..أنكر بقلبك ودعه » [٢] .

لقد أمره أولاً أن يعظه باللسان .. وعلى فترات .. فإن قبل فبها .. وإن سخر .. فإنما يسخر من نفسه ..

ثم أمره أن يستمر على ذلك .. ولا تثريب عليه إذا لم يجد إلا وسيلته الأخيرة : النهى بالقلب .

---

(١) دعوة الإصلاح ٤٩ (٢) الأمر بالمعروف للخلال .

وقد يقسو الداعية فى منطقه أحياناً .. حين يستدعى الموقف ذلك :

« روى مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحكم يخطب قاعداً . فقال : انظروا إلى هذا الخبيث : يخطب قاعداً . وقد قال اللّه تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » .

وعلى ما فى النقد هنا من تجريح . لكنه دليل يقظة الأمة التى تهب للدفاع عن سنة نبيها بالكلمة مهما كانت خشنة .. وقاية للأمة من مستقبل يكلفها الكثير من أموالها وطاقاتها .

التغيير بالقلب :

وهو خط الدفاع الأخير والمتاح لكل مسلم .

على أن يترجم الوجه عما فى القلب من كراهية للمنكر .. ومقاطعة فاعله حتى يزول .

وإذا لم يعلن المسلم بقدر من الغيرة على أن الحق مستكن فى قلبه .. ولم يستعمل حقه فى مجرد الإمتعاض ، والاشمئزاز ممن يعتدى عليه .. فإنه فى أمته بلا قلب .. بلا إيمان ! ولو ملأ الدنيا تهليلاً وتكبيراً .

« يروى أن رجلاً عابداً . خلا فى محرابه . واعتزل الناس . ولما جاءت ملائكة العذاب قالوا : يا رب : عبدك فلان .. ماذا نعمل له ؟ (خوفاً من العذاب) فقال اللّه تعالى لملائكته : ابدأوا به . فما تمعر - تغير - وجهه لأجلى مرة واحدة » [(١)] .

وقد يعفيك الإسلام أحياناً من التغيير باللسان .. وقد يعفيك أيضاً من ظهور غضبك على وجهك فراراً من التورط فى معركة الكرامة .

« قال عباس العنبرى : كنت ماراً مع أبى عبد اللّه بالبصرة . قال : فسمعت رجلاً يقول لرجل : يا ابن الزانى ! فقال الآخر : يا ابن الزانى ! قال : فوقفت .. ومضى أبو عبد اللّه . فألتفت فقال لى : يا أبا الفضل : امض . قال : قلت : قد سمعنا .. قد وجب علينا .. قال : امض .. ليس هذا من ذلك » [(٢)] .

---

(١) رواه ابن القيم فى الجواب الكافى .

(٢) الأمر بالمعروف ٩٧

أى ليس التدخل هنا مما يجب عليك .. فراراً بنفسك من معركة خاسرة .. حتى إذا هدأت الأعصاب أمكن التدخل حينئذ لدى كل طرف على حدة .. لتثمر الموعظة فى ظروفها المناسبة .

ولكن الإسلام - مع هذه الرخصة - لا يعفيك أبداً من نسبة ولو ضئيلة من كراهية المنكر ..

وحتى لو منعتك الظروف من التغيير عن طريق التعبير بقسمات الوجه .. فأنت مطالب بالإنكار فيما بينك وبين نفسك وليعلم اللّه ذلك منك .. ويكفيك هذا !

« وقد روى عن ابن مسعود قوله لرجل فى مثل هذا الموقف : أنكر بقلبك .. وليعلم اللّه ذلك منك » .

• مثل من حياة الأفغانى :

قال له رجل : « إنى قرأت كتب الفلاسفة فثبت لى أن اللّه غير موجود ولا يعتقد به إلا حيوان » .

فلم يجبه السيد ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت . وتصايحت الديكة . وغردت الطيور . فقال جمال الدين : كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر اللّه إنساناً ناطقاً ينكر وجود اللّه ؟ كيف يجرؤ على إنكار واجب الوجود من أكله الدود ؟ إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام » .

فخرج الرجل الملحد خجلاً من غير أن يودع .

وسمع الأفغانى رجلاً كبيراً يتكلم فى حق الرسول ﷺ . فأمر من معه من الأفغانيين بضربه . فضربوه حتى خرج يزحف !

• مسئولية المسلمين :

« عن جرير بن عبد اللّه رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون .. إلا أصابهم اللّه منه بعقاب قبل أن يموتوا » [٢] .

---

(١) راجع زعماء الإصلاح لأحمد أمين .

(٢) رواه أبو داود .

ويشير الحديث الشريف إلى أنه بالإضافة إلى ما ادخر للساكتين من عذاب الآخرة فإن كفلا من عقاب الدنيا لابد أن يصيبهم عدلاً منه سبحانه وتعالى . لأن دائرة الانحراف التى تركوها لتتسع .. ستحتويهم مع العصاة .. وسوف تضيق عليهم الخناق .. وتسرى إليهم عدوى المذنبين ليحصدوا من جنس ما زرعوا : وهنا فى البدن .. وبغضاً فى قلوب الخلق .. وسواداً فى الوجه .. ونقصاً فى موارد الرزق .. !

وعلى الأمة الباحثة عن مواطن علتها خارج نفوسها .. أن تعود أولاً إلى هذه النفوس لتطهرها .. لتبدأ رحلة الرخاء والنماء .

إن الدود الذى يأكل زرعنا الأخضر ..

وإن الآفات التى تجتاح ما تصنعه أيدينا من خدمات ..

بل إن العدو الذى يسرح فى أرضنا ويمرح .. كل أولئك هو معاصينا تحولت إلى هذا الوباء فكان هذا الغلاء .

• المنكر بين التغيير والإزالة :

إذا كان من الضرورى إزالة المنكر تطهيراً للعاصى وفراراً من سريان معصيته بالعدوى .. وإذا تحمل الدعاة العبء الأكبر فى القضاء عليه .. فإن مهمتهم لا تنتهى عند حد الإزالة .

لابد أن يتقدموا على الطريق خطوة أخرى ليتم بها عملهم وذلك بإعداد النفوس التائبة لتقبل أوضاع جديدة .. وبناء جديد يشاد على أنقاض هذا المنكر الذى زال . وليقف التائبون غداً مع وعاظهم .. دعاة مثلهم إلى الخير .

لا يكفى أن يحطم الشارب كأس الخمر .

ولا يكفى أن يقلع المرابى عن امتصاص أموال الكادحين . ولو وقف التائب عند هذا الحد .. لما تركه شياطين الإنس والجن .. وسوف يلاحقونه بالوسوسة فى محاولة لإغرائه مرة أخرى .. وربما سقط فى حمأة الرذيلة مرة أخرى .. لا سيما وهو منها قريب .

لقد ذهبت « هند بنت عتبة » - فور إسلامها - إلى صنمها فحطمته بيديها قائلة : لقد كنا معك فى غرور ! ثم بدأت رحلتها المباركة ..

وكسر « عمرو بن الجموح » صنمه بيده أيضاً ساخراً منه . ساخطاً عليه . ثم بدأ يلح على رسول الله ﷺ ليوافق على اشتراكه - رغم عرجه مع المسلمين فى غزوة أحد ..

أى أن الوجود الذى كان مرصوداً لخدمة الباطل .. ينهض اليوم ليقف إلى جانب الحق فى حركة بانية هادية .

وهذا هو التغيير المنشود .

يبدأ بحركة نفسية يغير بها الإنسان خلقاً آخر . طبق سنة الدعوة فى التدرج من نقطة الصفر .. حتى يتبوأ المدعو مكانه اللائق .

أخرج البخارى ، عن عائشة قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه - أى القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار . حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام . نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شئ لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل لاتزنوا لقالوا : لا ندع الزنا أبداً » [(١)] .

* * *

(١) صحيح البخارى : كتاب « فضائل القرآن » .

من خصائص المنهج النبوى
فى تغيير المنكر

تمهيد :

من حكمة اللّه تعالى اختلاف الألسنة والأمزجة والألوان .

ومن توفيقه تعالى أن يجئ تعاملنا مع هذه الطبائع المختلفة بما يناسب كل مزاج تناسباً يحقق ما نرجوه من هداية الناس .

والمتأمل فى مناهج القرآن الكريم ، والسنة المطهرة يجد فيهما الحكمة البالغة قرار النفوس .

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة : (إن طبائع الناس متفاوتة ، ومشاربهم متباينة ، وأهواؤهم متضاربة ومسالكهم فى طلب الحق مختلفة .

فمنهم من يصدق بالبرهان ، ولا يرضيه إلا قياس تام أو ما يجرى مجراه ويسير فى طريقه ، وهؤلاء من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزعات الفلسفية ، وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه فى دراسات واسعة النطاق ، وعلوم سيطرت عليهم فسادهم التأمل الفلسفى والمنزع العلمى .

والمستقرى لأحوال الأمم . المتتبع لشئون الاجتماع يجد أن هذا الصنف من الناس قلة فى الكون الإنسانى وعدد محدود بالنسبة لغيرهم من بنى الإنسان إذ أن أكثر من فى الأرض قد انصرف إلى المهن المادية ، فما كان له وقت يزجيه فى تلك التأملات ، ولعل هذا هو الصنف الذى أمر اللّه نبيه أن يدعوه بالحكمة فى قوله تعالى :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [1] الآية ، ومنهم من غلب عليه مذهب دينى قد استأثر بلبه ، وسيطر على هواء وسد مسامع الإدراك فى قلبه إذ

---

(١) النحل : ١٢٥

استولت عليه نحلة مذهبية ، فتعصب لها والتعصب يعمى ويصم ، ويجعل النفس لاتكاد تسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة إذ أن ذلك لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس ، وأدواء النفوس أعسر علاجاً وأعز دواء من علاج الأجسام ، وهؤلاء لابد لهم من طرق جدلية تزيل ما لبس الحق عليهم ، ويتخذ الحق بها قوة مما يعتقدون ، إذ يلزمهم بما عندهم ، ويقيهم بما بين أيديهم ، ويتخذ مما يعرفون وسيلة لقبول ما يرفضون ، وهذا الصنف من الناس وإن كان أكثر عدداً من الأول إلا أنه ليس الجمهور الأعظم ، ولا الكثرة الغالبة بين الناس ولعله الصنف الذى أمرنا اللّه سبحانه وتعالى بمجادلته بالتى هى أحسن فى الآية الكريمة الآنفة الذكر .

أما الجمهور الأعظم من الناس فليس هؤلاء ولا أولئك ، بل هو فى تفكيره أقرب إلى الفطرة ، فيه سلامتها وفيه سذاجتها ، فيه حسنها وجمالها وفيه اخلاصها وبراءتها وهو لا يخاطب بتعقيد المنطق ، ولا بتفكير الفلاسفة ، ولا بما يرضى المتفكرين تفكراً علمياً ، بل يليق به ما التقى فيه الحق بالتأثير الوجدانى ، وما اختلطت فيه الحقائق بطرق إثارة الأهواء والميول ، وما التقت فيه سياسة الحق بسياسة البيان ، وليس ذلك إلا بالأسلوب الخطابى ، أو ما يقرب منه .

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التى جاءت للكافة ، وبعث بها النبى ﷺ للناس جميعاً بشيراً ونذيراً من غير أن تقصر دعوته على قبيل ولا أن تخص شريعته بجيل ، بل بعث للأحمر والأسود إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، لذلك وجب أن يكون القرآن الكريم وهو حجته الكبرى كما علمت ، فيه من الأدلة والمناهج العقلية مايقنع الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم ، وتبيان أفهامهم وتفاوت مداركهم ، ووجب أن يكون أسلوبه الفكرى والبيانى بحيث لا يعلو على مدارك طائفة ، ولا ينزل عن مدارك أخرى ولا يرضى طائفة دون أخرى بل يصل إلى مدارك الجميع يجد فيه المثقف بغيته ، والفيلسوف طلبته ، والعامة من سواد الشعب غايتهم وكذلك سلك القرآن الكريم : فالمتدبر لآياته . والمتفكر فى مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل . وينبة الغافل . ويرضى نهمة العالم [1] .

---

(١) تاريخ الجدل ٦٠/٦١.

من سمات المنهج النبوى :

أحياناً .. كان ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بأجوبة مختلفة . مراعاة لظروف السائل نفسه .. وتقاليد الحياة فى جماعته التى قد تتفشى فيها رذيلة معينة تقتضى التركيز عليها دون غيرها .

وهكذا اختلفت طرائقه ﷺ .. بحيث كان لكل حالة ما يناسبها من الحكمة الكاشفة أمام المذنب طريق العودة إلى الله . وكان لكل معصية .. ولكل عاص دواؤه الذى لا دواء سواه .

ولابد من أن يدخل الداعية - المتأسى برسول الله - فى حسابه حال المدعو :

أمسلم هو ؟ .

وإذا لم يكن مسلماً .. فهل هو مشرك أم كتابى ؟ .

وقبل ذلك : ما هى العوامل التى تدفعه ليقف من الدعوة موقف المعاند ؟

هل هى أمور شخصية ؟ .

أم هى مواريث ثقافية صنعت مزاجه ؟

أم مجرد ممارسة حياة رتيبة يحياها بخيرها وشرها انسياقاً مع مجتمعه . دون أن يكون فى ذهنه تصور واضح عن الإسلام ؟

أم أن المدعو واقع تحت تأثير دعاية مضادة شوهت فى ذهنه صورة الإسلام ؟

ثم ما هو وضعه الاجتماعى فى قبيلته ؟

وهل تشكل قبيلته قوة اقتصادية يمكن أن تكون سلاحاً فى يد الدعوة ضد أعدائها .

فإذا حصلنا على إجابات شافية عن هذه الأسئلة بدأت الخطوة التالية بالعلاج المناسب .. المرتكز على قواعد أساسية منها :

١ - أن يبدأ العلاج من الداخل .

٢ - وعلى سنة التدرج .

٣ - بالموعظة المركزة فى اللحظة الحاسمة .

٤ – ولا بأس مع الموعظة من تقديم بعض المنافع المادية . أو التلويح بها .

٥ – ومن خلال ذلك كله .. تلعب القدوة الحسنة دورها فى التمكين للفضيلة :

(أ) ليتخذ العاصى قرار التوبة بنفسه .

(ب) أو على الأقل .. اسكاته واحراجه ، ثم تنحيته من طريق الدعوة إذا كان من المعاندين الصادين عن سبيل الله .

وفى سنة رسول الله ﷺ شواهد على ذلك كله .. تشكل فى النهاية منهجاً راشداً لمن أراد أن يتخذ إلى قلوب العصاة سبيلاً : إن التعامل مع المشرك يختلف عن التعامل مع الكتابى الذى يملك ثروة من المعارف ، إلى جانب قدرته على المحاجة والجدل بل والمراء .

ولعلنا ندرك كيف ربط الصحابة « ثمامة بن أثال » فى سارية المسجد من حيث جئ به مرغماً .

بينما لم يربط « عدى بن حاتم » لأنه جاء باختياره فلم يكن هناك داع للقيد .

وفيما يتعلق بالمسلم العاصى :

فإن السنة المطهرة تفرق بين مذنب فرض عليه الذنب فرضاً ، وهو يبحث عن الخلاص .

ومذنب آخر مرد على الذنب ، بل وتباهى به بين الناس .

وفى الصفحات التالية بيان كاشف لما نقول .

* * *

مع أهل الكتاب

باحثون عن الحق :

يحكى الحبر اليهودى « زيد بن سعنة » قصة إسلامه فيقول : « ما من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفته فى وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه وهما :

١ - يسبق حلمه جهله .

٢ - ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً .

وذات يوم حانت الفرصة ليعلم اتصافه ﷺ بهما :

شاهد رجلاً بدوياً يقول يا رسول الله :

لى نفر فى قرية « بنى فلان » حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغداً . فأسلموا .

وقد أصابتهم سنة « جدب » وأخشى أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوه طمعاً. فإن رأيت أن ترسل إليهم بشئ فعلت فنظر ﷺ إلى رجل إلى جانبه - اراه علياً - فقال : يا رسول الله ما بقى منه شئ .

وكانت فرصة لزيد بن سعنة الذى قال : فدنوت منه وقلت : يا محمد ، هل لك أن تبيعنى تمراً معلوماً إلى أجل معلوم ؟ قال : فباعنى . فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب فى تمرمعلوم إلى أجل كذا وكذا فأخذ ﷺ هذا الذهب . وأعطاه للرجل وقال له : إعدل عليهم وأغثهم .

قال زيد بن سعنة : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة .. خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فى نفر من أصحابه .

فلما صلى على الجنازة ، ودنا إلى الجدار ليجلس إليه . أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه . ونظرت إليه بوجه غليظ . وقلت له يامحمد : ألا تقضينى حقى ؟ فواللّه ما علمت بنى عبد المطلب إلا مطلاً . ولقد كنت لى بمخالطتكم علم .

ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير ، ثم رمانى ببصره وقال يا عدو اللّه : أتقول لرسول اللّه ﷺ ما أسمع . وتصنع به ما أرى ؟ فوالذى نفسى بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك . ورسول اللّه ﷺ ينظر إلى فى سكون وتؤدة فقال يا عمر : أنا وهو كنا فى حاجة إلى غير هذا : أن تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن الطلب .. اذهب به يا عمر فأعطه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما روعته .

قال زيد : فذهب بى عمر فأعطانى حقى ، وزادنى عشرين صاعاً من تمر ، فقلت : ما هذه الزيادة يا عمر ؟ قال : أمرنى رسول اللّه ﷺ أن أزيدك مكان ما روعتك ، قال: أو تعرفنى يا عمر ؟ قال : لا . قلت : أنا زيد بن سعنة ، قال : الحبر ؟ قلت : الحبر !! وقد خبرت فيه علامتين ووجدتهما ، فأشهدك يا عمر أنى قد رضيت باللّه رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وأشهدك أن شطر ما لى صدقة على بعض أمه محمد

فرجع عمر وزيد إلى رسول اللّه ﷺ ، فقال زيد : أشهد ألا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله ..

ولقد شاهد مع الرسول مشاهد كثيرة . ثم توفى فى « تبوك » مقبلاً غير مدبر [(١)] .

تمهيد :

كان بعض الفقهاء ينهض من فراشه ليلاً ويصفق ! وقبل أن تتهمه زوجه بالجنون يقول لها : لقد اهتديت إلى حكم شرعى فى مسألة تهم المسلمين !

وإذا سعد واجد الحكم الشرعى ، فكم تكون سعادة رجل وجد نفسه بعد ضياعها ؟ لاشك أن نصيبه من السرور أربى ..

وكذلك كان « زيد بن سعنة » رضى اللّه عنه ، والذى يحكى قصة إسلامه كما يحكى الذى برئ من علته ما لاقاه من عناء فى مرضه .

---

(١) رواه الطبرانى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وغيرهم .

فإذا كان المرض ، مرض نفس تصح اليوم ، فلا شك أن الحديث عن ذكريات علته يكون ممتعاً .

من هو زيد ؟

إنه حبر من أحبار اليهود : طالما كاد للإسلام كيداً ، وقعد للمسلمين كل مرصد مع رفاقه من الأحبار ، وعباد الوثن .

لكن تحولاً خطيراً يطرأ على حياته ، حين يوجه القدر الأعلى الرياح على مايشتهى السفن ..

لقد تحركت الرغبة فى قلب مركز من مراكز القوى المعادية ليضاف إلى رصيد الإسلام ..

بيد أن الرغبة لم تتجه إلى بطون الكتب تسائلها عن مدى صدق الرسول فى دعواه .. فقد تكفلت بذلك التوراة .

لكنه قرر أن يكون بحثه ميدانياً وعلى الطبيعة ، فيما يشبه الاختبار العملى :

فإذا ثبت حلمه أمام شدة الجهل فقد تمت كلمة الحق صدقاً وعدلاً .

ذلك بأن معرفة الرجال لا تتم عن طريق المراسلة !

وحين أراد « أبو ذر » رضى اللّه عنه أن يدخل فى الإسلام أرسل أخاه ليستطلع أمر محمد ، فلما عاد لم يشف غليله ، فقرر أ يتصل بالرسول شخصياً ليولد إيمانه قوياً ، وكذلك فعل « زيد بن سعنة » .

الأقدار تدبر للدعوة :

جاء الداعية البدوى يطلب معونة عاجله ، على مسمع من زيد .

وقد كان الداعية بدوياً ، لكنه كان ذكياً .

لقد أطمعهم حين أقنعهم بدين سيسعدون فى ظله ، ثم أدرك بحسه البصير قسوة النتائج لو لم يتحقق الفردوس الموعود !

وخاف على الذين دخلوا الإسلام طمعاً أن يستهويهم الرخاء على يد « مبشرين » آخرين يدعونهم إلى ملتهم بالطعام ، والدواء والكساء .

نفد البند !

لكن بند الدعوة كان قد نفد .

وكان هذا النفاد بداية الفرج ، حين تقدم الحبر باقتراح أن يقدم للدولة قرضاً ، نظير صفقة عينية .

الرسول يقبل المساعدة :

ولا بأس أن تتقبل الدولة مساعدة أو قرضاً ما دامت لا تتهدد عقيدتها ونظامها .

وما دامت موقنة بقدرة مواردها على الوفاء مستقبلاً بوعدها ، فراراً من الوقوع فى مصيدة الاستعباد .

مع ملاحظة أنه عون فى أضيق الحدود .

فلم تستدن الدولة هنا لشراء كماليات ، وإنما استدانت لمصلحة النظام وتثبيت أركانه وحماية قبيلة يراد بقاؤها سنداً للإسلام .

القرض يوجه إلى ما خصص له :

ووضع القرض فى مكانه وبالطريقة التى تحقق الغرض منه :

أن يكون التوزيع عادلاً . وأن يكون سريعاً :

وإلا فإن صيرورة المعونة إلى غير مصرفها يذهب بها بدداً ، وتظل حاجة الأمة متجددة إلى مزيد من المعونات يتسع بها الخرق على الراقع .

ساعة الصفر :

وتبدو صعوبة الاختبار .. ويبدو أيضاً كيف ثبت الرسول بحلمه أمام شدة الجهل ، فكان الانتصار :

اقترب الرسول ﷺ من الجدار ليستريح ، وقبل أن يجلس : يهجم عليه زيد ، والرسول فى كوكبة من أصحابه .

ثم أخذ بمجامع ثيابه .

رماه بملامح غاضبة .

ناداه باسمه المجرد : يا محمد .

منكراً عليه تباطأه فى قضاء دينه .

مؤكداً بالقسم أن مماطلته تحدرت من عشيرته إليه ، والتى لمسها عن خبرة وتجربة لا عن سماع !؟

فإذا علمت أن زيداً تعمد أن يجئ قبل حلول الأجل بأيام علمت كيف حبك الرجل خطته ليبلغ الجهل منتهاه ، ثم لينظر ما يسفر عنه الامتحان .

الحكمة تنهى الأزمة :

سكت ﷺ ، إلا أن عمر من بين الصحاب غلا قلبه كالقدر ، ورمى زيداً بنظرة كأنها السهم مهدداً بقتله لولا مخافة أن يخسر بقتله حب الرسول .

وكان المتوقع أن يعنف الحبر من قبل الرسول ، لكن العتاب اتجه إلى عمر :

لقد أحسن الحبر ابتداء حين أقرضنا .

لكنه بسوء تصرفه أضاع فضل الابتداء ، وحاجته ماسة إلى موعظة لا إلى سيف ؟!

وقبل ذلك : ما كان أحرى عمر أن يتجه بالأمر إلى من اقترض أولاً وقبل أن يسدد سهمه إلى زيد ، ثم ، هل المطلوب أن تسحق عدوك ، أم تقومه ليكون معك ؟

إنه شر يراد توجيهه إلى الخير .

ألا وإن مغالبة الشر بالحكمة يحوله إلى خير ، كما يتحول الفحم بطول الاختزان فى باطن الأرض إلى ماس غالى الثمن .

إن سيف عمر مطلوب ، ولكن على جبهة القتال ، أما هنا فالحكمة تأخذ بزمام الموقف تدعيماً للدعوة ، وتوجيها للرجل كى يمضى معنا إلى حيث نسير .

لحظة المخاض :

وقف الحبر اليهودى مأخوذاً بموقف .. يحتفظ له بحقه .. وبعد ما فعل .. بينما يعود عمر بلوم رسول الله ﷺ .. كل ذلك وهو وحده يواجه الدولة كلها !

إنها إذن لحظة الميلاد الجديد .

لقد [1] وجد السكان اليهود فى مستعمرة قريبة من « بئر سبع » انذاراً إلى امرأة يهودية تدعى « شوشانا » وإلى زوجها بمغادرة المنطقة بأسرع وقت وإلا أحرقت الأسرة كلها .

وذلك بسبب أنها أنجبت طفلاً وسمته محمداً !

وهكذا تهدد أسرة بالإحراق لمجرد أن سمت ولدها محمداً .. لكن زيداً يفعل فعلته .. ويمسك بخناق رئيس الدولة وفى عقر داره . ثم لا يسقط حقه .. حتى اللحظة التى روع فيها من تهديد عمر لا تمر بدون ثمن تدفعه الدولة مع أنه هو الذى ساق إلى نفسه الترويع بسوء تصرفه !

وتأتى نتيجة الامتحان لصالح الرسول الذى حقق بحلمه جدارته بالنبوة !

عمر بالذات :

وكان من الممكن أن يصحب « زيداً » رجل غير عمر رضى الله عنه : ولكنه ﷺ يحقق العدل فى أسمى معانيه حين يكلف عمر بالذات .

والذى يتخلص من كل مشاعر العداء للرجل ولاء وطاعة لرسول الله ﷺ .. وليعلم الناس أن الحق أكبر دائماً .. وإلا فلو كان الحكم للهوى لكن للرجل مع عمر حساب آخر !

ميلاد الحقيقة :

وأسلم الحبر اليهودى .. وجب الإسلام ما قبله ..

كما جب إسلام عمر أيضاً ما قبله ..

وقدم « زيد بن سعنة » إلى رسول الله ﷺ أوراق اعتماده سفيراً للحق ..

لقد رأى زيد محمداً قبل ذلك .. إلا أنه رآه كما كان أبو جهل يراه : يتيم أبى طالب .

لكنه يراه اليوم رسولاً نبياً ..

---

(١) عن جريدة أخبار العالم الإسلامى صفر ١٤٠٧ هـ أكتوبر ١٩٨٦ م

وإذا كان لكل معرفة : حقيقة .. ومتعة .. وثمرة .. فقد هدى زيد إلى الحقيقة بعقله ..

واستمتع بها بقلبه ..

وكان من ثمراتها أن استشهد كما تقول وقائع السيرة فى غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر !

درس للدعاء [1] :

« إن السلوك الواعى المعبر عن مواقف أصيلة هو السلوك الذى يصل إلى غايته » ويكون له الاستمرار والدوام . بفضل عدم تحكم النزعات الفورية فيه . أو الإيماءات العشوائية . ولما فيه من قدرة على تغاضى صغائر الأمور وتوافهها .

إنه سلوك يترفع عن الشكليات والعفويات .

هذا السلوك الواعى هو الذى حثناً عليه ديننا الحنيف . وهو الذى جسده لنا رسولنا الكريمﷺ بسلوكه الشخصى فى عصر النبوة .

وهو الذى دعانا إلى اتباعه فى كل المناسبات .

وعلى شبابنا أن يتأمل ذلك ، وأن يتمثل المبادئ القرآنية فى سلوكه ، ويقتدى بالرسول ﷺ فى تطبيق هذا السلوك .

وكيف كان صلوات الله وسلامه عليه يقنن العلاقات بالمعايير الصحيحة الواعية ، ملتزماً بمواقف وأهداف سليمة أصيلة بعيدة عن العفويات ، ليس فقط فى علاقته مع من آمن به ، بل حتى مع عدوه ، منطلقاً من المبدأ القرآن السامى : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ [2] .

وليت شعرى إن الاسلام زيد وحده خير دليل على أحقية الإسلام بالاتباع ، ولطالما بيت الأحبار أمرهم بليل قائلين : آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ، بغية خلخلة الصف الإسلامى .

---

(١) من بحث للدكتور رشدى فكار .

(٢) النحل : ١٢٥

وها هو ذا اليوم واحد منهم يعلن إسلامه بلا تردد ، شاهداً بهذا الإسلام على كل زملائه بالزيف والضلال ، خارجاً بالحقيقة الإسلامية ناصعة بيضاء ، رغم أنف الأعداء .

استطراد [1] :

سيف عمر

عن سعيد بن المسيب قال : لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أيها الناس ، إنى علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلظه .

وذلك أنى كنت مع رسول الله ﷺ ، وكنت عبده وخادمه .

وكان كما قال الله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [2] ... فكنت بين يديه كالسيف المسلول ، إلا أن يغمدنى ، أو ينهانى عن أمر ، فأكف ، وإلا أقدمت على الناس لمكان لينة .

فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .

ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ بعده ، وكان كما قد علمتم فى كرمه ودعته ولينه .

فكنت خادمه كالسيف بين يديه ، أخلط شدتى بلينه . إلا أن يتقدم إلى ، فأكف ، وإلا أقدمت .

فلم أزل على ذلك حتى توفاه الله ، وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .

ثم صار أمركم إلى اليوم ، وأنا أعلم ، فسيقول قائل : كان يشتد علينا والأمر إلى غيره ، فكيف به إذ صار إليه ؟!

---

(١) ومع كونه استطراداً إلا أنه كاشف عن خصيصة من خصائص الدعوة التى تكاملت إذ جمعت بين الشدة واللين ، فحققت بهذا التكامل ما لا تحققه الشدة المحضة ولا اللين الخالص .

(٢) التوبة : ١٢٨

واعلموا أنكم لا تسألون عنى أحداً ، قد عرفتمونى ، وجربتمونى ، وعرفتم من سنة نبيكم ما عرفت ..

فاعلموا أن شدتى التى كنتم ترون ازدادت أضعافاً إذ صار الأمر إلى .. على الظالم ، والمعتدى ، والأخذ للمسلمين : لضعيفهم من قويهم وإنى بعد شدتى تلك .. واضع خدى بالأرض لأهل العفاف منكم والكف والتسليم .

وإنى لا آبى - إن كان بينى وبين أحد منكم شئ من أحكامكم - أن أمشى معه إلى من أحببتم منكم ، فلينظر فيما بينى وبينه أحد منكم .

فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى ، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واحضارى النصحية فيما ولانى الله من أمركم (١) .



(١) كنز العمال ١٤١٨٤ - ٥/٦٨١ رواه الحاكم مختصراً ١/١٢٤

إسلام عدى بن حاتم

كان عدى بن حاتم على طريق أبيه شهماً كريماً .. فكان هذا الشبل من ذاك الأسد .. ومن يشابه أبه فى الكرم .. فما ظلم ، ومن أخبار سخائه أنه ربما استعاره جار له قدور حاتم ، فيرسلها إليه ملأى ، فإذا تعجب المستعير قائلاً : أردناها فارغة .. أجابه عدى : إنا لا نعيرها فارغة !

وقد كان وجدانه من الحساسية إلى حد حمله على أن يفت الخبز بيده للنمل .. منطلقاً فى ذلك من مبدأ أخلاقى حين يقول : انهن جارات .. ولهن حقوق !

قصة إسلامه :

يقول عدى : « ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى » .. ولكن لماذا هذه الكراهية ؟

يجيب عدى « أما أنا فكنت أمرءا شريفاً ، وكنت أمرءا نصرانياً ، وكنت أسير فى قومى بالمرباع » أى : يأخذ ربع الغنائم لنفسه .

واحساساً منه بخطر الدين الجديد .. وحرصاً منه على واقعه ، نراه يحتاط فيأمر أحد رعاته : « أن يجهز له جمالاً سماناً ، تكون قريبة منه ، وأن ينذره إن اقترب جيش محمد ، ليستعد للهرب » .

وصح ما توقعه عدى : فقد دهمتهم خيل المسلمين .. ففر هارباً ، تاركاً أخته «سفانه » لتكون ضمن السبايا .

طلائع النور :

مر رسول الله ﷺ بالسبايا ، فنهضت إليه « سفانه » قائلة : يا رسول الله : هلك الوالد ، وغاب الوافد - الزائر - فامنن على من الله عليك .

قال : ومن وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم .

قال : الفار من الله ورسوله ؟

فلما كان من الغد قالت له مثلماً قالت بالأمس .. فلا تسمع جواباً . فلما رأته الثالثة يئست ، لولا أن أشار إليها على رضى الله عنه : أن قومى فكلميه .. فلما جددت رجاءها قال لها ﷺ ، قد فعلت .. وصدر قرار الافراج .

إنسانية الإسلام :

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه السطور تطالعنى صورة المرأة الفلسطينية الخارجة مع وليدها من أحد المخيمات شاحبة واهنة .. لقد ذاقت مرارة الجوع .. وما هو أمر من الجوع من الهوان المفروض عليها من رجال مسلمين موحدين ؟

ثم أعود إلى سفانة .. فماذا أرى : لقد دخلت دار الإسلام نصرانية .. ثم هى تعود اليوم إلى أهلها أيضاً .. نصرانية ؟

لم تفرض عليها العقيدة الإسلامية ، فما تفرض العقائد القوية بقوة السلاح ، إن الإسلام لا يريد عقيدة تفرض وجه النهار .. ليكفر بها آخره فتتزلزل البناء وتتخلخل الصف .

لكنه يريد عقيدة تبزغ فى قلب الإنسان لتستقر .. وتستمر ، وها هى ذي « سفانة » تخرج معززة مكرمة :

(أ) كساها . (ب) وأعد لها ركوباً إلى بلادها .

(جـ) وأعطاها نفقة تغنيها عن سؤال اللئام .. وذئاب الطريق .

عالمية الإسلام :

وقد حرص ﷺ على شرفها وعرضها أن ينال بسوء فقال لها : « لا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة ، حتى يبلغك إلى بلادك ، ثم آذنينى - أعلمينى » .

فلما وجدت من قومها أهل ثقة وبلاغ .. أذن لها بالعودة إلى بلادها .

إن للعرض - مهما اختلف الدين - قيمته التى يجب أن تصان .. هذا العرض الذى لا يوجد لمعناه نظير فى لغات العالم الأخرى .. إنها عالمية الدين الذى يظلل بنداوته وحفاوته كل العالمين ، وإذا لم يكن دين .. فهنا نخوة العروبة تحرس العرض وترعاه .

الحكمة تؤتى أكلها :

ولقد حققت المروءة الإسلامية غرضها حين عادت إلى أخيها عدى ، الذى سألها عن الرسول فقالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً .. فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذل عنده .. وأنت .. أنت !

لقد أضافت سفانه إلى فصاحتها وشجاعتها ، حكمة أظهرت بها كيف أثر فيها رسول الله ﷺ .. وإذا لم يظفر منها بالإسلام ، فقد ظفر منها بالاحترام .

هذا الاحترام الذى تحرك به ضمير أخيها ليجدد حياته .

طلائع النور

وجد عدى نفسه أمام رسول الله ﷺ فى المسجد .. فسأله من الرجل ؟ قال : عدى ابن حاتم ، وعلى الفور .. بدأت الخطة : انطلق به ﷺ .. وبنفسه .. إلى بيته ، فإذا امرأة فى الطريق ضعيفة .. كبيرة .. تستوقفه طويلاً .. تكلمه فى حاجتها .. فقال عدى : والله ما هذا بملك !

فلما دخل البيت النبوى فلم يجد من الأثاث الاوسادة من جلد محشوة ليفاً أجلسه الرسول عليها ، وجلس هو على الأرض .. وتأكد له أنه ليس بملك .. وسقط بالمشاهدة ما تزعمه الدعاية المغرضه المصورة محمداً بأنه يطلب الحكم .. فلما أخبره الرسول بديانته التى هو عليها .. وبالغنيمة التى كان يستأثر بربعها .. أقر « عدى » بأنه نبى يعلم ما يجهل !!

وعرف عدى .. فاعترف .

بذرة التوحيد :

وحين استعدت النفس لقبول الهدى ، بعد تخلصها من الأعشاب الطفيلية حان الوقت لبذر التوحيد فيها .

وذلك ما فعله ﷺ حين سأله : يا عدى بن حاتم : « ما أفرك » ! - ما الذى حملك على الفرار - أفرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل من إله إلا الله ؟ أفرك أن قال : الله أكبر ؟ فهل شئ هو أكبر من الله عز وجل ؟

حاجز الخوف :

لكن البذرة الطيبة لن تشق الأرض إلا إذا ذهب عنها حاجز الخوف .. إنه يخاف على المنصب .. وعلى المال .. على مستقبله كله .. وهنا يطمئنه ﷺ على مستقبله قائلا : « لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم .. فواللّه ليوشكن المال أن يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه .

ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم .. فواللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها . تزور هذا البيت لا تخاف .

ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم اللّه ليوشكن أن تسمع بالقصور من أرض بابل فتحت عليهم .

قال عدى : فأسلمت .

ويالها من سعادة يحياها « عدى » .. سعادته بخلاصه من ذله .. بخلاصه من نفسه .. وعودته طاهراً إلى ربه .



أهل الرئاسة

من هدى السنة فى مخاطبة المشركين والمنافقين :

قد تختلف المواقف مع اتحاد صورة المنكر ..

وقد تتطور صورة التغيير تبعاً لموقف المنحرف نفسه .. فتلين أحياناً .. وتشتد أخرى ..

روى مسلم بسنده عن ابن مسعود قال [1] : « بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت . وأبو جهل وأصحاب له جلوس . وقد نحرت جزور بالأمس . فقال أبو جهل : أيكم يقوم إلى سلا [2] جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد ؟ فانبعث أشقى القوم [3] فأخذه . فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه .. قال : فاستضحكوا . وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر » .

وهذا هو المنكر الذى تنادوا به فى حرب غير شريفة ولا متكافئة .. وأقسى ما فيها أن يستشعر الجبناء قدرتهم على النيل من الرسول ﷺ .. والتى عبروا عنها بما يلسع إحساس المؤمن الحر وهو : الاستضحاك .. والميل ..

ولكن .. ماذا فعل عبد الله بن مسعود وهو يرى المنكر .. بينما هو أعزل من كل سلاح ؟ بل ماذا فعل المسلمون جميعاً ؟

يقول بعد ذلك : « لو كنت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ ، والنبى ﷺ ساجد ما يرفع رأسه .

---

(١) صحيح مسلم ج ١٥١/١٢

(٢) السلا : اللفافة التى يكون فيها الولد فى بطن الناقة وسائر الحيوان .

(٣) هو عقبة بن أبى معيط .

حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهى جويرية ، فطرحته عنه . ثم أقبلت عليهم تشتمهم .

فلما قضى النبى ﷺ صلاته رفع صوته ، ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً ، وإذا سأل سأل ثلاثاً ، ثم قال : اللهم عليك بقريش .. ثلاث مرات .

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ..

ثم قال : اللهم عليك بأبى جهل بن هشام .. وعتبة بن ربيعة .. الحديث .

ونلاحظ أن ابن مسعود رضى اللّه عنه لم يكن يملك إلا التوجع والأسى يفيض به قلبه الحزين ..

ثم يعلل ذلك بأنه لا تقف من ورائه عصبة تحمى ظهره لو تدخل .. فسكت . فلما حانت له الفرصة بعد ذلك .. وفى غزوة بدر .. حين توفرت العصبة المؤمنة .. كان هو الذى اعتلى جثة أبى جهل وجز رأسه !!

أى أنه قاس المسافة بينه وبين أبى جهل ورفاقه فتصور فداحة الخسائر الناجمة عن العنف .. فتوقف إلى حين .. وكان القصاص فى بدر .

ويتطوع إنسان – لا يملك هو الآخر أن يتدخل – لإبلاغ فاطمة التى أسرعت بالمجئ ورفع الأذى عنه ﷺ .. ثم عززت ذلك بشتمهم ففعلت ما لم يفعله ابن مسعود ..

ذلك بأنها أنثى .. تشاهد والدها فى هذا الموقف الصعب .. ومن ثم فلا تملك ضبط مشاعرها ..

ولا يملك الرسول ﷺ حينئذ إلا الدعاء أمام :

(أ) فضلات الحيوان تلقى عليه .

(ب) وهو قائم يصلى .

(جـ) والقوم لا يكتفون .. بل يتضاحكون ..

(د) ثم تحميه ابنته .. والمفروض أن يحميها هو ..

وذلك أصعب ما فى الموقف ..

فلم يكن هناك بد من اللجوء إلى القوة الأعلى .. فى ضراعة وتذلل - واستجاب الله تعالى دعاءه .. وذلك قول الراوى : « لقد رأيت الذين سمى .. صرعى يوم بدر . ثم سحبوا إلى القليب .. قليب بدر » .

وهكذا .. وحين يكون الموقف أكبر من الكلام .. ومن التعليق يتكفل الحق سبحانه بحسم الموقف :

روى مسلم [1] : « اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً . فجاءته امرأة فقالت يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ..

لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث .. قال فأنزل الله عز وجل : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [2] .

وفى حديث مسلم [3] أن الرسول ﷺ : « أردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عبادة » ...

وذلك قبل وقعة بدر .. حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فيهم عبد الله بن أبى .

وفى المسجد عبد الله بن رواحة .

فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر [4] عبد الله بن أبى أنفه بردائه ثم قال : لاتغبروا علينا مجالسنا ..

فسلم عليهم رسول الله ﷺ ثم وقف .. فنزل فدعاهم إلى الله . وقرأ عليهم القرآن .

فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء لا أحسن من هذا إن كان ما تقول حقاً .. فلا تؤذنا فى مجالسنا وارجع إلى رحلك . فمن جاءك منا اقصص عليه .. فقال عبد الله ابن رواحه : اغشنا فى مجالسنا إنا نحب ذلك .

---

(١) الموضع السابق .
(٢) سورة الضحى .
(٣) ج ١٥٧/١٢
(٤) خمر : ستره .

قال : فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم [١] ، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة فقال : أى سعد : ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب « يريد عبد الله بن أبى » قال كذا وكذا .

قال - أى سعد - : اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الذى أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة [٢] أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة .

فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق [٣] بذلك . فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه النبى ﷺ .

وفى رواية [٤] أن عبد الله بن أبى قال للرسول ﷺ : « إليك عنى فوالله لقد آذانى نتن حمارك قال : فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك !!

قال : فغضب لكل واحد منهما أصحابه . قال : فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى وبالنعال . قال فبلغنا أنها نزلت فيهم : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ [٥] .

لقد حاول ابن أبى أن يفتعل معركة جانبية أوهم بها أنه أوذى بالغبار الذى أثاره الحمار ..

فلم يمكنه الداعية الأول من ذلك ..

ولم يجد إلا أن يطيع الله تعالى فى معاملة رجل عصى الله فيه .. وكفى به عقاباً أو عتاباً : فسلم عليهم .. ودعاهم إلى الله .. وذكرهم بالقرآن ..

ويبدو نجاح الرسول ﷺ فى إحراج الرجل الذى حاول أن يحسن منطقه فى مخاطبته ﷺ وأن تعمد الإساءة إليه حين ناداه : « أيها المرء » .. وهو يعلم من هو .. وحين حاول إلقاء ظلال من الشك على دعوته فى قوله : إن كان ما تقول حقاً .

ومن ثم فقد كان رد ابن رواحة ليناً : أغشنا فى مجالسنا .. فإنا نحب ذلك ..

---

(١) يسكنهم ويباعد بينهم . (٢) يريد : المدينة . (٣) أى حسد .
(٤) نفس الموضع . (٥) الحجرات .

فلما ثارت النفوس .. وتجاوزت حدود النقاش المسموح به هنا باعد الرسول بينهم ..

وقارن ذلك بما حدث فى الرواية الأخرى عندما قال ابن أبى .

لقد آذانى نتن حمارك .. لقد كان رد المسلمين خشنا على نفس المستوى .. أو يزيد ! وذلك فيما رد به الأنصارى عليه .

وإذا لم يشأ رسول الله ﷺ تصعيد الموقف .. فقد كانت شكاته إلى سعد بن عبادة تعبيراً عن أساه لما حدث ..

ولا بد من شكوى إلى ذى مروءة يسليـــك أو ينجيـــك أو يتوجع

وقد أسهم ابن عبادة فى تبيان دوافع التحرش لدى ابن أبى ، حيث كان يوشك أن يتوج ملكاً .. فنسخت الرسالة هذه الأمنية .. فكان ما كان .. فعفا عنه ﷺ .

وتأمل حين تغيب الحكمة عن الموقف .. وتتكفل الأيدى والنعال بالتعبير عن آراء الرجال .. إنها النهاية المؤسفة التى لا تحقق المناخ المناسب لاتخاذ القرار .. وهو ماحدث بالفعل فى هذه الجلسة الهادفة المطمئنة .. جلسة رسول الله ﷺ مع صاحبه : سعد بن عباده .

لقد أدرك ﷺ الموقف .. وطبيعة المنحرف هنا .. وما يملكه من وسائل التأثير والسلطان .. فكان لابد من إدخال ذلك كله فى الاعتبار .. لتتكيف الدعوة .. ويجئ الإنكار على نحو لا يفجر الموقف تفجيراً يلغى فرص التفاهم والتلاحم .

وهكذا دعوة كل ذى سلطان .. مهما كان .

إن صاحب السلطان الذى يفترض أن توفر له المهابة اللازمة لتسيير دفة الأمور .. إذا أردت دعوته إلى الخير . فعلى نور حديث الترمذى : « من أهان سلطان الله فى الأرض أهانه الله فى الأرض » .

وحديث الحاكم فى المستدرك : « من كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية .. » .

إن الدعوة إلى الله تتطلب : معرفة الحلال والحرام والمندوب والمباح ..

ثم الإحاطة بالطريقة المقنعة الحاملة على الالتزام من قبل المدعو .

ولو أننا بحثنا أسباب الإخفاق فى مجال الدعوة اليوم .. وتأملنا سر هذه المناوشات بين مخلص لم تتضح لديه الأحكام ، وبين أناس مخلصين أيضاً لم يعطوا حقهم من الرفق ..

لو تأملنا ذلك لوقفنا على السبب الحقيقى وراء هذا الإخفاق ..

لقد أسئ إلى الدعوة التى لم يعرف رجالها أحكامها ومستويات هذه الأحكام .. وتقطعت أسباب المودة بين المسلمين لأن بعض الدعاة لم يعرف بالحكمة كيف يقوى هذه الروابط .

• العلم بين الاستعمال والإهمال :

ولكن .. ما هو العلم المطلوب للنجاح فى الدعوة ؟

ليس هو العلم الذى يملأ الدماغ ..

ثم لا يرى نور الحياة .. ولا يوجه الأحياء ..

وليس هو الشهادة بالمرتبة الأولى ..

بينما القلب صفر من عواطف الخير ..

والصحيفة خالية من أعمال البر ..

قيل للمهلب بن أبى صفرة : بم نلت ما وصلت إليه ؟

قال : بالعلم .

فقيل له : ولكن غيرك أعلم منك ثم لم يصل إلى ما وصلت إليه .

قال : لقد حملت العلم .. واستعملته .. أما هم .. فحملوه ولم يستعملوه .

* * *

ثمامة بن أثال

(بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد . فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له : ثمامة بن اثال سيد أهل اليمامة .

فربطوه بسارية من سوارى المسجد .

فخرج إليه رسول اللّه ﷺ فقال :

ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال :

عندى يا محمد خير : إن تقتل تقتل ذا دم . وإن تنعم تنعم على شاكر . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول اللّه ﷺ .. حتى كان بعد الغد فقال :

ما عندك يا ثمامة ؟ فقال :

ما قلت لك :

إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإ كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول اللّه ﷺ . حتى كان من الغد فقال :

ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال :

عندى ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول اللّه ﷺ :

اطلقوا ثمامه .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل . ثم دخل المسجد فقال : أشهد ألا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

يا محمد :

والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى .

والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك . فأصبح دينك أحب دين الله كله إلى .

والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلى .

وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله ﷺ . وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت . فقال : لا . ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ .

ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول ﷺ) [1] .

الرغبة فى الإصلاح هى القاسم المشترك الأعظم فى قلوب المسلمين .. بحكم إسلامهم .

ويتحمل الدعاة إلى الله مسئولية التعبير عن هذه الرغبة طبق شرع الله تعالى . وسنة رسول الله ﷺ .. والتى نختار منها قصة إسلام « ثمامة بن أثال » كمثال ينسج الدعاة على منواله :

عاد فرسان المسلمين بثمامة (وكان سيد أهل اليمامه) أسيراً ثم ربطوه بسارية المسجد ..

وإذن « فهو صيد ثمين » !

وفرصة للدعوة تتحدث فيها عن نفسها !

● من الناحية الاجتماعية :

فهو زعيم قومه . ولو أسلم فسوف تعلن قبيلة بأسرها إسلامها ..

(١) رواه مسلم جـ ٨٧/١٢ وما بعدها .

• ومن الناحية الاقتصادية :

فاليمامة تمد قريشاً - أعداء الدعوة - بمعونات اقتصادية ، والحكمة قاضية بضبط النفس بغية قطع الطريق على أعداء الحق بضربة اقتصادية تشل حركتهم ..

• ومن الناحية النفسية :

فإن الرجل الأول فى الدولة ماذا كان ، وكيف أصبح !

كان بالأمس السيد المطاوع .. الرافل فى حلل النعيم ، وهو اليوم - بإعترافه فى الحديث الشريف - تحت رحمة رجل .. هو أبغض الرجال إليه ، وفى بلد .. هو أبغض البلاد إليه ، وفى حماية دين هو أبغض الأديان إليه . أى أن ضبابا من الأسى يلف الرجل فلا تكاد تصل إليه إلا بحكمة بالغة ، ولن يحقق العنف معه إلا عذاباً يضاف إلى عذاب ، بقدر ما يضيع فرص التفاهم والتجاوب .

وعلى أوفى ما تكون حكمة الدعاة - وتقديراً لهذه الظروف - يقترب منه ﷺ ثم يسأله سؤالاً واحداً : ما عندك يا ثمامة ؟! فقال : عندى خير . إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال ، فسل تعط منه ما شئت .

كان سؤاله ﷺ مفتاحاً لشخصية الرجل .. الذى أجاب بصدق عن مكنون نفسه ، فقتله يشفى صدور المؤمنين وتكريمه سيصادف نفساً شاكرة ذاكرة .. مستعدة لبذل المال فداء .

ولأن الموقف فى بدايته يفوح بالغضب ، والإنفعال .. ولأن فكرة « ثمامة » عن الرسول أنه يقتل أعداءه طبق ما تشيع وسائل الإعلام المغرضة ! فإنه يقدم احتمال القتل ، ويؤخر احتمال العفو ، فكان صادقاً حينئذ مع نفسه .. ولا يجيبه الرسول ﷺ .. وإنما : تركه حتى كان الغد ، وبعد أن بدت تباشير الحقيقة تظهر فى الأفق .

- إن الرسول لم يقتله .. كما هو المتوقع فى تقدير الأسير .

- كما أن الصحابة لم يسخروا منه .

- أو على الأقل لم يجرب معه واحد منهم أساليب التعذيب التى تفتت فيها قريش .

وتنبسط نفس ثمامة ، وتنقشع الغشاوة ، وتتحول المشاعر ، ولا يخرجه من دوامة الفكر إلا سؤاله ﷺ بنصه .

ما عندك يا ثمامة ؟!

ويختلف الجواب هذه المرة .. حين يجئ معبراً أصدق التعبير عن إرادة التغيير :

أجاب ثمامة :

ما قلت لك : إن تنعم تنعم على شاكر . ثم يقدم ذكر الإنعام بالحرية . ويؤخر احتمال القتل هذه المرة بعد أن انقشع عنه خوفه القديم .

وحين يسأله ﷺ فى اليوم الثالث :

ما عندك يا ثمامة ؟!

فإن الجواب يجئ مبشراً بالوصول إلى بر الأمان .

عندى ما قلت لك .

قالها ثمامة .. وهو يرقب الإفراج بعد لحظات ، حسب ما رأى وما سمع !

● الإيمان الحر :

ولقد كان من الممكن أن يطلب منه ﷺ إعلان إيمان وشيك الوقوع وهو يرسف فى القيد .

ولكنه يريد للإيمان أن يولد حراً ، ليبقى ويزيد !

فقال : اطلقوا ثمامة .

وعلى الفور ينطلق « ثمامة » فيغتسل .. ثم يعلن إسلامه بين يدى رسول اللّه ﷺ ومع طهارة الجسد بدت طهارة القلب من حقد مقيم حين قال : يا محمد : واللّه ما كان على وجه الأرض أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى . واللّه ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى . واللّه ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى .

ما سر هذا التحول العظيم فى حياة الرجل !

إنها الحكمة العليمة بطبائع النفوس وطبائع الأشياء .

فكان الإحسان الذاهب بأوهام النفوس ، وكانت الملاطفة العاطفة للقلوب فإذا هى بصيرة ترى الأشياء كما هى .

ولو أعجلت هذا الرجل ضربة سيف – وهو فى طريقه إلى الوصول – إذن ما كان أفدح الخسارة .. خسارة الدعوة ذاتها .

وعندما حاولت قريش قتله بسبب إيمانه بينما هو يعتمر تحداهم أن يفعلوا ، وتحداهم أن يعود إلى ضلالهم بعد أن هداه الله ، ثم أقسم ألا يمدهم ولو بحبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ .

وتحقق الحكمة النبوية انتصاراً آخر حين تستجدي قريش الرسول أن يتوسط لها لدى ثمامة حتى لا يقطع عنهم معونته !

وإنه لموقف يكسر الهيبة الغاربة ، دون ضربة سيف واحدة .. إن فى ذلك لذكرى لبعض الدعاة :

إن الرصاصة تسكت بها صوت خصمك .. ستجعله بطلاً .. وهو المبطل ! ألا وأن العنف هدم ، ومن ثم فلا يحتاج إلى دعاة ، وفى استطاعة طفل غرير أن يحيل الحياة إلى دم غزير !

إن الدعوة بناء .. ومن ثم فهى فى حاجة إلى بناة يرتفعون إلى أعلى ، بما يفرضه العلو من تضحية وصبر ، ومعناة تسعد بها الحياة .

* * *

وائل بن حجر

قال ابن مظفر [١] :

كان وائل بن حجر ملكاً مطاعاً .

وكان له صنم من العقيق الأحمر - يعبده ، ويحبه حباً شديداً .

ويكثر السجود له . ويعقر عنده العقائر .

وبينما هو نائم فى الظهيرة . إذ أيقظه صوت منكر . من المخدع الذى فيه الصنم .

فقام من مضجعه وأتاه . فسجد بين يديه وإذا قائل ينكر عليه عبوديته لصنم .. مذكراً إياه أنه لو كان عاقلاً . لأطاع أمره - أى صاحب الصوت - .

فقال وائل :

فرفعت رأسى . واستويت جالساً ، ثم قلت :

قد سمعت أيها الناصح . فبماذا تأمرنى !

قال : اذهب سريعاً .. إلى المدينة .

قال وائل : ثم خر الصنم لوجهه . وانكسر أنفه ، واندقت عنقه .

فقمت إليه فجعلته رفاتا .

ثم سرت مغذا - مسرعاً - حتى أتيت المدينة . وأتيت المسجد .

فلما رآنى رسول الله ﷺ - أدنانى - وبسط لى رداءه . فجلست عليه .

ثم صعد المنبر ، وأقامنى دونه ، ثم قال :

أيها الناس : هذا وائل بن حجر .. أتاكم من أرض بعيدة .. من حضرموت ؛ راغباً فى الإسلام .

---

(١) عن كتاب خير البشر ، بخير البشر . بتصرف لابن مظفر .

فقال وائل : يا رسول اللّه : بلغنى ظهورك ، وأنا فى ملك عظيم .

فمنّ اللّه على أن رفضت ذلك كله . وآثرت دين اللّه .

قال ، صدقت ، اللهم بارك فى وائل ، وولده ، وولد ولده .

فما لقينى أحد من أصحابه إلا قال لى :

بشرنا بك رسول اللّه ﷺ قبل قدومك بثلاث .

نحن أمام ملك ، يملك . ويحكم .

{ .. كان ملكاً مطاعاً }

فهو من الناحية السياسية حاكم يرتكز على قاعدة شعبية تأتمر بأمره .

ومن الناحية العقيدية : مشرك حتى النخاع !

فله صنمه الخاص به ..

والذى اختاره من العقيق ..

ومن العقيق الأحمر ..

ولقد بان من ولهه به أنه يحبه حباً حمله على كثرة السجود . ولاءله ..

ولا يكفيه السجود .. بل إنه ليذبح عنده الذبائح .. فى مهرجان معبراً عن مكنون شغفه به .

العنصر الإلهى :

بمقياس البشر : فإن احتمال إيمان رجل مثل وائل .. تحكمه تقاليد وأعراف .. ولايملك نفسه التى ذابت فى صنمه .. ولهاً به ..

نقول : بمقياس البشر : فإيمانه مستحيل !!

إلا أننا إذ نقرر ذلك .. نعتمد على جهودنا البشرية وحدها ..

تلك الجهود العاجزة أمام التحولات الخطيرة فى حياة الضالين ..

ومن ثم : نصرخ .. ونلعن الظروف .. ونكيل التهم للناس .

ولو أننا أخذنا فى اعتبارنا تدبير اللّه تعالى لدعوته ..

لما كان منا ذلك الصراخ .. وهذا اليأس ..

وهذا هو الدرس المستفاد من ذلك الموقف :

فقد دبر الحق تعالى للدعوة حين أسمع « وائلاً » ما أسمع ..

وحين خر الصنم بين يديه حطاماً .. مما حمل الرجل على تدمير البقية الباقية منه .. طواعية واختياراً .

إن رجلاً مثل « وائل » لم يكن لينفع معه الوعظ والإرشاد ..

وإنما هو فى حاجة إلى صدمة كهربية تنفض عنه الركام ..

ليأخذ سبيله إلى الهدى بهذه الصحوة المباركة .. بهذه المبادرة التى حطم بها الصنم تحطيماً .

انهيار خط الدفاع :

وحين يتحول الصنم رفاتا .. يكون قد سقط خط الدفاع الرئيس فى حياة الرجل .

وعندئذ تنطلق النفس إلى مطالع الهدى .. بلا رواسب من الماضى قد تحن إليها .

وكثير من الدعاة اليوم يصرخون لأنهم يأمرون فلا يستجاب لهم ..

ذلك بأنهم يركزون على الحكم .. ثم غابت عنهم الحكمة ..

الحكمة القاضية بإعانة العاصى على نفسه .. حتى تطهر أولاً .

وتتخلص من القيود التى تشل حركتها ..

فإن فعلنا .. نكن قد وصلنا به إلى بر الأمان .

إن فى كيان أفجر الناس عنصر الخير يرقد هنالك فى أعماقه ..

وكأنما هو فص من الماس .. لكنه بين الصخور .. صخور الشهوة والتقاليد .. وهو فقط يحتاج إلى اليد الصناع القادرة على الوصول إليه .. والتقاطه .. ثم وصله بالحياة .

خطة الداعية :

قامت خطة الدعوة هنا على تقدير ظروف الرجل الاجتماعية ، والدينية .. وما كان يتمتع به بالأمس من احترام قومه وخضوعهم .

بمعنى أن إسلامه إن لم يملأ الفراغ .. لما استطاعت العقيدة الجديدة أن تستقر فى قلبه ..

فالرجل جاء مسلماً .. وهذا حق ..

لكن من الذى يضمن بقاء إسلامه لو أنه وجد نفسه فى ظل الأوضاع الجديدة .. فرداً ضائعاً .. يدعو فلا يستجاب له .. ويأمر فلا يطاع !

لا بد إذن من « عملية إحلال » .. تملأ حياته حتى لا يحن إلى الماضى . لابد أن يشعر بأنه فى الإسلام .. ملك .. وإن لم يتوج ملكاً !

ولقد تم ذلك عن طريقين :

استقبال شعبى .

واستقبال رسمى .

أما الأول :

فقد ظهر فيما بشرهم به ﷺ قبل قدومه بثلاث ليال .

فكان « وائل » يمضى فى طريقه .. فيرى نفسه فى عيون الصحابة الذى ينتظرون قدومه فى يوم .. سيكون عيداً لهم جميعاً .. إذن .. فقد صارت المدينة له وطناً .. بين إخوة لم تلدهم أمه !

وإذن « فلم يحس باغتراب » لكنه يعيش بين الأصحاب .

الاستقبال الرسمى :

أما على المستوى الرسمى :

فقد استقبله الرسول ﷺ خير استقبال :

١ – استقبله بنفسه .. ولم يعهد به إلى مندوب عنه .

٢ - بسط له رداءه الشريف .. وبنفسه .

٣ - ثم قربه إليه .

٤ - وكان من الممكن أن يعلن عن قدوم « وائل » وهو إلى جانبه على الرداء .

ولكنه ﷺ .. يدعو إلى اجتماع طارئ .

٥ - ثم يعتلى المنبر لتنقل أجهزة الإعلام بيانه إلى الدنيا !

ثم ينوه بقدومه من أرض بعيدة متحملاً مشاق السفر .

٦ - وعندما أعلن وائل عما فى نفسه .. أهداه ﷺ وساماً عى صدره أغلى من كل وسام حين قال له :

صدقت !

ويالها من كلمة غالية ينطق بها صاحب الخلق العظيم !

٧ - وإذا كان وائل - بمقياس الدنيا - قد خسر ماضيه ، وما كان يحفل به من صور التعظيم .. فإن الرسول ﷺ يعوضه إذ يضع فى يده مفتاح مستقبله بهذه الدعوة الكريمة :

اللهم بارك فى وائل .. وولده ، وولد ولده .. وهكذا يجد وائل عن ماضيه خير عوض :

نهر جار من البركة يتحدر فى الأولاد والأحفاد .. وأين منها مظاهر كاذبة كان يتقلب فيها بالأمس فى قبيلته .

ودخل وائل فى الإسلام بالحكمة الهادية .. بالرؤية المستنيرة لأعماق المدعو .. والتقدير الكامل لظروفه .. فكان نصر الله والفتح .

قصة الحصين :

كان الحصين رجلاً تعظمه قريش ، فأرسلوه إلى الرسول ﷺ ، حتى ينتهى عن دعوته .

فلما جاء ، قال الرسول :

أوسعوا للشيخ !

فقال حصين : ما هذا الذى بلغنا عنك ، أنك تشتم آلهتنا ، وتذكرها !

فقال صلى اللّه عليه وسلم :

يا حصين : كم تعبد من إله !

قا ل: سبعة فى الأرض ، وواحد فى السماء .

قال : فإذا أصابك الضر ، فمن تدعو ؟

قال : الذى فى السماء .

قال : فإذا هلك المال ، فمن تدعو !

قال : الذى فى السماء .

قال : يستجيب لك وحده ، وتشرك معه !

أسلم .. تسلم .. فأسلم .

فقال ﷺ لأصحابه :

{ شيعوه إلى منزله }

إن الحصين زعيم فى قبلته .. وها هى ذى زعامته توضع موضع الاختبار .

وعلى الطرف الآخر كان رسول اللّه ﷺ يستعد لملاقاة الرجل بالترحيب .. والأمر بالتوسعة .. للشيخ .. وسقط بهذا الود حاجز من حواجز التربص .. فتح قلب الحصين ليستقبل بشائر الهدى .

وخيركم من يعرف للناس أقدارهم .

ولقد كان ﷺ أعرف بأقدار الرجال .. وأقدر على تطويعهم للحق ، بالكلمة الهادية والموقف الحكيم .

لقد جاء الحصين بمشاعر الزعيم المطاع فى قومه .. يطلب من رسول اللّه أن يكف عن البلاغ وكان لابد من إحباط خطته .

فإما أن يحرجه بالمنطق الحصيف .. حتى لا يفحش القول ..

وإما أن يعود محملاً بالهدايا اتقاء لشره .

وإما أن يحتويه الحق لحسابه .. وحينئذ فسوف يكون انتصاراً ساحقاً للإسلام .

وبدأت خطة الرسول الراشدة .. حين لم يمس عقيدة الرجل التى يعتز بها مساً مباشراً .

لكنه ﷺ بالحوار الهادئ الهادف .. كشف له الستار عن مدى التناقض الذى وقع فيه .. لأنه يسوى بين من يعطيه .. وما لا يعطيه ..

ولقد خاطبه باسم مصلحته الشخصية القاضية حتماً بإفراد المعطى بالعبادة .. كاشفاله عن مدى الخبل الذى وقع فيه حين يقدم ولاءه لمن لم يقدم إليه شيئاً ..

ولقد علم الرسول ﷺ ما لدى الرجل من طاقات لو حرم منها الأعداء .. ثم كانت لحساب الحق لكان ذلك نصراً مؤزراً ..

ولكن كيف ؟

بالكشف عن هذا التناقض الذى لمسه الرجل بنفسه ..

إن الكون جميل متناسق الأجزاء ..

فلو نجح الدعاة فى الكشف عن هذ التناسق .. لهدى إلى الحق خلق كثير .

وهذا ما فعله ﷺ .. والذى لم يفعل أكثر من تشخيص علة الرجل ثم سلط عليه أضواء الحق .. فلما قال له : أسلم .. استجاب ..

وكان الأمر النبوى الكريم بإبلاغ الرجل داره متوجاً بهذا التكريم .. كان هذا الأمر إرضاء لزعيم يودع اليوم مظاهر التكريم فى قبيلته .. ليجد عوضاً عنها فى صحبة رجال .. يعرفون أقدار الرجال .

* * *

طبيب النفوس

عن خوات أنه قال : نزلت مع رسول الله ﷺ بمر الظهران - واد قرب مكة - فخرجت من خبائى ، فإذا نسوة يتحدثن . فأعجبننى . فرجعت فأخرجت حلة عبيتى فلبستها . ثم جلست إليهن .

فمر رسول الله ﷺ . فهبته . فقلت : يا رسول الله .. جمل لى شرود وأنا أبتغى له قيداً !

فمضى رسول الله ﷺ . وتبعته . فألقى إلى رداءه . ثم دخل الأراك - موضع يعرفة فيه ماء - فقضى حاجته وتوضأ ، ثم جاء فقال : يا أبا عبد الله - ما فعل شراد جملك ؟ ثم ارتحلنا . فجعل لا يلحقنى إلا قال : السلام عليكم يا أبا عبد الله . ما فعل شرود جملك ؟! قال : فتعجلت المدينة . واجتنبت المسجد . ومجالسة رسول الله ، فلما طال ذلك على ، تحينت ساعة خلوة المسجد ، ثم أتيت المسجد ، فجعلت أصلى ، فخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره ، فجاء ، فصلى ركعتين خفيفتين ..

وطولت الصلاة رجاء أن يذهب ويدعنى ، فقال .. طول يا أبا عبد الله ماشئت ، فلست بقائم حتى تنصرف !! فقلت .. والله لأعتذرن إليه ، فانصرفت ، فقال : السلام عليكم يا أبا عبد الله .. ما فعل شراد الجمل ؟! فقلت .. والذى بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت ، فقال .. رحمك الله .. مرتين ، أو ثلاثا ، ثم أمسك عنى فلم يعد [١] .

تمهيد :

هكذا تقرر التجربة الإنسانية :

حين يخاطب الطبيب مريضة حالة اليأس بأسلوب الآمل فى رحمة الله .. رغم ماينطق به الواقع الصارم .. فإنه يقدم إليه أكبر نعمة .

---

(١) عن لسان العرب مادة شرد والحديث فى شرح الشفاء يذكر شارع الشفاء عن خوات من جبير أنه كان من الصحابة الكرام .

لأنه يمسك فى قلبه معانى : الرضا .. وترقب رحمة الله ..

وبذلك يتوفر للمريض جو إيمانى يستعيد به ثقته بربه والتى توشك أن تهرب أمام هجمة اليأس القاتلة .

إنه - بهذا الأسلوب - رغم صحة قراره الطبى علمياً - يعين المريض على تجديد ثقته بربه سبحانه وتعالى .

وهذا كسب أكبر من شفائه المرتقب .

وحينئذ فمن خطأ الطبيب مصارحة مريضه بأنه لا أمل فى الشفاء ..

لأن الطبيب :

أولاً : بشر يحكم بمقاييس البشر التى تضل وتنسى . وينسى أن هناك إرادة علياً فوق هذه المقاييس جميعاً : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ [(١)] .

إنها الإرادة التى أوجدت المرض .

وهى التى عرفتنا قوانين الصحة .

ثم هى القادرة على خرق هذه القوانين .. رغم أنف الطبيب !

وثانياً : فالطبيب بهذه المصارحة يحطم روح المقاومة فى نفسه تحطيماً يسلمه إلى يأس يقترب به من الصفر .

ولقد كان محمد ﷺ فى علاجه لموقف خوات بن جبير ذلك الطبيب الخبير بمسارب النفس .. وعللها .. ودوائها .. ومواطن القوة والضعف فيها .

وبهذه الحكمة البالغة أنتشل خوات من موجة يأس كادت لتقتله لولا أن تداركه رحمة رسول الله ﷺ .

وإذ يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه : لا تسكنن فى بلد ليس فيه فقيه .. ولاطبيب ..

---

(١) طه : ٥٢

فإن التعبير لكاشف عن حاجة الإنسان إلى طب الإيمان .. وطب الأبدان .. وحاجة الدعاة أيضاً إلى مزيد من تأمل أبعاد الحكمة النبوية فى مثل هذا الموقف .. تبصرة وذكرى .

وعندما قال له ربه سبحانه : ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة ﴾ (1) .

كان ذلك تذكيراً بضرورة أن يتوفر شرطها وهو تنزهها عن العنف والتسلط .

﴿ وما أنت عليك بجبار ﴾ (2) .

وكأنما يقول له سبحانه : وكما رباك الحق سبحانه بأحكم أساليب التربية وأدق صورها .. لا بد أن تكون مع الخلق كذلك : ملما بظروفهم . عالماً بأحوالهم واحتياجاتهم . لتؤتى الموعظة أكلها . وكذلك كان ﷺ مع خوات بن جبير .

العبر والعظات :

١ - دون أدنى حرج فإن « خوات » رضى الله عنه يحكى قصته هذه . على مافيها من ذكريات مرة ! ذلك بأن ذكريات العظماء لا تصبح ملكا لهم ، ولكنها تبقى من بعدهم معالم تهدى الحائرين .

بيد أن التوبة النصوح والتى توجها الرسول ﷺ بدعائه جعلت للذكرى مذاقاً آخر .. إنه الإحساس بالذنب يوماً :

الإحساس بمعركة دارت ساعة فى كيانه بين جند الرحمن .. وجند الشيطان .

ولقد حققت جند الشيطان نصراً جزئياً .. وتراجعت جنود الحق فى كيانه عندما ترجم إعجابه بصوت النسوة إلى عمل .. فجلس يستمتع بحديثهن !!

ثم إذا بقائده ﷺ .. يقترب منه .. ثم لا يعين جند الشيطان عليه .. وإنما يتسامح . ويتغاضى .. فأعانه على النهوض .. ثم كانت متعة الحديث عن لحظة من لحظات الانتصار .. بعد الانكسار !

٢ - وقبل أن نلوم الفتى على انصاته للحديث المغرى ..

وقبل أن ننتقل باللوم إلى شباب يعيشون نفس اللحظة اليوم .. فلنذكر : أولاً : ضعف النفس الإنسانية الداعي إلى التخفيف من حدة اللوم .

---

(١) النحل : ١٢٥ (٢) سورة ق : ٤٥

ولنذكر ثانياً : مسئولية أجهزة الإعلام التى تتملق الغرائز .. لا بالصوت وحده .. ولكن بالصورة .. والحركة .. واللحن .. إلى حد دعا شيخاً مهيباً [١] .

أن يقول لشباب ليبيا فى لقائهم معه [٢] : أنتم معذرون أيها الشباب .. فما تراه من عرى وتبرج من قبل الإيطاليات الملائلات المميلات يوشك أن يغرى شيخا بلغ الثمانين .. وعاش مع أكثر من زوجة !!

٣ - عقدت المفاجأة لسان « خوات » .. وعندما تكلم ضل لسانه عن طريق الحق .. فحاول تغليف رغبته الدفينة بحجة البحث عن قيد للجمل الشارد !

وكان من السهل عليه ﷺ أن يدرك الموقف بكل دقائقه .

إن « خوات » صحابى جليل .. له ماض يشرفه ، وحاضر يعتز به كل مسلم ، واليوم ، يوشك الجواد أن يسقط ، بل قد كبا بالفعل .

ثم هو خارج من التجربة الآن ، وصوت النسوة الذى أعجبه ما زال يرن فى أذنه ، والأصداء ما زالت تناوش نفسا أمارة بالسوء . وجيشان النفس بالندم .

كل ذلك حمل الرسول ﷺ على إرجاء العقاب إلى أن تضيع الأصداء فى واحة النسيان ، ويتضح الموقف بكل أبعاده ، وتستعد نفس خوات للحساب ، والحساب اليسير !

ويسر العتاب هنا واضح :

فهو يناديه ، يا أبا عبد الله ، تلطفاً منه ﷺ ، ثم هو لا يركز العتاب تركيزاً ، مخافة سقوط النفس تحت وطأته لو كان شديداً ، وإنما يعاتبه ، بل يذكره بلطف ، فى محاولة لإيقاظ النفس لتنهض رويداً رويداً .. نهوضاً لاسقوط بعده أبداً .

٥ - وآتت الحكمة النبوية ثمرتها عندما استيقظ حياء خوات بكل قوته ، فقرر الرحيل إلى المدينة مبكراً فراراً من عتاب يكاد ليدمره .

إن الواعظ هنا يعاتبه ، ولا يشهر به .

---

(١) الشيخ صالح السودانى الواعظ بالأزهر .

(٢) كان ذلك فى الستينات .

فيعود العاصى إلى الصف بدافع من الحياء وحده !

وكـــم مـــن حياء ردنى عن غوايتى حياء ، وكم جهر دعانى إلى الجهر

٦ - « إن العارف بطبائع النفوس البشرية يفرق بين جريمة المعصية من المؤمن ، وجريمة المعصية من الكافر .

فمعصية الكافر محاربة واستكبار لا يبقى معها فى القلب مثقال ذرة من خير .

ومعصية المؤمن لا يزال معها فى القلب نواة من الخير ، وبصيص من النور ولذلك يشعر - مع مطاوعته لهواه واندفاعه فى تيار الشهوة أو الغضب - بوخز الضمير ، والاعتراف بينه وبين نفسه بأنه ترك ما ينبغى وفعل ما لا ينبغى .

ومن هنا قال ﷺ فى الرجل الذى كان يدمن الشراب على عهده ، وكان يجلده كثيراً « لا تلعنوه فوالله إنه كان يحب الله ورسوله » [(١)] .

وتعليل ذلك أن ظلمة الهوى لا تطفئ فى قلب المؤمن نور الهدى ، وإنما تزاحمه وتغلبه . فيبقى ذابلاً ضعيفاً .

فمثل المؤمن حين يعصى كمثل رجل نهاه الطبيب عن طعام أو شراب خاص ، وهو يعلم صحة رأى الطبيب ، ويثق بنصحه له . وقد يعرف فى نفسه وخامة عاقبة التسرع بتناول الطعام الذى نهاه عنه .

ولكنه لا يجد صبراً على ذلك ، فتضعف إرادته عن مقاومة هواه .

ومثل الكافر يعصى كمثل ذلك الذى يعصى الطبيب متجهلاً مستهزئاً برأيه .

أترى أن الطبيب يعامل المريضين بنوع واحد من القسوة ؟

وينزلهما عنده فى منزلة واحدة ؟ من البغض والمقت ؟ أم هو يرثى لأحدهما ما لا يرثى للآخر [(٢)] .

إن كل ابن آدم مدرك حظه من الزنا لا محالة : فزنا العينين النظر ، وزنا اللسان المنطق .

---

(١) البخارى كتاب الحدود .

(٢) من كنوز السنة د/ محمد دراز ٦٥/٦٦

والحكمة قاضية بإدراك هذه الحقيقة الداعية إلى ضرورة الستر حفاظاً على بيئة الإسلام لتظل أبدا نظيفة تغرى غيرنا بالدخول فيها .

قال ابن هبيرة - الوزير العباسى - لبعض من يأمرون بالمعروف : (اجتهد أن تستر ، فإن ظهور معاصيهم عيب فى أهل الإسلام ، وأولى الأمور ستر العيوب) .

وكثير من الدعاة يتسرعون فيخلطون بين العاصى .. وبين المبتدع .. فيصبون جام غضبهم على كل عاص .. وعلى كل معصية .. بنفس القوة !

مع أنه يجب التفريق بين الاثنين حتى لا تكون صورة المعاملة واحدة :

« إن المذنب إنما ضرره على نفسه . وأما المبتدع فضرره على الناس ، وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة :

والمبتدع قد قعد للناس على صراط اللّه المستقيم يصدهم عنه ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك .

والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ والعاصى ليس كذلك .

والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصى بطئ السير »[١] .

وقد قيل بحق : إذا كان الاستهتار علاجه التشدد .

فإن لذلك التشدد آثاره الضارة والتى منها : نكوص البراعم الجديدة وفرارهم من الساحة التى تتقاضاهم البقاء فيها . قبل أن ينفرد بها المستهترون .

٧ - وكان تركيزه ﷺ على شراد الجمل ولم يخاطبه بالخطأ الذى تورط فيه نصا . وإنما فقط يذكره .. ولا يحرجه .

ولماذا يكشف له النقاب عن الخطأ وهو يقتله بين يديه حياء .. دفعه فى النهاية إلى تعجل دخول المدينة ومقاطعة المسجد فرارا من العتاب وإن بدا خفيفا !

مع أن صلاته فى المسجد .. ورؤيته للرسول ﷺ لا تعدلها كنوز الدنيا !

---

(١) الجواب الكافى لابن القيم ١٢٧

٨ - ويلاحظ مداعبته من قبله عليه الصلاة والسلام : « طول يا أبا عبد اللّه ما شئت .. فلست بقائم حتى تنصرف »!!

« وهو نداء يدل على صفاء الود ، ورقة المعاشرة ، والتواضع الجم من رسول اللّه ﷺ .

انه ينادى أصحابه بما يزيل كل الحواجز التى ينصبها الجبارون حول أنفسهم . فى محاولتهم فرض سلطانهم على الناس » .

ولهذا يسرع خوات ليعلن اعتذاره .. لينهى به جفوة ما كان ينبغى أن تدوم .

ولقد كان ﷺ على يقين من أن خوات لم يشرد جمله أبدا .. لم ينحرف منذ أسلم أبدا .

ولكنه الحوار الهادئ الهادف الواصل إلى أعماق الصحابى الجليل .

والذى ينتهى الآن .. حين كف الرسول عن عتابه بعد أن بلغ الدرس منتهاه فحقق فائدته توبة نصوحا . توجت برحمة تستنزل من السماء على قلب غفلت جنود الحق فيه يوما .

وقبل أن يسقط من أيديها السلاح .. صحا النائم .. ورأى النور .. فما أغفى !!

التجاوب مع ظروف العاصى :

فى تغييره ﷺ للمنكر .. كان يغضب أحيانا غضبا ترتعد له فرائص العاصى .

وقد يترجم عن هذا الغضب باللفظ القوى كما حدث مع ابن عمر حين رآه يلبس ثوبا مصبوغاً .. فأنكره .. فلما اقترح ابن عمر غسله .. قال بل احرقه !

وربما تدخل فأزال المنكر بيده فى حركة لا تدع فى قلب المذنب بقية من التعلق به .. كما نزع الخاتم الذهب من يد هذا الشاب . والذى رفض التقاط الخاتم والانتفاع به بعد أن طرحه رسول اللّه ﷺ .

ولكنه ﷺ فى تعامله مع المرأة كان رؤفا رحيما :

« مر النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر . فقال : اتقى اللّه واصبرى . قالت : إليك

عنى ! فإنك لم تصب بمصيبتى . ولم تعرفه . فقيل لها : إنه النبى ﷺ . فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين . فقالت : لم أعرفك . فقال ، إنما الصبر عند الصدمة الأولى » [١] .

• أبعاد المشهد :

امرأة .. فهى ضعيفة بحكم أنوثتها .. وقد استبد بها انفعال الحزن الذى ملك عليها كيانها ..

ثم هى إلى جانب القبر .. وكأنما تشم رائحة عزيزها .. وتفور دموعها فى موقف يفجرها تفجيرا ..

ولا شك أنه مات من قريب .. فأطياف حياته ما زالت تزدحم فى ذاكرتها .. فيغلبها البكاء .

وكان من الممكن أن يكون ذلك شافعا لها ليتجاوزها ﷺ مقدراً ظروفها .. فلا يعظها ..

ولكن ذلك لم ينسه واجبه ﷺ فى النصيحة .. فقد تكون المصيبة شديدة أنستها واجب الصبر .. وإذن فلا بد من التذكير انتشالا للمرأة من ظروف ضاغطة .. تغلبها على أمرها .

• معنى الموعظة :

لم يأمرها ﷺ بالصبر أولا .. فهى غير مستعدة فى غمرة حزنها الطاغى أن تتقبل الأمر بصبر هو فوق طاقتها .. بيد أنه أمرها أولا : بالتقوى : اتقى الله ..

ان الأمر بالتقوى يعنى : أنه صادر ممن يجب أن يطاع سبحانه وتعالى وليس صادرا من مجرد استياء من المشهد الحزين ..

حتى إذا أنست المرأة بالأمر بالتقوى .. لأنه فوق كا نزاع .. كانت مستعدة لتقبل الأمر بالصبر الذى هو ثمرة من ثمار هذه التقوى .

---

(١) البخارى كتاب الجنائز .

فكان ﷺ معينا للمذنب على طاعة الله .

إنه الداعى .. الخليق بأن يرفع فى يده علم الدعوة .. وأن يضع على صدره وسامها ..

وليس من هؤلاء الذين يضربون على الأيدى .. ولا يربتون على الأكتاف !

مقياس خاطئ :

وكان رد المرأة المحكومة بعاطفة مستبدة .. أن حاكمته ﷺ إلى مقياس خاطئ .. حين زعمت أن ما تفعله من البكاء والعويل شئ طبعى .. ولو أنه ﷺ أصيب بمثل ما أصيبت به لما وسعه إلا البكاء مثلها !

إزاء هذا الرد الغاضب .. سكت ﷺ .. ومضى لسبيله . ملتمسا لها العذر .. ولعلها تراجع نفسها بعد حين .. إلى جانب أن الإصرار هنا على تكرار الموعظة ربما حمل المرأة على قول ما هو أشد ، وإذا حرص ضابط الأمن على رتبته العسكرية أن تمزق حفاظا على هيبته . فأولى بالدعاة أن ينأوا بأنفسهم عن الإهانة .. ليظلوا فوق القمة متربعين !

ثم إنها امرأة .. عادية .. لا تشكل قدوة يتملاها الناس .. بالإضافة إلى أنها لا تعرفه .. ولو كانت تعرفه لكان هناك اجراء آخر .

• أبعاد الحكمة النبوية :

ويجئ موقفه ﷺ متسقا مع مبدئه القويم فى تربية المرأة التى خلقت من ضلع أعوج .. فلو ذهبت تقيمه لكسرته .. وإذن فالرفق بالقوارير أوفق بطبعهم !

ولقد حقق اللين هنا بعض نتائجه حتى من خلال المنطق الغاضب : فقولها : إليك عنى .. ليس فيه إمتناع عن قبول مبدأ التقوى والصبر .. ولكنها ظنت أن عظم المصيبة سبب كاف للبكاء .

إن المخطئ قد لا يشعر بخطئه أحيانا .. وهو مستعد للقبول لو علم .. وواجبنا أن نأخذ بيده .. وأن نحيى فى قلبه الإحساس بالخطأ لعله يرى الحق .. فيتبعه .

ولو كان محمد ﷺ إنسانا عاديا .. لما قبل منطق المرأة ذلك العنيف ..

فكيف به وهو رسول يوحى إليه ؟

ولكن الرسالة أعدته لما هو أهل له من العفو .

تقديراً للطبيعة الإنسانية بعامة .. ولظروف المرأة بخاصة .

• عنصر جديد :

كان الفضل ابن عم الرسول - كما تقول بعض الروايات - حاضرا فلم ينتصر لابن عمه لمجرد أنه رحمه .. ومن حقه أن يدافع عنه .

ولكنه تساءل أولا عما إذا كانت تعرفه ؟

فلما عرف الحقيقة أحاطها علما بشخصية المخاطب . لتتدارك ما فات ..

فالمهم هو الدعوة أولا .. وآخرا .. أما شخصية الداعى وما يصيبها من أذى فتلك هى مغارم الجهاد .. ولابد من أن نتحملها طائعين .

• الدرس البليغ :

أسرعت المرأة بعد أن ابتلعت أحزانها .. مدفوعة بخوف شديد .. لماذا ؟

لأنها لم تطع الرسول .. وكان ردها إلى جانب ذلك عنيفا .

فاعتذرت إليه ﷺ بأنها لم تعرفه .. ولو عرفته لأذعنت !

وكان جوابه ﷺ منصبا على الدعوة وما تتوخاه من إصلاح النفوس وإيمانا منه بالدعوة لم يجبها عن اعتذارها الذى يوشك أن ينسيها الموضوع الأساسى ..

وكان من الممكن أن يقول لها :

تعلمى الأدب .. بعد ذلك ..

تأكدى من شخصية من تكلمين أولا !

أو .. سامحتك هذه المرة !

ولكنه ركز على الصبر فقال :

إنما الصبر عند الصدمة الأولى [١] .

أى أن الصبر المعتبر هو الذى يكون فور وقوع المصيبة .. لا بعد قدمها ومداواة الأيام جراحاتها .

وفهمت المرأة الدرس .

لقد أضاعت بتصرفها وتسرعها ثوابا كان يمكن أن تفوز به لو أنها صبرت ، ولكن لا ننسى أنها لم تكن لتفهم الدرس .. إلا بمساعدة الداعية الأول ﷺ .. الذى ادخر هذه الموعظة .. فى نهاية المطاف .. وعندما هدأت أعصابها .. واستعدت للرؤية والتفاهم .

وإلا فلو أنه ﷺ شدد النكير عليها أولا بموعظة فى أعقاب الأخرى ، لوضعها بين شقى الرحى :

بين أحزان تغلى فى قلبها من الداخل .

وموعظة ضاغطة من الخارج .

فليفهم الدعاة الدرس .. قبل أن يهدموا بالعنف .. ما شيده الرسول العظيم .

الحكمة مستمرة :

ولا يعنى ذلك تدليل المرأة على حساب الحق ، فالحق أعز دائما .. ومتى دعت إلى الشدة ضرورة فهى الكى الذى يكون آخر الدواء .

ووضع اللين مكانه حينئذ يجافى الحكمة .

ووضع الندى فى موضع السيف .. مضر .

يقول الشاعر :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

---

(١) يقول بعض الباحثين (قبل وصول علم النفس إلى قوانين التذكر والنسيان بمئات السنين عبر ﷺ عن أحد هذه القوانين بقوله : إنما الصبر عند الصدمة الأولى .. ومعنى هذا : أن الصبر الذى يستحق الثواب هو : الثبات ومغالبة الحزن . والتغلب عليه وهو فى قمة سيطرته على الشعور عند أول الصدمة ، بخلاف ما بعد ذلك حيث يكون قانون السلوان قد أحدث أثره فى تخفيف حدة الحزن .

وحين أخذ على المسلمين - ظلما - أنهم رفعوا السلاح فى عراكهم مع الباطل كان الجواب على لسان شاعرهم :

قالوا غزوت ورسل اللّه ما بعثوا بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به ذرعا وإن تلقه بالجهل ينحسم

وفى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم موقفه ﷺ حين أمر رسوله إلى نسوة جعفر الباكايات أن يحثوا فى أفواههن التراب مما يظنه البعض خروجا على مقتضى الرفق بالنساء :

عن عائشة رضى اللّه عنها قالت :

لما جاء النبى ﷺ قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة .

جلس يعرف فيه الحزن . وأنا أنظر من صائر الباب .

فأتاه رجل فقال : إن نساء جعفر .. وذكر بكاءهن .

فأمره أن ينهاهن .

فذهب . ثم أتاه الثانية لم يطعنه .

فقال : انههن . فأتاه الثالثة قال : واللّه غلبننا يا رسول اللّه . فزعمت أنه قال : فاحث فى أفواههن التراب .

فقلت : أرغم اللّه أنفك . لم تفعل ما أمرك رسول اللّه ﷺ ، ولم تترك رسول اللّه من العناء [1] .

ويلاحظ هنا اختلاف الموقف مما استدعى الشدة فى نهاية المطاف .

(أ) فنسوة جعفر شعبة من بيت النبوة .. ومن ثم فهن قدوة فى باب الصبر .. وحساب تقصيرهن ينبغى أن يكون عسيراً .

---

(١) رواه البخارى : كتاب الجنائز .

(ب) كان المظنون أن يعظ النساء بعضهن البعض .. إلا أنهن تواصين بالعويل .. فتعقد الموقف .

(جـ) إذا كانت المرأة السابقة لا تعرف رسول الله . فكيف بنسوة جعفر ؟

(د) إذا جاز الحزن الصامت أو البكاء تحت ضغط المشاعر لحظة تلقى النبأ .. فما ينبغى أن يتحول إلى عويل وصياح على شهيد لم يمت .. ولكنه حى عند ربه سبحانه .

(هـ) على أن رميهن بالتراب أسهل من تماديهن فى معصية الرسول وما يترتب عليها من خطر على إيمان العاصى نفسه .

(و) وإذا تكررت محاولة الرسول ﷺ بإرسال الرجل أكثر من مرة رجاء إذعانهن .. فلم يكن بدمن القسوة الحازمة .. لتكون أبلغ فى الإنكار .. وأصدق فى التعبير عن الاستياء .

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا   فما حيلة المضطر إلا ركوبها !

* * *

الدواء من مكمن الداء

عن ابن عمر قال : أتى النبى ﷺ بسارق فقطعه . وكان غريبا لم يكن له أهل بالمدينة قطعه فى شدة البرد .

فقام رجل يقال له « فاتك » . فضرب عليه خيمة ، وأوقد له نويرة .

فخرج النبى ﷺ فى بعض الليل . فأبصر النار . فقال : ما هذه النار .

فقيل : يا رسول الله : المصاب الذى قطعته كان غريبا .. آواه « فاتك » وضرب عليه خيمة . وأوقد له نويرة .

فقال النبى ﷺ : اللهم اغفر لفاتك . كما آوى عبدك هذا المصاب (١) .

---

(١) أسد الغابة ط الشعب ٤١٩ - ص ٣٤٨

ربما كان شعور الاغتراب مانعا من مباشرة السرقة .. من حيث يحس الغريب بوحشة ووحدة تمسك اليد فلا تمتد إلى متاع الغير .. فى غيبة القريب الشافع .. أو الصديق المعين .

ولكن الرجل مع هذا .. قد سرق .

وسرق فى مجتمع الإيثار بالمدينة المنورة .. ولو أنه أفصح عن حاجته .. لوجد الذين يؤثرون على أنفسهم فى خدمته !

ولأعفى نفسه عن هذا الموقف الرهيب .

ومع أن الجو شديد البرودة .. فإن الرسول ﷺ يأمر بقطع يده .. فلا يمكن تحت أى ظرف من الظروف أن تعطل حدود الله .

وهو نفسه المعنى الذى نحسه من وراء الموقف حين لم يسجل الحديث الشريف كلمة شافعة .. أو عذراً بأنه غريب مثلا .. فى محاولة لتعطيل الحد .. أو تأجيله .. إن الكل مقتنع بإقامة الحد .. نتيجة طبعية .. وجزاء وفاقا .

وما كان للبيئة الصاحية والتى أتت بالسارق مقبوضا عليه إلى الحاكم لتتراجع أو تأخذها رأفة فى دين الله .. بل إن من صور الرأفة أن تسكت .. لتخلص السارق من عقدة الذنب أولا .. ولتكف آلاف الأيدى مستقبلا فلا تسير على نفس الطريق !

وبعد أن قام المجتمع المؤمن بدوره .. فقبض على السارق .. وخلص البيئة من هذا النشاز فى لحن متناسق .

وبعد أن قدم إلى المحاكمة فأخذ جزاءه .. فإن للمجتمع دورا آخر لا يقل خطراً عن سابقه :

أن يأخذ بيد هذا الجواد الذى كبا .. لينهض من جديد .. يستأنف حياة جديدة .

أن يمسح دموعه .. وجراحه .. فيزايله الأسى والألم ليستوى على سوقه سليما معافى .. ينضم إلى الطابور العامل .. وكان قبل يسير فى اتجاه معاكس .

وهذا هو ما فعله الفتى « فاتك » باسم المجتمع المسلم حين ضرب عليه خيمة ، وأوقد له نويرة » .

إن المجتمع الذى سلمه للحاكم أمس ، باسم الإسلام .. وبلا شفاعة .. هو نفسه الذى ينشر عليه – وباسم الإسلام – ظلال الرحمة .. يأسو جراحه .. ولو أنه قسا عليه .. ولو أنه ركز على بقية من ضمير فى كيانه لأماته قبل أن يموت !

وحين يخرج رسول اللّه ﷺ فى سجوة الليل يتفقد أحوال الرعية كاشفا عن حرص الحاكم الساهر على أمن الأمة .. يتساءل عن سر ما يرى فقيل له : المصاب .. الذى قطعته .

إنه « مصاب » إذن .

لم يقل المجيب : المجرم .. أو اللص مثلا :

فلا طائل من وراء هذا التشنج بعد أن أقيم حد اللّه !

ووسائل الإعلام تنهج هذا المنهج فتضفى على بعض اللصوص هالة المغامرة والبطولة .. فتشجعهم من حيث لا تحتسب على أن يكونوا عند حسن ظنها – ! – لصوصا تسلط عليهم الأضواء !!

ويتفادى الإسلام كل ذلك لينظر إلى العاصى كأنه : مصاب .. مريض يحتاج إلى علاج .. مزاج منحرف لو اعتدل .. لاعتدل به ميزان المجتمع . ويرسلها الرسول ﷺ دعوة مباركة :

« اللهم اغفر لقاتك كما آوى عبدك هذا المصاب » .

ولقد كان الذهن فى إنتظار أن تكون الدعوة للمذنب . عسى أن يغفر اللّه ذنبه .. لكننا نفاجأ بأن الدعوة لقاتك ، الذى آوى المصاب ! وكيف ؟!

إنها الرحمة المهداة فى ذاته ﷺ .. والذى دعته إلى طلب المغفرة جزاء موفوراً لهذا الذى أكرم العاصى بعد أن نال جزاءه .. إنه عمل طابت به نفسه الكريمة ﷺ .

فليست العقوبة فى الإسلام انتقاما يراد به التعذيب بقدر ما هى تأديب يستهدف التهذيب .. لتصح النفس .. وتصحو على صوت الحق يناديها لتمضى مع المؤمنين على الطريق المستقيم .

وربما كان الدعاء بالمغفرة لفاتك .. إشارة إلى مراجعة نفسه ليعلم أنه مع كونه لم يسرق - معرض للمعصية كأخيه المصاب !

ومن ثم فالرسول الكريم يطامن مشاعر الزهر التى يمكن أن تنبت فى النفس إزاء العصاة .. والتى يحس معها الإنسان أنه بنجوة من الذنب أبدا .. وأنه من طينة أخرى ومن شأنه ألا تذنب .

فإذا سمع الدعاء بالمغفرة .. طامن من هذه المشاعر فى نفسه .. وضاقت المسافة بينه وبين هذا المصاب - وأمكن بعد ذلك أن يتعايشا .. وأن يسيرا معا على الطريق من أجل البناء .

وبفتح المذنب عينيه ليرى صورة المجتمع المؤمن .. الحاكم .. والمحكوم .. كلهم .. كلهم .. يبسط ذراعيه .. فى حنان الأبوة .. ورحمة الأخوة .. المجتمع الذى قسا عليه قسوة فرضها الحزم .. وأقرها منهج الإصلاح .. ينشر عليه جناح الرحمة .. والأنس . ليبعث من جديد على نهج رشيد .. ولا شك أنه سينتفض كالعصفور بلله القطر . منتشيا منتفعا بالتجربة .. محلقا فى كل إتجاه .. عاملا من أجل أمة نفخت فيه روح الحياة .

ولم تكن عونا للشيطان عليه فى ساعة العسرة .. بيد أنها أخذت بيده إلى شاطئ الأمان .

ويبقى أن يعلم المكابرون المعارضون لتطبيق شرع الله .. أنهم لم يفهموا الإسلام حق فهمه .. يوم أن وقفوا ذلك الموقف .

ولو أنهم فهموه ما عارضوه .

* * *

عائد إلى الحق

روى مسلم عن يزيد بن صهيب أنه قال : كنت قد شغفنى رأى من رأى الخوارج ، فخرجنا فى عصابة ذوى عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس .

فمررنا على المدينة . فإذا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يحدث وإذا هو قد ذكر الجهميين – عصاة المؤمنين – فقلت يا صاحب رسول الله : ما هذا الذى تحدثوننا والله تعالى يقول : ﴿ إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ (٢) . فما هذا الذى تقول ؟ قال : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم . قال : فاقرأ ما قبله إنه لفى الكفار .

ثم قال : فهل سمعت بمقام محمد المحمود الذى يبعثه الله تعالى فيه ؟ قلت : نعم . قال : فإن مقام محمد المحمود الذى يخرج الله تعالى به من يخرج من النار . ثم وصف وضع الصراط ومر الناس عليه .

قال : فقلنا : أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ ؟

فرجعنا (والله ما خرج منا غير رجل واحد) .

تمهيد :

أراد أبو جعفر المنصور من مالك بن أنس رضى الله عنه أن يحمل الناس على ما فى الموطأ فلا يكون لهم مذهب سواه .

ورفض الإمام مالك هذه الفكرة احتراما منه للعقل الإنسانى الذى يجب أن يكون حرا فى بحثه عن الحق بالدليل .. فأنصف بذلك نفسه من التعصب لرأيه .. وأنصف غيره من نفسه حين ترك للآراء المختلفة أن تجادل وصولا إلى الحكم الفاصل فى موضوع النزاع .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٩٢ (٢) الحج : ٢٢

سنة الاختلاف :

ولا بأس أن يختلف الناس فى الآراء اختلافا ناشئا عن اختلاف الطبائع لتستمر الحياة .

يقول الجاحظ فى كتابه « رسائل الجاحظ » - « تحقيق السندوبى » .

(واعلم أن الله تعالى : إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم :

لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة .. وفى هذا ذهاب العيش . وبطلان المصلحة والبوار .

ثم يقول : ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الإختلاف سببا للاتفاق والائتلاف . لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلا . وواحداً حسنا وآخر قبيحاً .. وواحداً غنيا وآخر فقيرا ، وواحدا عاقلا وآخر مجنونا . وواحدا ذكيا وآخر غبيا ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها . ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها .

ثم يقول : (فسبحان من حبب إلى إنسان أن يسمى ابنه محمداً . وحبب إلى آخر أن يسميه شيطاناً .

وحبب إلى آخر أن يسميه عبد الله . وحبب إلى آخر أن يسميه حمارا ، والتجربة اليومية تقول : لولا اختلاف الأمزجة لبارت السلع) .

يزيد بن صهيب :

ويطالعنا الحديث الشريف بموقف شاب مسلم تعصب لمذهب معين تعصبا حمله على تدبير مؤامرة ضد مجتمعه المسلم فى موقف من أكرم مواقفه .. فى موسم الحج ..

وسر ان ما عاد إلى الحق بعد ما تبين له .. فكان العود حميدا طبق القاعدة القائلة :

الرجوع إلى الحق ، خير من التمادى فى الباطل .

وهو بهذا الفهم يكشف عن لون آخر مذموم من التعصب حين يثق الفرد بغيره ثقة عمياء .. فلا يعود إلى الحق وإن ظهرت دلائله .

لأنه لم يقتنع عن دليل حتى يقنعه دليل .

وإنما هو لون من عبادة الأشخاص ، غير منظور فيها إلى المبادئ التى يجب أن تكون هى القيمة العليا .

١ - لقدكان يزيد شابا غيورا على دينه . وفتن يوما بواحد من آراء الخوارج مع صحبه من المتحمسين مثله ،

وحملهم الحماس على ترجمة أفكارهم إلى عملية تخريب وتفريق لجماعة المسلمين فى الحج .

٢ - لكنه مع تعصبه فتح قلبه لآراء الآخرين .. حين دخل فى هذا الحوار مع جابر ابن عبد اللّه رضى اللّه عنه .

وأثبت بهذا الحوار صلاحيته كمسلم يبحث عن الحق فى مظانه . وليس هو بالرافض لكل رأى .

إن الختم على القلب معناه : أنه مضموم على فكر .. لا يخرج .

ومغلق .. فلا يفتح لمعنى آت من الخارج .

فمن أغلق على نفسه الباب ولم يستمع إلى الرأى الآخر يوشك أن يكون مختوم العقل والقلب معاً ..

ورفض يزيد بن صهيب أن يكون صورة مكررة أو نسخة مطبوعة !

٣- عندما اتجه إلى جابر رضياللّه عنه يسأل كان على غاية ما يكون الأدب الإسلامى ، وذلك قوله : يا صاحب رسول اللّه !

ثم بسط وجهة نظره مدعومة بالآيات القرآنية حسب فهمه ..

٤ - وبدأ الدور القيادى لصاحب رسول اللّه ﷺ وكان دوره خالياً من التعنيف والتجريح .

وإنما لفت نظره برفق ليقرأ الآية بسياقها قراءة تسلمه فى النهاية إلى المراد .

٥ - وفى عملية مراجعة للموقف تساءل يزيدمع رفاقه منكرين أن يكذب هذا الصحابى الجليل على رسول اللّه ..

ثم عادوا إلى الحق ، وحمى الله موسم الحج من حركة طائشة يوحى بها فهم ضيق . وثقافة ضحلة .

حاجتنا إلى الوعى والفقه :

لقد اختلف الصحابة رضوان الله عليهم . لكنه الخلاف الذى ينشد إحقاق الحق وإبطال الباطل .

وليس هو خلاف المتعصبين الناظرين إلى حظوظ النفس ، وبهرجة الشهرة .

وإذا كان قد بقى من جماعة « يزيد » واحد لم يقتنع بما سمع وظل خارجا عن الصف فلعله كان أفقرهم ثقافة ، وأكثرهم إحساسا بحظوظ نفسه . وما أكثر ما يتراجع هذا النموذج إذا جد الجد . ودعا إلى التضحية داع .

إن أشد الناس حماسة واندفاعا وتهوراً ، قد يكونون هم أشد الناس جزعا وإنهيارا وهزيمة عندما يجد الجد . وتقع الواقعة .

بل إن هذه قد تكون القاعدة ..

ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبا ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عن شجاعة واحتمال وإصرار .

كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال فتدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل دون تقدير لتكاليف الحركة إذا ووجهوا بهذه التكاليف فكانت أكثر مما قدروا . وأشق مما تصوروا . فكانوا أول الصف نكولا وجزعا وانهياراً على حين يثبت أولئك الذين يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت . ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة . ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته .

والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافا ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور .

وفى المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالا . وأى الفريقين أبعد نظراً كذلك » (١)

---

(١) فى ظلال القرآن – تفسير قوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس ﴾ .

مثال :

عن على كرم الله وجهة قال : (بعث رسول الله ﷺ سرية . واستعمل عليهم رجلا من الأنصار ، فلما خرجوا وجد - غضب - عليهم فى شئ . قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعونى ! قالوا : بلى : قال : فاجمعوا حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها !! قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار . فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها . قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ ، فأخبروه . فقال لهم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً . وإنما الطاعة فى المعروف [١] .

لقد رفض ﷺ هذه الطاعة العمياء ، داعياً فى نفس الوقت إلى الفهم الرشيد للمواقف والأحكام وصولا إلى الحق المنشود .

ونحن مطالبون بالانتفاع بهذه الآراء المشتجرة ، بدل استثمارها لتوسيع الخلاف .

يقول الشيخ محمد الغزالى : « أنتفع من تراث أبى حامد الغزالى صاحب « تهافت الفلاسفة » ، كما انتفع من تراث خصمه « ابن رشد » صاحب « تهافت التهافت » .

وإذا كان الغزالى يحمل دماغ فيلسوف وابن تيمية يحمل رأس فقيه .. فإنى أعتبر تلميذاً لمدرسة الفلسفة والفقه معاً » .

ثم يقول : « المدرسة التى أعتبر نفسى رائداً فيها أو ممهداً لها تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية ، والمذاهب الفقهية فى التاريخ الإسلامى .

كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية فى علوم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتشريع . وتزن هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسنة .

إن الرؤية الصحيحة لأحكام الشريعة . أو الحكم الصائب الذى ينبغى تقريره لا يتم إلا مع رحابة الأفق ، ووجود خلفية عظيمة من المعرفة القديمة والحديثة على السواء .. وربما كان أسلافنا القدامى قد رزقوا من سلامة الفطرة وحدة الذكاء ما يجعلهم قادرين على حسن الفهم والحكم .

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين ورواه الإمام أحمد .

ولكننا فى هذا العصر لا نصل إلى مستواهم إلا بعد دراسات مضاعفة كما يستعين صاحب النظر القصير بالمناظرة المقربة حتى يعرف ما يقرأ أو حتى يدرك من بعيد ما لا يستطيع رؤيته بالعين المجردة .

« طفولتى كانت عادية ليس فيها شئ مثير وإن كان يميزها حب القراءة فقد كنت أقرأ أى شئ .

ولم يكن هناك علم معين يغلب على ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك ، وأقرأ وأنا أتناول الطعام » .

وعقلية غير مثقفة لا تتماسك فيها صور الحياة بنسب مضبوطة .

« وفي رأيه : أن الفقر الثقافى .. نوع من فقر الدم .. ولا بد من قراءة مستوعبة لمختلف الثقافات بمنازعها المتشابكة المتفاوتة لنعرف الحياة والمؤثرات فى جوانبها المتعددة ، بعض الناس يحرم .. دون أن يختط لهم طريقاً جديداً ..

وهناك دعاة يعيشون الماضى : يهاجمون المعتزلة وغيرهم من الفرق .. ناسين أن أعداء اليوم من طراز آخر ويحتاجون منا إلى مواجهة .

ولنا فى موقف يزيد عبر : فعندما أغلق حسه ونفسه على رأى واحد ، فسد حكمه على الناس والأحداث .. لأن النظرة الجزئية تستتبع حكما جزئيا ..

ولما فتحهما على الرأى الآخر اتسعت ثقافته .. وصدقت رؤيته وأعانه الوعى الجديد على تفهم أفضل .. فكانت عودته المباركة مع رفاقه إلى الحق الذى سعد بهم شباباً يرصدون ثقافتهم للبناء لا للهدم .. للحوار الهادف لا للمراء المبطل . ولقد وعى - يزيد - مع صحبته الدرس جيدا :

فلم يكن يكفيه أن يحفظ القرآن الكريم يدعم بآياته فكرته ليزعم أنه صار داعية . وأهم من ذلك أن يجالس أهل الذكر ليفهم القرآن الكريم ويحسن الاستشهاد به .. وليكون هذا الفهم وعياً مستبصراً يقف حارساً يقظاً .. حتى لا تتحالف النفس مع الشيطان في لحظة من لحظات ضعفها ..فيفسق عن أمر ربه ..

إن الوعى بحقائق الدين .. ومواقف الدعاة .. ومسارب النفس الإنسانية .. وسنن

اللّه فى الاجتماع .. كل أولئك يزود الداعية بحواس من داخله لا يتمتع بها غيره .

وإنها لتتيح له تصوراً أشمل .. ومن ثم تتيح له حكما أصدق وأكمل .

وبعد :

فقد أوصى رجل ابنه فقال له : يا بنى ، إن كنت فى قوم . فلا تعجل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم . ولا تتكبر عن متابعتهم إذا ظهر لك الحق فإن المتابعة على الصواب ، أحسن من الابتداء بالخطأ - واعلم يا بنى أن إصابتك الرأى بعد خطأ القوم، أحمد لك من إصابتك قبل كلامهم . فإنه لا يعرف فضل رأيك على غيره ، إلا بعد المعرفة بما عندهم ، فعند ذلك يستبين القول السديد من السفيه ، والرأى الرشيد من الكريه - ومن استقل وجوه الآراء ، علم مواضع الخطأ .

* * *

أعداء المروءة

قلت للفتى الغارق بمجموعته فى أصول الحكم .. والذى استعار عيوب الخلق ليوزعها على حكام المسلمين .. الأحياء منهم والأموات ! ..

قلت له : النهر الجارى .. لا يحمل الخبث .

قد يحمل فى انسيابه بعض العكر .. لكنه يظل طاهراً .. مطهراً يروى غلة الظماء .. ويمنح الحياة من لدنه لحما طرياً .

وهذه الحقيقة فى عالم الأكوان .. تعبر عن أخت لها فى عالم الإنسان !

إن الإنسان - بحكم بشريته - خطاء .

وأخطاء العظماء منهم .. تبدو فى عيوننا كبيرة ..

بيد أننا نزنهم بأخطائهم .. وحسناتهم جميعاً ..

فإذا غمرت حسناتهم جوانب الحياة .. ومضت سيرتهم تمنح الحياة من لدنها عدلا .. وحنانا ..

فإن أخطاءهم اليسيرة لا تغير لون حياتهم .. ولا طعمها ولا ريحها .. وتظل عظمتهم تتقاضانا الإعتراف بها .. كأن خطأ لم يقع ..

لأن النهر الجارى .. لا يحمل الخبث !!

ولنا فى تاريخنا العظيم شواهد :

أتم عثمان رضى الله عنه الصلاة فى منى ..

وأمر بحرق المصاحف التى تخالف مصحفه المجمع عليه فراراً من الفتنة ..

ثم أمر بالإفراج عن الحكم بن العاص ، وعاد به إلى المدينة بعد أن أبعده الرسول ﷺ عنها..

وقد مضى به اجتهاده إلى تولية أهل ثقته من أقربائه بعض المناصب .. كل ذلك أثار حفيظة المعرضين فتألبوا عليه تألبا انتهى باستشهاده ..

وعلى فرض أنه - رضى اللّه عنه قد أخطأ - فإنه خطأ المجتهد الذى يحتفظ بحقه فى الثواب .. بل بمكانه العالى عند اللّه تعالى والذى شهد به ﷺ فى قوله لما تصدق عثمان . « ما ضر عثمان ما عمل بعدها » [1] .

أى أن عمله العظيم ذاهب بما يكون قد بدر منه من أخطاء فرضها الإجتهاد ..

وقصة الصحابى الجليل « حاطب بن أبى بلتعة » ليست ببعيدة .

لقد أرسل إلى قريش يعلمهم بنبأ تحرك الرسول لفتح مكة !

فأذاع بذلك سراً خطيراً ..

لماذا فعل الصحابى الجليل ذلك ؟

كان له بمكة أولاد وأموال .. ولم يكن من قريش أنفسهم .. وتحت ضغط غريزة الأبوة وغريزة التملك أراد أن يتقرب إلى قريش لتحفظ له صنيعه .. فأذاع سر رسول اللّه ! فماذا حدث ؟

برزت وجهة النظر المتشددة فى شخص عمر رضى اللّه عنه الذى قال : « دعنى أضرب عنق هذا المنافق » .

ولكن الرسول ﷺ فى تقديره للرجال لا يسقط من الحساب ماضياً حافلا بالأعمال العظام .. وعالج الموقف بالحكمة فسأل حاطبا :

« يا حاطب ، ما هذا ؟ قال : لا تعجل على : إنى كنت أمرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام .

فقال رسول اللّه ﷺ : « إنه صدقكم .. إنه شهد بدراً .. وما يدريك - يا عمر - لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [2] .

---

(١) رواه الحاكم .

(٢) مسند الإمام أحمد ١ / ٧٩ / ٨٠ .

وإذن .. فقد تساوى حاطب رضى الله عنه وإخوانه فى الإيمان .. لكن ظروفه العائلية والمالية فرضت عليه - مرغماً - أن يتصرف هكذاً .

ولما كان من المهاجرين ..

وممن شهد بدراً ..

فقد بقى كل ذلك شاهداً بصدقه شافعاً له .. ما حيا عنه ما بدر من خطأ فرضته ظروف ملحة ضاغطة .

وهل هناك خطأ أكبر من موقف حسان بن ثابت شاعر الرسول رضى الله عنه عندما خاض فى حديث الافك ؟

ولكن ماضيه فى الدفاع عن الدعوة بقى له شافعاً ..

وقد سبه عروة بن الزبير - ابن أخت عائشة - رضى الله عنها .

فقالت له خالته عائشة : « يابن أختى : دعه ، فقد كان ينافح عن رسول الله ﷺ » [1] .

أى أنها ماضية على سنة رسول الله ﷺ القاضية بمعرفة أقدار الرجال .

وقد صار ذلك قاعدة فى تعامل المسلمين .. صاغها ابن القيم فى قوله : « من قواعد الشرع والحكمة أيضاً : أن من كثرت حسناته ، وعظمت ، وكان له فى الإسلام ، تأثير ظاهر ، فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ، فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل ، فإنه لا يحتمل أدنى خبث » [2] .

وبعد : فقد سئل أحد العارفين : ما أعداء المروءة ؟

فقال : بنو عم السوء : إن رأوا حسنا ستروه ، وإن رأوا سيئاً أذاعوه » [3] ويوشك ذلك الفتى الغاضب .. الساعى وراء التهم يرمى بها الأبرياء .. يوشك بالاستمرار أن يكون عدوا .. للمروءة !

---

(١) صحيح مسلم ١٦٣/٧ (٢) مفتاح دار السعادة ٩٧٦/١ (٣) المرجع السابق .

وتبدو مسئولياتنا دقيقة اليوم :

فإن كلمة مغرضة قد تصنع موقفاً .. وتريق دماء .. وتورط المرء فى معصية ما كان يلقى لها بالا ..

لقد قال عبد الله بن عكيم لتلاميذه يوماً : « لا أعين على دم خليفة أبداً بعد عثمان » .

ولما كان القائل ورعا سئل فى دهشة : « يا أبا معبد : أو أعنت على دمه » .

قال : « إنى لأرى ذكر مساوئ الرجل عونا على دمه » [١] .

فليحذر الذين يخالفون عن أمر الحق ..

وليقولوها كلمة طيبة .. مباركة .. نمضى بها على درب الخلاص .. خلاص الدين من أدعيائه .. وخلاص الوطن من غاصبيه .



(١) رواه البخارى فى تاريخه الكبير ١ ق ١ / ٣٢

الفصل الرابع

المسلمون بين الواقع والمتوقع

كان المتوقع أن يكون المسلم عند حسن الظن به .. شاعراً بمسئوليته .. مؤدياً واجبه كناقد إجتماعى يقوم انحراف البيئة التى يعيش فيها .. ولها .. ولكن الواقع أنه لم يكن كذلك فى كثير من أحواله .

ويواجهنا اليوم سؤال يفرض نفسه :

ما سر السكوت عن منكر بان عواره .. من قبل مسلم .. يرى ذلك المنكر .. ويملك فى نفس الوقت وسائل إحباطه ؟ ووضع حد لمساره .. وتفشى آثاره وآصاره ؟

والجواب إجمالا : إن العقيدة لم تأخذ وضعها المستقر فى القلب .. فلم يكن لصاحبها إرادة ماضية تباشر مهمتها فى مجال النقد والتصحيح ..

وهكذا - وفى غيبة العقيدة - ينعقد اللسان .. فلا ينطق بالحق .. وتفتر الهمة .. فلا تتحرك فى اتجاه الإصلاح .. وتعجز الإرادة فلا تملك اتخاذ القرار !

ونجيب تفصيلا : هناك أمور تشل حركة المسلم فلا يكون عند مستوى مسئوليته جهراً بالحق ودفاعاً عنه .. داعياً كان أم مدعوا .. ومن هذه الأمور [1] :

١ - المداهنة :

فقد يرى المسلم ذا جاه يفسد فى الأرض .. فيسكت متجاهلا :

(أ) إرضاء لصاحب الجاه .

(ب) حرصاً على مكانته أو وظيفته .

---

(١) راجع فى هذا الموضوع : دعوة الإصلاح للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين .

(جـ) رغبة فى السلامة .. وإيثاراً للراحة .

(د) تطلعا إلى دنيا يصيبها .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لخف المصاب . ولكن المسرفين من أصحاب السلطان . على الجانب الآخر . لا يكفيهم سكوت الدائرين فى أفلاكهم .

إن الظلم الكبير يقود إلى ظلم أكبر .. والذنب الصغير يحمل على فعل الأعظم .. بالمتعة الحرام تغرى بالمزيد .. لا سيما والإيمان مخدر هناك فى زوايا القلب .. ومن ثم فأصحاب الجاه يطلبون من العلماء الساكتين عن الحق الموافقة على ما يفعلون من المنكر .. صراحة .. بحيث يصبح الشرك توحيداً .. والإسراف كرماً .. والتهور شجاعة . والجبن حكمة ! .. ويتم ذلك طبق خطة تخاطب النفوس بما تشتهى :

(أ) بالهدايا للواعظين الساكتين .

(ب) وقد يسأل الواعظ نفسه العطاء

(جـ) وتصبح اليد الآخذة أسيرة المعطى .. ولا بد من رد الجميل .. على حساب الحق طبعاً .

(د) ثم يكون الدعاء لولى النعمة ..

(هـ) ويصبح حضور العالم مجلس الأمير شرفاً يتوج هامته .

(و) ولا بأس من تأكيد حبه .. نفاقاً ورياء .

(ز) وتنتهى المأساة بالتستر على جرمه .. بل .. وتزكيته وإلباسه ثوب الحق ..

ثم ينفرد الظالمون بالساحة يتحركون فوقها .. بلا منازع .. بعد أن تم تخدير الديدبان!

ولهذه النهاية يخطط الجبارون من الحكام .

من أجل ذلك حرص العلماء المخلصون على نبذ المداهنة .. وقطع الطريق أمام أطماع النفس حتى لا تذل الرقاب ..

ومنهم الإمام الغزالى الذى واجه السلطان .. « سنجر » حاكم خراسان بقوله : « أسفاً !

إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية » [1] .

« قال عز الدين بن عبد السلام للملك نجم الدين أيوب فى مجلس حافل برجال الدولة : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟!

فقال : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم . الحانة الفلانية يباع فيها الخمور .. وغيرها من المنكرات . وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة . فقال : هذا .. أنا ما عملته .. هذا من زمان أبى . فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة .. فرسم الملك بإبطال تلك الحانة » [2] .

فانظر ماذا ترى ؟ ..

الملك فى عنفوان سطوته .. وأبهة سلطانه .. والمجلس حافل بكبار رجال الدولة الدائرين فى فلكه ..

كل ذلك لم يمنع الشيخ من قول كلمة الحق .. وأن ينادى الرجل الأول فى الدولة .. باسمه المجرد « يا أيوب » !

وينتهى الحوار الساخن بإلغاء بيع الخمور .

ولك أن تتصور إلى أى حد كانت تصل أمور الدولة لو سكت النذير .. وطوى بالمداهنة هذه التذكرة ! .. إن الحاكم - مهما كان - لا يحكم الأفواه .. ومهما فعل لإسكات صوت الحق فهناك طريق للدعوة لا يملك إحباطه وهو :

إظهار الشعائر .. وهذا يكفى .. إذا لم تستطع الكلام .

• التعفف عن مال الحكام :

يقول ابن الجوزى .. وهو يحاول سد ذرائع المداهنة : « رأيت خلقاً من العلماء والقصاص تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم ،

---

(١) رسائل الإمام الغزالى بالفارسية .

(٢) طبقات الشافعية لابن السبكى .

وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ، ولا يخرجونها فى حقها .

فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغى أن يصرف إلى المصالح وربما كان معه جندى يصلح أن تكون مشاهرته عشرة دنانير فأعطاه عشرة آلاف ، وربما غزا فأخذ ما ينبغى أن يقسم على الجيش فاصطفاه لنفسه . هذا غير ما يجرى من الظلم فى المعاملات .

وأول ما يجرى على ذلك العالم أنه قد حرم النفع بعلمه ، وقد رأى بعض الصالحين رجلا عالماً يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكى ، فقال : أعوذ باللّه من علم لا ينفع .

ألم ير المنكرات ولا ينكر ، ويتناول من طعامهم الذى لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه ويحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ، ثم لا يقدر لك أن يهتدى بك أحد ، بل ربما كان فعل هذا سببا لإضلال الناس وصرفهم عن الاقتداء به ، فهو يؤذى نفسه ويؤذى أميره ، لأنه يقول : لولا أننى على صواب ما صحبنى ولأنكر على .

ويؤذى العوام تارة بأن يروا أن ما فيه الأمير صواب ، وتارة بأن الدخول عليه والسكوت عن الإنكار جائز .

أو يحبب إليهم الدنيا ، ولا خير واللّه فى سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة .

وأنا أفتدى أقواماً صابروا عطش الدنيا فى هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضى ، وبقيت أذكارهم تروى صداً القلوب وتجلو صداها .

هذا الإمام أحمد يحتاج فيخرج إلى اللقاط ولا يقبل مال سلطان .

هذا إبراهيم الحربى يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار .

هذا بشر الحافى يشكو الجوع ، فيقال له : يصنع لك حساء من دقيق ؟

فيقول : أخاف أن يقول اللّه لى : هذا الدقيق من أين لك ؟

بقيت واللّه أذكار القوم ، وما كان الصبر إلا غفوة يوم .

ومضت لذات المترخصين وبليت الأبدان ، ووهن الدين .

فالصبر الصبر يا من وفق ، ولا تغبطن من إتسع له أمر الدنيا .

فإنك إذا تأملت تلك السعة رأيتها ضيقا فى باب الدين .

ولا ترخص لنفسك فى تأويل ، فعمرك فى الدنيا قليل :

وسواء إذا انقضى يوم كسرى فى سرور ويوم صابر كسره

ومتى ضجت النفس لقلة صبر ، فاتل عليها أخبار الزهاد ، فإنها ترتوى وتستحى وتنكسر ، إن كانت لها همة أو فيها يقظة .

ومثل لها بين ترخص على بن المدينى وقبوله مال ابن أبى داود ، وصبر أحمد .

وكم بين الرجلين والذكرين .

وانظر ما يروى عن كل واحد منهما وما يذكران به .

وسيندم ابن المدينى إذا قال أحمد : سلم لى دينى) [١] .

٢ - ضعف الشخصية :

ربما تكون رغبة بعض المسلمين فى تغيير المنكر قوية .. لكنهم يخافون من سخرية الساخرين التى تحول بينهم وبين الجهر بكلمة الحق .

فإحساسهم بكرامتهم حاد .. إلى درجة تنأى بهم عن كل موطن يخدش هذه الكرامة ولو كان موطنا تنال فيه حرمة الإسلام . . حفاظاً على شخصية زجاجية .. تحطمها هبة نسيم .. وتؤلمها غمزة عين من لئيم .

ولكى تحتفظ الدعوة بهذه الفئة لحسابها .. فإنها تذكرهم بأن هذه السخرية واحدة من أقدار الدعاة .. وعليهم أن يواجهوها بمثلها .. حتى تخرج الدعوة منتصرة كما خرجت من قبل على يد الأنبياء والمرسلين :

يقول الحق سبحانه : ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ [٢] .

﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ [٣] .

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ٤٨٠ / ٤٨٣

(٢) هود : ٣٨

(٣) البقرة : ١١٢

إن الملأ الحاقدين الحراص على مراكزهم الاجتماعية يتولون كبر هذه الجريمة .. ولقد زينت لهم دنياهم أن يسخروا من المؤمنين .. وإذا لم تتح الدنيا للمسلم أن يأخذه بثأره .. فإنه سيكون الأعلى فى الآخرة .. شريطة أن يصون إيمانه بحزام التقوى .. حتى لا تهزه غمزات الساخرين : ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ .

إن مقابلة السخرية بمثلها إعلان من المؤمنين بأنهم لا يبالون .. وهم على الطريق ماضون ..

وإذا كانت اللغة تقول : « سخرته فى العمل - بالتثقيل - استعملته مجانا .. وسخر الله الإبل ذللها وسهلها » [1] .

إذا كانت اللغة تقول ذلك .. فربما جاز لنا أن نفهم ما يريدونه بالسخرية منا : إنهم يريدون توهين الحماس المندفع للحق ، وتسخير الطاقة الإيمانية لحساب الباطل .. فلا ينبغى أن نحقق بالتراجع أغراضهم .

ولقد تولى المنستشرق « زويمر » كبر هذه الحملة الساخرة على الدعوة عندما وصى زبانيته بشن حملة من السخرية على علماء الدعوة .. حتى إذا اهتزت صورهم فى أعين الناس .. اهتزت فى نفس الوقت مبادئهم فى قلوبهم .

ولو استسلم الدعاة واستكانوا أمام هذا الإستهزاء .. فإنهم يتيحون فرصة ذهبية للباطل فيكسب الجولة ..

وأفضل من هذا أن يتماسكوا .. ثم يردوا القذيفة إلى مصدرها . ليظل زمام المبادرة فى أيديهم أبدا .

إن الإستهزاء لم يكن مجرد محاولة يشبعون بها صدوراً حاقدة .. بقدر ما كان رغبة تستهدف تمييع القضية .. وإرخاصها .. حتى لا يتحمس للدفاع عنها أحد .

وحماية للمسلمين من آثار هذه الحملة الماكرة : تؤكد الآيات الكريمة أن المستقبل للدعاة المستهدفين بالسخرية .

---

(١) المصباح .

وأن لهؤلاء الماكرين الساخرين عاقبة السوأى .. حين يحيق بهم ما كانوا به يستهزئون .

وكما دارت الدائرة على من خطط من قبل لهذه الحرب الإعلامية - فإن للمستهزئين اليوم أمثالها .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (١) .

﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٢) .

ولقد يحقق الساخرون كسبا .. لكن الحق تبارك وتعالى يحبط مفعوله فى نهاية المطاف : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ (٣) .

وإذا كان الأمر كذلك .. فإن حساسية الشعور .. والتخويف من سخرية الكافرين إلى حد يعقد اللسان فلا يأمر بالمعروف .. أمر غير وارد ما دامت النتيجة فى النهاية لحساب المؤمنين ..

وسوف تأتى النهاية السعيدة بهذا الموقف الذى حكته سورة المطففين :

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ (٤) .

وفى تعليق على هذه الآيات يقول الشهيد سيد قطب : « والمشاهد التى يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا ، وسوء أدبهم معهم ، وتطاولهم عليهم .. ووصفهم بأنهم ضالون .. مشاهد منتزعة من واقع البيئة فى مكة .. ولكنها متكررة فى أجيال ومواطن شتى .

وكثير من المعاصرين شهدوها .. كأنما هذه الآيات نزلت فى وصفها وتصويرها .. مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة فى موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور ! .

---

(١) هود : ٨ (٢) الشعراء : ٦ (٣) الحجر : ٩٥ (٤) المطففين .

إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم . وسخرية منهم : إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم عن رد الأذى .. وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء .

فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا .. وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة .. وهم يسلطون عليهم الأذى .. ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع مما يصيب الذين آمنوا .. وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين .

وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذى يصف هذه المواجع .. فهو يراها .. وهولا يهملها - وإن أمهل الكافرين حينا - وهذا وحده يكفى قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه .

إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون .. وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون .. وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون !

إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه فى تنزيله .. فهو إذن شئ فى ميزانه .. وهذا يكفى .. [1] !!

• تملق الضعفاء :

قد يحاول الإصلاح داعية مخلص .. لكنه - فى تقديره - لا يجد من زملائه العلماء سنداً له فى معركته .

وقد يحمله ذلك على اليأس من عملية الإصلاح جملة !

وقد يجد من هؤلاء الزملاء من يتقرب إلى الحاكم زلفى .. فيهرب بعيداً .

وهكذا تفقد الدعوة أهم عناصرها .. ومعنى ذلك أن ينفض سوق الدعوة ولا تجد الفضيلة لها أنصاراً ، حين تنأى العزة بعيداً بالقادرين على الدعوة من الأعزاء ، فرارا من العيش فى أسواق التملق !

• الحياء من الماضى :

ربما كانت فى صحيفة سوابق الداعية سيئة فعلها صغيرا .. وذاكرة الجمهور التى قد

---

(١) فى ظلال القرآن .

تنسى للفنان – !! – أخطاءه تحتفظ دائما باللمم يصدر من الدعاة ! حتى ولو كان قديم العهد .

وإزاء هذا .. فقد يفضل الداعية الفرار من ساحة الدعوة .. ليفر فى نفس اللحظة من هذا الإحراج ! .

وهذا الداعية التى تشل حركته سيئة ارتكبها يوما .. قد يكون ذا أداء متميز مؤثر .. واذن فما أحوج الدعوة إليه .

وما أحراه أن يلبى نداءها .

لأن خوفه إذا صدق فى مجال العامة .. فإنه لا يصدق فى مجال الخاصة الذين يحسنون تكييف المواقف ، وتقدير الظروف . إنطلاقا من فهمهم لطبيعة الإنسان .

ومن ثم فقد تكون فى حجته قوة .. وفى عرضه جاذبية تستلفت أنظارهم .. فيسمعون ويستجيبون .

ثم يصبحون بالاستجابة قوة على الطريق .. ورصيداً .. تختفى إلى جانبه يوماً سيئات الماضى .. مما يتيح له فرصة الأقبال على الناس .. فى ظل من هذه الصحبة المباركة .

• ضغط المدنية :

وقد يحتج داعية بأن هجوم المدنية الحديثة بلهوها ولعبها لم يدع قولا لقائل .

وإذا قال .. فإن صوته لن يسمع فى ضجيجها واندفاعها .

وليذكر هذا الصنف من الدعاة أن محمداً ﷺ .. كان وحيداً .. فى مكة ومع ذلك فقد دعا العالم كله إلى الحق ولم تزحف إلى قلبه موجة من موجات اليأس .. إزاء القوى الباغية المحيطة به .

ومن قبله دعا نوح عليه السلام قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .. فما وهن ولا استكان .. ورغم أنه لم يؤمن به إلا عدد قليل . إلا أنه خرج من الدنيا بعد أن أقض مضاجع الباطل الذى إن لم ينتصر عليه فى معركة حاسمة فقد نجح فى إسماعه كلمة الحق .

إن كلمة واحدة قد تغير وضعا قائما قاتما .. جاثما !

فلنقلها ثم نمضى .. فربما حانت لحظة القبول . والشواهد اليومية شاهدة بفاعلية الكلمة فى أحلك الظروف مما يجعل السكوت جريمة لا تغتفر .. لا سيما حين يستعلن المنكر ويتحدى مشاعر الناس هكذا علانية .

وإذا كنا ننسحب من الميدان - ونضن بالكلمة - فإننا نحقق بذلك حلم الملحدين الذين يطبلون لموكب الإنحراف ويمهدون له السبيل .

وليعلم الواعظ أن فى أجهزة الإعلام من يعينه على أمر الله .

وحتى الذين لا يؤدون فرائض الله .. يهبون غاضبين - بفطرتهم - فى وجه المنكر المتحدى .

وعلينا أن نبدأ من الصفر .. وإن قراءة واعية لسنن الله تعالى فى الإجتماع البشرى كافية لدفعنا إلى الأمام .

« على الأقل يحارب كل منا الفساد فى بيته وفى بلده وفى وطنه .. ونجتمع كأخوة ونتأهب للاحتمالات القادمة ونتدارس مصالحنا المشتركة ونتذكر أننا رغم ضعفنا فإننا بالإيمان والعلم نصبح قوة مؤثرة .

ولا يدفعها تقدمهم وتخلفنا إلى اليأس .. فلا أحد يبقى على القمة وكم من أمم أوتيت الأسباب وبلغت الذروة ثم زالت وانتهت واصبحت فى آخر الصف .. وأين انجلترا اليوم من بريطانيا الأمس .. وأين النمسا اليوم من الإمبراطورية النمسوية التى حكمت أوروبا بالأمس .. ومن كان يظن أن الماركسية تنهزم فى داخل الصين ذاتها ويقوم من الصين حكام يهاجمون الفكر الماركسى وينعتونه بالتخلف والجمود .. ولكنها سنة الوجود أن لا شئ يبقى على حاله [١] .

وإسرائيل بدون التأييد الأمريكى والأوربى تموت كجنين انقطع حبله السرى فلا قوة لها من ذاتها وإنما قوتها طفيلية مستعارة .

وإسرائيل بدون الإنقسام العربى تفقد مستقبلها .

---

(١) بل وأين الاتحاد السوفيتي الذي تهاوى بناؤه حجراً حجرا .

وليس صحيحاً أنهم أمامنا حضارياً .. فالحضارة المادية دخلت فلك الغروب بينما الحضارة الإسلامية تعاود اليوم شروقها والزمن قد استدار ليعود من حيث بدأ مفتتحاً حقبة جديدة ، وليس مطلوبا منا إلا أن نكون مسلمين بحق مؤمنين بحق وأن نأخذ بأسباب العلم والعمل وأن نتحد ونستعد دون عجلة ودون هتاف ودون حماسات عنترية ودونما تعصب أو تطرف وإنما برؤية موضوعية وعمل دؤوب وفكر مستنير .. إسلام العلم والعمل وليس إسلام الإنقلابات والإضرابات وخطف الطائرات .

وقد ظلت القدس فى أيدى الصليبيين سنوات طوالا ثم عادت إلى عروبتها رغم الجيوش الأوربية التى كانت وراء الحملة الصليبية بخيلها ورجالها .

وغدا تعود القدس رغم كل هذا العلو الذى بلغته إسرائيل .. فلم يكن هذا العلو إلا مظاهرة أمريكية ومؤامرة إنجليزية وتورطا أوربيا وانقساما عربيا وهى أمور لن تستمر طويلا .

وعمر الخيانات ساعة وعمر الحق يطول الأبد فلا تتعجلوا ياقوم واثبتوا على الحق فلم يمض بعد من التاريخ إلا دقائق » [١] .

* * *

● الترفع :

ذات يوم .. دعانى مسئول كبير فى دولة مسلمة للاشتراك فى حفل أقيم لتعبئة مشاعر المسلمين من أجل أفغانستان .

وقال لى الشاب المتحمس حين دعوته للحضور :

نحن أرفع من أن يضمنا مع هؤلاء مجلس واحد !

ولكننا سوف نرسل مندوبا لنا مستخفيا ليوافينا بما قيل فى الحفل الكبير ؟!

قال ذلك بلهجة الواثق .. ورغم شرف الغاية من الحفل .. ورغم أن هذا التجمع كان فرصة يلتقى فيه الدعاة بأناس قد لا تحملهم أقدامهم إلى المساجد يوما !

لا سيما والباب مفتوح لكل فكر .. ولكل رأى يطرح بدافع من النية الطيبة ..

---

(١) د . مصطفى محمود جريدة الأهرام ٩ / ١ / ١٩٨٥

ورغم كل هذا .. آثر الفتى الثائر أن يقضى ليلة مع رفاق يذكرون اسم اللّه قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. وفى زاوية من زوايا المسجد .. تاركين مرضى يحتاجون إلى طبهم .. وغارقين يبحثون عن الشاطئ الآمن .. فلا يصلون إليه !

ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به وشاركوا فى الحفل .. لهدى اللّه بهم خلقا .. ولو لم يخرجوا من الحفل إلا بواحد فقط . فقد خرجوا بأفضل من الدنيا وما فيها .

وذلك خير وأقوم قيلا من الإصرار على تحزب ينأى بهم بعيداً .. ويحفر بينهم وبين الحكام أخاديد لا تسمح بلقاء ، وتتبدد الطاقات بين مد وجزر ، والشيطان منهم غير بعيد .. ثم هو سعيد :

فقد كفاه « الدعاة » المتحمسون مئونة الأعداء .. لما حققوا من حيث لا يحتسبون بعض مآربهم !

ولا نشك لحظة فى صدق نوايا ذلك الفتى المتحمس .

بيد أن الأمر يحتاج إلى صدور تتسع لتقبل الرأى الآخر .

وعقول تتفتح لأفكار الآخرين احتراماً لوجهة النظر المعارضة مهما كانت بينة الضلال .. ثم دراستها .. وردها بالتى هى أحسن .

وقمة المأساة أن هذا الطالب الدارس مستعد ليقبل وجهة نظر زميله الذى لم يبلغ العشرين ربيعاً .

يقبلها بلا مناقشة !!

ثم يرفض بلا مناقشة أيضاً خبرة ثلث قرن فى دعوة الناس إلى اللّه تعالى !

وليت شعرى : أين مصلحة الدعوة لو حبس الدعاة أنفسهم فى منازلهم ومنعهم الترفع من الإنتقال إلى العصاة فى مواقعهم .. فى الوقت الذى لا يفكر فيه العصاة دخول مسجد .. أو الاصغاء إلى موعظة ؟

ولو سارت الأمور على هذا النحو ، لوصلت الدعوة إلى طريق مسدود ..

واتسعت دائرة المنكر .. وعز على المخلصين التحرر من رقبته !

ويحضرنى فى هذا المقام ، ما حكاه القاضى عياض فى كتاب « المدارك » قال : «إن عضد الدولة « قناخسرو » الديلمى ، بعث إلى أبى بكر بن مجاهد ، والقاضى أبى الطيب ، ليحضرا مجلسه لمناظرة المعتزلة .

فلما وصل كتابه إليهما قال الشيخ ابن مجاهد وبعض أصحابه : هؤلاء قوم فسقة ، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال : إن مجلسه يشتمل على أصحاب المحابر كلهم ، ولو كان مخلصا لنهضت .

قال القاضى ابن الطبيب ، فقلت لهم : كذا قال المحاسبى ، وفلان ومن عاصرهم : أن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه حتى ساق أحمد بن حنبل إلى طرسوس ، وجرى عليه ما عرف ، ولو ناظروه لكفوه عن هذا الأمر ، وتبين لهم ما هم عليه بالحجة .

وأنت أيضا أيها الشيخ سلكت سبيلهم ، حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد ، ويقولوا بخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وها أنا خارج إن لم تخرج ! فقال ابن مجاهد : إذا شرح اللّه صدرك لهذا .. فأخرج » .

• المنكر الخطير :

وإذا حمل الإخلاص القاضى ابن الطبيب على أن يتدخل ليقول كلمة حق فى معترك الفتنة .

فإن الوفاء حمل ابن مجاهد على أن يحترم وجهة نظر زميله ورفيقه على طريق الدعوة ..

الوفاء للدعوة التى يجب أن يظل رجالها أقوياء بوحدتهم وإن تعددت آراؤهم .. إن الغاية واحدة .. فلا خلاف عليها .

لكن الوسائل متعددة .. ولا بأس من تعددها .. ذلك بأن اختلاف الدعاة إلى حد التدابر منكر خطير .. وهو أبلغ أثرا فى تفكك الأمة من معاصى جمهور الناس .

وإذا كان سمار الليالى من عشاق الدنيا يتنادون بالوحدة . ويتناجون بالترابط . فأولى برهبان الليل أن يظلوا فرسان النهار .. وإن تناءت الديار ..

أرسلت ممثلة فى دولة إسلامية برقية تهنئة لرئيس أمريكا الذى صار زعيما لدولة كبرى فكانت رئاسته انتصارا لدولة الفنانين ؟!

فأين دعاة الحق فى زمن يترابط فيه المتجانسون ؟

إن الأمل لا يزال حيا فى وحدة يحقق اللّٰه بها آمال أمتنا .

ذهب « سحنون » وصاحباه : عون بن يوسف . وابن رشيد إلى أسد بن الفرات ، فسألهم عن مسألة ، فابتدر لجوابه صاحباه ، وسكت هو ، فسألاه لم لم تتكلم ؟ فقال : ظهر لى خطأ جوابكما ، فقالا : لم لم تتكلم بالصواب ونحن عنده ؟ قال : كرهت أن ندخل أصدقاء .. ونخرج أعداء (١) .

« قبل أن تغرق السفينة »

عن النعمان بن بشير : « مثل القائم على حدود اللّٰه والواقع فيها : كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم .

فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » (٢) .

وهكذا المجتمع الحساس المتأثر بكل انحراف مهما بدا ضئيلا .. كما تتأثر السفينة بهبة ريح عارضة ..

وإذا كنا كركاب السفينة نحب الحياة ونكره الموت .. فلماذا لا نضرب على أيدى العابثين السائرين بنا على طريق الموت ؟! وإن صدقت نواياهم ؟ إن الساكتين ، كالمداهنين لم ينجيهم سكوتهم – كما قلنا – وسوف يحتويهم اليم جميعا .. جزاء وفاقا !

فليحذر الذين يخالفون عن أمره .

* * *

---

(١) دعوة الإصلاح .

(٢) البخارى كتاب الشهادات .

الذين يحطمون خلايا النحل

يقولون : إذا أردت أن تحصل على العسل ، فلا تحطم خلايا النحل ، ونقول لبعض الدعاة :

إذا أردتم أن تحصلوا على ثقة المدعوين .. فلا تحطموهم :

إن أحكم الدعاة : من يقيم العوج .. ولا يكسر المعوج .

والذى يثبت فى ذهن المدعو أنه ناصح .. لا جارح .

ومن المؤسف أن تجد أحيانا دعاة لا يستزلون رحمة اللّه على الناس .. ثم لا يريدون لها أن تنزل على يد غيرهم .

بل ما أكثر اللوم النازل على دعاة حكماء معتدلين من قبل متحمسين يريدونها ناراً حامية تأكل الأخضر واليابس .

إنهم يرون اللين والاعتدال فى مخاطبة العصاة جرماً .. وهكذا الجسم الملتهب دائما إنما يشعر بالجسم المعتدل إلى جانبه بارداً !

وليت شعرى : إلى متى تظل الرغبة فى الطاعة طاقة نارية تلاحق العصاة بالويل والثبور ؟

إن الأجانب لم يجعلوا « البترول » فقط طاقة تولد الحركة .. ولكنهم صنعوه فصار : لقمة تشبع الجائع .. ولباسا يوارى السوأة . ودواء يشفى المريض .

فلماذا « لا نصنع » نحن طاقة التغيير فى كياننا لتكون كلمة هادية .. أو نصيحة مرشدة .

بل لتكون صوراً من الخدمات تخفف من شظف العيش .. بدل أن تظل ناراً تشتعل بها الصدور غضباً ؟

أهمية الرفق :

من الأمور الداعية إلى الرفق :

١ - طبيعة هذا الدين .

٢ - طبيعة الوظيفة .

٣ - إختلاف مشارب الناس .

• طبيعة الدين :

« إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى »[١].

وإذا دعى المسلم إلى أخذ نفسه بالرفق .. لتظل العبادة أمراً محبباً إلى نفسه . فهو كذلك - ولنفس السبب - مدعو إلى التعامل مع غيره ليعينه على أمر اللّٰه .

وقد يكون التمهل وسيلة إلى إستقرار الفكرة ونضوجها فى قلب المدعو .. بقدر ما يكون التسرع والضغط مانعاً من إستيعابها :

يقول سبحانه : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾ [٢]
﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ [٣] .

وإلا فإن حمل الناس على الحق حملا .. منته بهم الى التفلت من ربقة الدين جملة :
« إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا » [٤] .

إن الأشجار القوية لا تعجل بالثمر .. وكذلك الداعية .. الذى يتعهد الأرض بالسقى والرعاية زماناً قد يطول .. ولكن النتيجة لحساب الحق الذى يجئ مسك الختام

• طبيعة الوظيفة :

ما معنى أنك داعية ؟

معناه : ما عليك إلا البلاغ : أن تصنع البذرة الطيبة .. فى الأرض الطيبة لتزكو وتنمو .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، وفيه بعد كلمة « برفق » ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك .

(٢) الأحقاف : ٣٥ (٣) القلم : ٤٧ (٤) رواه البخارى .

وعندئذ تنتهى مهمتك .

أما تحويل القلوب من الباطل إلى الحق .. والسيطرة عليه .. فذلك لايكون إلا للّه تعالى :

يقول سبحانه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١)

إنك فقط ترشد .. وتوجه .. وإذن فالضغط والاكراه غير داخلين فى وظيفتك .

إن الضغط محاولة للنقل من محيط إلى محيط .. وذلك لايكون إلا للّه تعالى : ﴿ إنك لاتهدى من أحببت ولكن اللّه يهدى من يشاء ﴾ (٢) .

ولايعنى ذلك أن تقول كلمتك وتمضى كأن الأمر لايهمك .. وكأنما أنت طيار يلقى حمولته فى البحر .. لاعلى الهدف .. ليقبض بعد ذلك الثمن . وإنما تظل مشدودا إلى المدعو .. بين الحين والآخر .. لا تنظر إليه من « فوق » وإنما كرفيق على الطريق .. يبصره بأخطار الطريق .

إن الداعية متحرك دائماً :

وهو - كما قيل - : كالشعاع : إذا اعترضه حائل انكسر .. أو ارتد ليضئ فى اتجاه آخر .

فهو نور دائماً .

مضئ دائماً .

إن ضوء الشمس يكشف المعالم .. ويصل إلى الأبواب .. ولكنه لايفتح هذه الأبواب .. ومفاتحها بيد الحق سبحانه وتعالى .. وهو سبحانه بفضله يضعها فى اليد الصناع القادرة على فتح مغاليق القلوب .

لست عليهم بمصيطر :

ونقرأ فى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ﴾ (٣) .

---

(١) الشورى : ٥٢ (٢) القصص : ٥٦

(٣) الغاشية : ٢١ - ٢٢

وقوله سبحانه : ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [١] .

تقول اللغة : « المصيطر والسيطرة : المسلط على الشئ يشرف عليه ، ويتعهد أحواله ، ويكتب عمله » [٢] .

« والجبار من النخل : ماطال وفات اليد ، يقال نخلة جبارة ، أو ناقة جبارة أى : عظيمة سمينة ، والجبار الذى يقتل على الغضب » [٣] .

وفى التنزيل : « إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض » : أى قتالا .. وكله راجع إلى معنى التكبر » [٤] .

فالآيات الكريمة تحصر وظيفة الرسول فى مجرد التذكير .. وتستبعد أن يكون حفيظاً على الناس يلاحقهم ويحصى عليهم مثالبهم .. كما وأنه ليس متكبراً متعالياً لايعيش حياة الناس ولايشاركهم بأساء الحياة وضراءها .

وبهذا الفهم السليم لطبيعة الوظيفة .. تستبعد القسوة من قاموس الدعوة .. ويبدو الداعية شخصية متراحبة الأفق .. قادرة على استيعاب أصعب الظروف لصالح الإسلام:

لقد دخل التتار كالاعصار .

فلما هدأ الاعصار .. أمكن التفاهم معهم ثم استيعابهم .

وقد حاولت الأديان كلها استغلال التتار لحسابهم .. لكنهم فشلوا .. واستحوذ عليهم الاسلام بالقدوة .. لا بالتحدى .. باللين .. وليس بالرصاص .. والسكين ! !

الشخصية الساحقة :

بعض الدعاة يكون قوى الشخصية .. مسيطرا بنفوذه على أتباعه .. ولايركز على صياغة « كوادر » تخلفه فى دعوته فماذا يحدث ؟ :

١ - يظهر المنافقون المعمقون لهذا الاعتزاز فتعمق جذوره .

---

(١) ق : ٤٥

(٢) الصحاح اعداد نديم مرعشلى : ٥٨ - ٦٢

(٣) الصحاح تاج اللغة تحقيق أحمد عطا جـ ٢

(٤) لسان العرب .

٢ - تنفر الشخصيات القوية التي ترى نفسها ندا للزعيم .. والكارهة للنفاق .

٣ - مثل هؤلاء الزعماء يموتون .. وتموت معهم دعواتهم لتصبح من بعد خواطر فى بعض الرءوس وذكريات فى النفوس .

« ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر بالمعروف والنهى على الصراط المستقيم والصراط المستقيم : أقرب الطرق الموصل إلى حصول المقصود .

ولابد فى ذلك من الرفق ، كما قال النبى ﷺ : « ما كان الرفق فى شئ إلا زانه ، ولا كان العنف فى شئ إلا شانه » (١) .

وقال ﷺ : « إن اللّه رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى عليه مالا يعطى على العنف » (٢) .

ولابد أيضاً أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى ، فإنه لا بد أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر كان مايفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : « وأمر بالمعروف وانه عن لمنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » (٣) .

ولهذا أمر اللّه الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل ﷺ ، بل ذلك مقرون بتبليغ الراسالة ، فإنه أول ما أرسل تنزلت عليه سورة ﴿ يا أيها المدثر ﴾ بعد أن نزلت عليه سورة « اقرأ » التى بها نبئ ، فقال اللّه تعالى :

﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾ (٤) .

---

(١) مسلم (٢٥٩٤) وجه (٣٦٨٨) عن أبى هريرة و (٣٦٨٩) عن عائشة .

(٢) البخارى (١٠ / ٤٤٩) ، (٢١٦٥) والمعنى أن اللّه رفيق « أى يعامل الناس بالرفق واللطف ومعنى « يحب الرفق » أى من العبد « ويعطى عليه » أى من جزيل الثواب ، « على العنف » بضم العين المهملة وسكون النون وهو الأفصح والأشهر وهو الشدة والقساوة أى من يدعو الناس إلى الهدى برفق وتلطف خير من الذى يدعو بعنف وشدة إذا كان المحل يقبل الأمرين وإلا فيتعين مايقبله المحل ويناسبه المقام .

(٣) لقمان : ١٧

(٤) المدثر : ١/٧

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، فعلم أنه يجب بعد ذلك الصبر .

وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك . فإنك بأعيننا ﴾ [1] .

وقال : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ [2] .

وقال : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ [3] .

وقال : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ﴾ [4] .

وقال : ﴿ واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ [5] .

فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر ، العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف - ورووه مرفوعاً - ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به . رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيمايأمر به، حليماً فيما ينهى عنه » [7]

• اختلاف طبائع البشر :

تختلف طبائع الناس .. وبالتالى تتعدد طرائق دعواتهم .. والعلم بطبيعة المدعو وظروفه .. ينحى القسوة جانباً .. فلا يباشرها الداعى إلا إذا كانت آخر الدواء .

سنة التدرج :

لما كانت العادة طبيعة ثانية . فإن فطم الإنسان عن عادته يعنى التخلى عن طبيعته ..

والعنف هنا غير مجد شيئاً إن لم يخلف آثاراً ضارة ..

---

(١) الطور ٤٨ (٢) الأحقاف : ٣٥ (٣) القلم : ٤٨

(٤) النحل : ١٢٧ (٥) هود : ١١٥ (٦) الأحقاف : ٣٥

(٧) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٣٣ / ٣٥

والحكمة قاضية بالتدرج وصولاً إلى الإقناع بأقل قدر من الخسائر . وحتى لايحدث رد الفعل المعاكس .

(عن ميمون بن مهران . عن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز . قال لأبيه : ياأبت، مامنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ماكنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك .

قال : يابني إني إنما أروض الناس رياضة الصعب . إني أريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا .. فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه » .

وفي رواية : « لاتعجل يابني : فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة . وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة ، فيدعوه جملة فيكون من ذا فتنه » [(١)] .

الرغبة المفقودة :

قد يكون الحق في ذاته واضحاً في ذهن المدعو .. ولكن مشكلته أن ليست له رغبة: لا في الدعوة ولا في المدعو !

ونحن مطالبون بإنشاء هذه الرغبة ابتداء .. وقبل أن نأمر وننهى .. ومن أساليب إنشاء هذه الرغبة : اللين .. والحيلة .

إنك إن تضغط على مسلم بالموعظة .. لاتساعد نفسه على الإقبال عليك والأخذ منك ..

وقد يجاملك : خوفاً .. أو طمعاً . وقد تكسب احترامه .. لكنك ستخسر حبه .. وبذلك تفقد الدعوة أهم عناصر التأثير ..

وقليل من العمل مع كثير من الحب أجدى .. والأيام كفيلة بالمزيد: دخل أعرابي المسجد فصلى صلاة خفيفة .. على عجل ، فقام إليه الإمام علي . وضربه بالدرة .

---

(١) الأمر بالمعروف للخلال ٨٢

وأمره بإعادة الصلاة . ولما أعاد الأعرابى الصلاة مطمئناً . قال له الإمام : أهذه الصلاة خير ؟ أم الأولى ؟ فقال الأعرابى : بل الأولى . لأنى صليتها لله .. أما الثانية :فقد صليتها خوفاً من عصاك !

وتبدو سياسة الإمام واضحة هنا : الوصول إلى الحق .. عن طريق الحق .. بلا مجاملة أو مساومة ، بينما كانت سياسة معاوية :

إنا لانصل إلى الحق إلا بالخوض فى كثير من الباطل .

أى أخذ شئ بترك شئ عن طريق المصالحة .

ومااللين إلا هذه المصالحة التى تتنازل مؤقتاً عن أمور .. تمهيداً للوصول فى النهاية إلى الكمال .

فإذا تصورنا اختلاف الناس بين معدن « خام » لا عهد له بالدعوة من قبل .. ومعدن صلب عرف بها ثم تجاهلها وجهل عليها .. تصورنا فى نفس الوقت ضرورة الوعى بهذا التفاوت وما يلزمه من مرونة فى الدعوة إلى الحق . « إن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التى عرفت .. ثم انحرفت .

فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستقامة ..

لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها . وينفض عنها الركام لجدته عليها ، وانبهارها بهذا الجديد الذى يطرق نظرتها لأول مرة .

فأما القلوب التى نوديت من قبل .. فالنداء الثانى لاتكون له جدته ، ولا تكون له هزته . ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته .. ومن ثم يحتاج إلى الجهد المضاعف والصبر الطويل » [1] .

التسرع :

« كان الحسن البصرى فى جنازة فيها نوائح ومعه رجل . فهم الرجل بالرجوع ، فقال الحسن : إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك فى دينك » [2] .

---

(١) طريق الدعوة جمع أحمد الفايز ١٧٩/ ١٨٠ .

(٢) البيان والتبين .

قد يكون العلم فى الأحداث ..

ولكن التجاوب لا تكون إلا فى الشيوخ ..

وإذا طبعت التجاوب الكبار بطابع الحكمة والأناة .. فإن سمة الشباب هى التسرع والعنف ..

وبالتسرع والعنف يفوت خير كثير ..

قال الإمام الشافعى : (إذا تصدر الحدث . فاته علم كثير) [1] .

على معنى أن الثمرة لم تنضج بعد كما قلنا .

والسن الباكرة أحوج ماتكون إلى التجارب تصقلها وتعدها لمواجهة النفوس بما يناسبها ..

كان بعض العارفين يعظ داعياً إلى الزهد . فقيل له : إن ثيابك تساوى خمسمائه دينار ؟ فقال . اجعل الدنيا على ظاهرك .. لا فى باطنك .. فلو ملكتها .. وأنت غير محب لها بقلبك .. فأنت زاهد ولو لم تملك منها شيئاً وأنت محب لها بقلبك .. فأنت فيها راغب . ولها طالب .

وعندما اعترض أحدهم على الحسن البصرى رضى اللّٰه عنه لأنه يلبس الغالى الجميل من الثياب قال لناقده لابس الثوب الخلق الممزق : جبتى هذه تقول الناس : أنا فى غنى عنكم .. وثوبك هذا يقول لهم : أنا فقير فأعطونى .

إنها الدروس التى أفرزتها التجربه .. وأنضجتها الأيام .. ولكن التسرع يشغب عليها .

إنه كما قيل :

« يوهم القلب .. فيتعكر الشعور .. ويؤلب اللسان .. فيلحن النطق .. ويميل بالأذن .. فيشوش السمع .. ويغلق الأجفان .. فيغبش النظر) .

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٧٥

ويتحول المدعو .. الصغير .. المتعجل .. تلميذا مشاكساً .. كالمنخل : ينزل أطيب ما فيه .. ويمسك فقط بالحثالة !!

وما أحوج الدعوة إلى إعداد الزاد .. والتهيؤ للرحلة .. ضبطاً للحماس الذى ينحرف بها إلى مسارب تبدد طاقاتها ..

وإذا كان جميلاً أن ينشأ ناشئ الفتيان على طاعة اللّه تعالى .. فأجمل منه أن يلزم حدوده ..

ويعجبنى ذلك الحوار الهادف إلى مثل مانهدف إليه :

« قل أنا مسلم . أقل : الحمد للّه .

قل : لابد من تطبيق القرآن . اقل : ياليت لكن من الذي يفسره ؟

لم تكن أعظم عصور الاسلام هى التى اتبعت عالماً واحدا ، ورأياً واحداً .. ولكن ماتعدد فيها الفقهاء العظام ..

كان خلافاً يكسب القلوب .. والقول لا كسب الخضوع ! !

وإنما كسب الحب والولاء .. والتعليم والأخذ عن أهل الذكر ..

فما أحوج الداعية إلى علم يستوعب « شهوات الناس . ونزواتهم ، ومصالحهم ومنافعهم . وغرور بعضهم وكبريائهم :

فيهم الجبار الغاشم .

وفيهم الحاكم المتسلط .

وفيهم الهابط الذى يكره الصعود .

وفيهم المسترخى الذى يكره الاشتداد .

وفيهم المنحل الذى يكره الجد .

وفيهم الظالم الذى يكره العدل .

وفيهم المنحرف الذى يكره الاستقامة .

وفيهم من ينكر المعروف ويعرف المنكر .. »[1] .

وهكذا يختلف الناس .. وتتباعد الطبائع إلى حد التنافر على مايقول الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عد ألف بواحد

* * *

(١) طريق الدعوة : ١٨٧ .

عندما يذهب الانفعال بأحلام الرجال

وما أكثر ما تضيع الحقائق . وما أكثر ما يخسر المحقون من مواقف بسبب من العرض المتسرع .. المشحون بالانفعال الذاهب بالحكمة سدى .. هذا الانفعال الذى قد تكسب به جولة .. لكنك تخسر رجالا ومواقف كانوا سيقفون – لو أحسنا مخاطبتهم – إلى جانبنا . يدعون إلى ماندعو إليه .. بمثل حماسنا .

وتاريخنا الإسلامى حافل بصور من هذا الطراز :

طراز من العلماء والأدباء خانهم ذكاؤهم وتخلت عنهم حكمتهم .. ولم يغن عنهم علمهم شيئاً فخسروا القضية .. بينما الحق معهم :

حضر المتنبى مجلساً فيه أبو على الآمدى الأديب المعروف .. فأنشد المتنبى أبياتاً جاء فيها :

* إنما التهنئات للأكفاء *

فقال أبو على الآمدى : التهنئة مصدر .. والمصدر لا يجمع !

فقال المتنبى لآخر بجانبه : أمسلم هو ؟ !

فقال زميله : سبحان الله ! .. هذا أستاذ الجماعة أبو على الآمدى .

فقال المتنبى : فإذا صلى المسلم وتشهد ، أليس يقول : التحيات لله ؟!

قال : فخجل أبو على . وقام من المجلس .

إن الحق هنا فى جانب المتنبى حين جمع التهنئة فى قصيدته أسوة بجمع التحية فى التشهد ..

لكنه باستفهامه الانكارى عن صحة إسلام أبى على .. فجر الموقف وصعد المعركة فخجل العالم الكبير وترك المجلس ..

ولو أن المتنبى آثر الهدوء .. والجدال بالحسنى .. لبقى الآمدى .. وبقى به المجلس

منعقداً يشهد احتكاك أذهان رجال من الذكاء فى القمة وما يترتب على ذلك من فائدة علمية .

ولكن .. ضاع ذلك كله فى فورة الانفعال الذاهب بأحلام الرجال !

وحدة الانفعال هذه خطر لاينجو منه حتى عظماء الرجال :

« مر رسول الله ﷺ بقبر . وهو فى طريقه إلى الطائف .

فسأل أبا بكر عن صاحب هذا القبر . فقال : هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله . وهو سعيد بن العاص . فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يارسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام . وأضرب للسهام من أبى قحافة !

فقال أبو بكر : يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ؟!

فقال ﷺ : أكفف عن أبى بكر . فانصرف .

ثم أقبل ﷺ على أبى بكر فقال : يا أبا بكر :

إذا ذكرتم الكفار فعمموا . فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآبناء فكف الناس عن ذلك « رواه أبو داود » .

لقد سئل أبو بكر سؤالاً .. فأجاب بجواب صحيح .

لكن صيغة الجواب أثارت عمرو بن سعيد .. ويعلم الله ما كان سيحدث لو لم يكن الرسول موجوداً ؟ ! ويضع الرسول ﷺ ضوابط للحوار تعصم من الزلل ليتأكد للمسلم حيث كان : أنه مأمور بقول الحق .

وقبل ذلك هو مأمور باختيار السبيل الموصل إلى هذا الحق .. وإلا فإن حدة المزاج تثير خصمك .. وتضيع ثمرة الموعظة . ولن يشفع لك بلاؤك .. ولا ماضيك الحافل بجلائل الأعمال . لأن الماضى نفسه يفرض عليك أن تكون على حذر .. فالخطأ الصغير المعفو عنه مع الآخرين .. يصبح كبيراً بالنسبة للسابقين الأولين !

فإذا انتقلنا إلى مجال الشباب تراءت لنا نسبة الحدة وكيف ترتفع إرتفاعاً يفتح ثغرة خطيرة فى علاقاتنا .. فلا تستقيم على حال من القلق والاضراب :

« دخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام صغير .. فتقدم على خصم له أمام بعض

القضاة . وكان الخصم شيخاً كبيراً . ثم صال عليه إياس بالكلام . فقال له القاضى : خفض عليك . فإنه شيخ كبير . قال : الحق أكبر منه ! قال القاضى : اسكت . قال : فمن ينطق بحقى ؟ قال القاضى : ماأراك تقول حقاً . قال الفتى : لا إله إلا الله فدخل القاضى على عبد الملك بن مروان فأخبره . فقال : اقض حاجته الساعة . وأخرجه من الشام . لئلا يفسد على الناس » !

فانظر كيف طال لسان الغلام .. فطوح به خارج البلاد .

إنه لم يحترم شيبة شابت فى الإسلام . ولم يعطِ السن حقه من الاحترام .

ولم يدر بخلده أن سيصير مثله شيخاً . ولن يجد فى شيخوخته تكريماً .. لم يقدم هو له فى سابق عمره .

ثم تأمل سرعة جوابه . وحدة ذكائه . حين يقف من القاضى موقف المبارز المحاور .

ولكن .. لم تنفعه المحاورة .. لم يغنه الفوز فى حلبة النقاش .. ثم ينفى من الأرض فى صحبة ذكاء كان مجتمعه فى حاجة إليه لو أنه أحسن استغلاله . وأتصور الآن هذا الغلام المنفى يصب غضبه على حكام أخرجوه أو سجنوه .. ونسى أو تناسى أن الذى نفاه .. حدته وجفوته .

جاء فى المفرد العلم : لقى غلام من العرب أبا العلاء المعرى الشاعر المشهور . فقال له : من أنت يا شيخ ؟ قال : أنا أبو العلاء المعرى .. شاعركم المشهور .

فقا الغلام : أهلا بالشاعر الفحل أنت القائل فى شعرك .

وإنى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

قال أبو العلاء المعرى : أنا الذى قلت هذا .. ولماذا ؟

فقال الغلام : قول طيب . وثقة بالنفس . وإعلام بالكفاءة والقدرة .

ولكن الأوائل قد وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهجاء . فهل لك أن تزيد حرفاً واحداً ؟

فسكت أبو العلاء ، وقال : والله ماعهدت لى سكوتا كهذا السكوت .

وإذا كنا نركز اليوم على هذه النماذج المتسرعة . فإننا نأخذ فى الاعتبار تنبيه بعض الغافلين العاملين فى مجال الدعوة إلى ما يجره التسرع والقسوة على أصحابها من وبال!

• مداراة الأشرار :

عن عائشة : « أن رجلا استأذن على رسول الله ﷺ فقال : ائذنوا له ، فلبئس ابن العشيرة . أو بئس رجل العشيرة .

فلما دخل عليه ألان له القول .

قالت عائشة : يارسول الله . قلت له الذى قلت . ثم ألنت له القول ؟

قال يا عائشة : إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس اتقاء فحشه » [(١)] .

وإذن فيمكن مجاملة العاصى .. بالكلمة اللينة ..

أو الابتسامة العابرة ..

أما المجاملة على حساب الحق .. فلا .

عن عبادة الصامت قال : « كان رسول الله ﷺ إذا اتبع جنازة لم يقعد حتى توضع فى اللحد . فعرض له حبر – أى عالم بالفتح والكسر – فقال : هكذا نصنع يا محمد .. فجلس رسول الله ﷺ وقال : خالفوهم » [(٢)] .

فالأمر يتعلق بشخصية الأمة .. فلم يجامله .. بل أعلن ذلك فى قاعدة عامة .. باقية : « خالفوهم » !

• الخجل :

قد يعرف المدعو الحق .. لكن الخجل يمنعه !

قال أبو سفيان لأمية بن الصلت : لماذا لا تتبع محمداً . وهو الذى كنت تنعته لنا ؟

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم ١٦ / ١٤٤

(٢) رواه ابن ماجه ١ / ٤٩٣

قال : الاستحياء من نساء ثقيف . إنى كنت أحدثهن أنى هو . ثم يريننى تابعاً لغلام من بنى عبد مناف ؟! [١] .

وكذلك فعل أبو جهل لما قال له الوليد بن المغيرة : لماذ لا تتبعه إذن ما دمت تقول : ليس من المعقول أن تصدقه ونستأمنه وهو صغير ثم يكبر : فإذا هو كاذب خائن ؟

قال أبو جهل : تتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب ؟ ! ! .. واللات والعزى لا أتبعه أبداً [٢] .

فإذا وجد فى الناس أمثال هؤلاء ممن يغلبهم الحياء .. فإن العنف لايغنى معهم شيئاً .. لأنهم فى حاجة إلى علاج من الداخل .. تتغير به الوجهة .. وتتضح به الأمور على المدى الطويل .. وتلك مهمة الدعاة الحكماء . وإذا كانت غريزة الجنس هنا وراء هذا الخجل .. فإن فى النفوس غرائز أخرى يمكن إثارتها بالرفق .. حتى تتحرك .. نحو الحق .

• واجب الدولة :

إذا كان على الداعية أن يقول كلمته فى رفق ولين .. فإن ذلك يجدى على المدى الطويل .. ولكن يبقى للدولة أن تتدخل بسلطاتها لاسكات صوت المنكر .. لاسيما فى هذا العصر الذى صارت للمنكر صولة ودولة .

لقد بدأ يتحدى المعروف .. بل إنه يطالب بشرعيته بعد أن ساعدنا بسكوتنا على تأصيله .. وانتشاره .

ولم يكن غريبا أن ترى – فى بعض الدول – فتاة تسير فى الطريق وقد نقشت على ثوبها دعوة إلى مجالستها ؟ !

ولو تدخل داعية لإزالة هذا المنكر لكان مصيره السجن لأنه لايمثل سلطة تنفيذية .. والأمر إلى الدولة القادرة على ملاحقة هذا التحدى بما يقلم أظفاره .

ولو كانت المنكرات اليوم حوادث فردية لكان هناك مسوغ لمهادنتها إلى أن تزول تلقائياً ..

---

(١) السيرة لابن هشام ج ١ ص ١٢٩

(٢) راجع سيرة ابن هشام .

ولكنها خطة مدبرة من قبل أعداء لا يريدون بالأمة خيراً : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء »[1] .

إنه « منكر خطط له ذووا العقول الشيطانية .

وبيتوا له بليل فجعلوا من كل رجل مخنث مطرباً عالمياً وسلطوا عليه الأضواء ودلسوا به على الناس وروجوه للسذج والبسطاء بموجات مبهرة من الإعلانات وضربوه مثلا لكل من يحلم بالشهرة والملايين ولكل من يريد أن يصل بسرعة .

ثم الموجات وراء الموجات من موضات العرى والفساتين الفاضحة التى تخرج من بيوت أزياء كبرى ينظر إليها الناس باعجاب واحترام وتستلهم منها المرأة فى كل مكان أفانين الجمال والأناقة .

ثم مسلسلات العنف والدم والاغتصاب ومناظرة الشهرة ومشاهد الإثارة وذلك الحوار الذى يسوقه مؤلفون ماكرون بنعومة على ألسنة الأبطال فيشككون به المستمع دون أن يدرى فى نفسه وفى قيمه وفى دينه وفى كل شئ تلك الجرع الذكية المتكررة من الفساد والافساد التى يتجرعها الشباب فتسرى فى دمه وتفعل به فعل السم البطئ فتغير من كيماوية تفكيره وسلوكه دون أن يعلم .

من يفعل بنا هذا ؟

لسبب بسيط ووجيه : إن هناك مستفيدين .

وكيف نقلده فى فنوننا ونتخذ منه مثالا وقدوة فنسهم فى هلاكنا دون أن نشعر ؟ !

وكيف يفلت هذا الإجرام من العقاب ؟

وكيف تنام العدالة عن واجبها ؟!

وكيف يغفل القانونيون عن الثغرات الكثيرة فى القانون التى يهرب منها هؤلاء ؟

ألا يرى معى الحكماء أن هذا العصر فى حاجة إلى إعادة تقنين .. وإننا نواجه شكليات جديدة ومواصفات جديدة ونوعيات جديدة ماكرة من الإجرام والإفساد تحتاج

---

(١) النساء : ٨٩

إلى بنود قانونية لمواجهتها وضوابط جديدة لضبطها ؟

ألا يرون معى أن العدل بات بلا صوت وبلا أظافر وأن الشر أصبح مطلق السراح حر التجوال يحمل رخصة السلاح ومشروعية لفعل مايشاء مرة باسم الحرية .. ومرة باسم التقدم .. ومرة باسم الوطنية .. ومرة باسم الشعب .. ومرة باسم منظمة كذا وكذا.

ثم إن مايجرى على مسرح الجريمة يجرى ما هو أخطر منه وراء الكواليس حيث تخطط قلة من العقول الشيطانية لتدفع بالانحرافات إلى الذروة فى كل مجال .. فى السياسة والاقتصاد والأخلاق والعقيدة والفكر والسلوك .. لتحول الكثرة الإنسانية إلى قطيع من البهيم يسهل ركوبه وقيادته إلى أى هدف .. ونظرة سريعة إلى حال الكتاب والصحيفة والفيلم والتمثيلية والبرنامج التلفزيونى حتى الإعلانات نراها جميعاً قد خالطها التلوث فلم تعد مادة ثقافية بريئة ومفيدة .. بل أضحت برامج موجهة أحياناً فى علانية وأحيانا أكثر فى خفاء إلى ما تريده تلك القلة الشيطانية من إنحلال عام وتفسخ جماعى حيث نراها تضع فى فم الطفل والصبى والمراهق ما تريد هى أن يقول وتخلق حالات من الاستهواء العام الذى يتحرك فيه الناس مسحورين وقد غسلت أدمغتهم بهذه الجرعات المنكرة من الكلام الفارغ وأصبح كل منهم يتكلم وكأنه بوق يردد ما تملى عليه هذه الأجهزة ليل نهار .

وافتحوا أجهزة الراديو على جميع المحطات وعلى جميع البلاد واستمعوا وانصتوا وحركوا المؤشر على جميع قنوات التليفزيون وقلبوا صفحات المجلات وشاهدوا أفيشات الأفلام وتوقفوا أمام بوتيكات الديسكو وتصفحوا أخبار الصفحة الأولى واقرأو سير نجوم الشاشة الصغيرة والكبيرة فى أوروبا وأمريكا وكيف تلمع النجوم هناك وكيف تنفجر وتتلاشى العقول التى تصنع هذه الحمى والأموال التى تنفق لتظل الجماهير فى دوامة مستمرة من الانشغال الفارغ .

هذه الضوضاء الإعلامية المتواصلة التى تصنع لونا من الهستيريا الجموعية وتخلق مناخا من القلق والتوتر ترتع فيه الجريمة والمخدرات والعنف وتدفع بالشباب إلى التطرف كحل نهائى لكل شئ .

هل تلك الانحرافات مجرد مصادفات تداعت الواحدة تلو الأخرى بغير قصد أم هى بفعل فاعل ؟

هل هذا المسرح اللامعقول والعبثى حدث اتفاقا أم أن له مخرجين ومهندسى ديكور وإضاءة وملابس وكتاب سيناريو وحوار ؟

ساذج من يتصور أن ما يجرى على مسرح العالم مجرد مصادفات وأن الدولار يرتفع والذهب ينزل والبترول يهوى والفحش يشيع والإنقلابات العسكرية تتوالى فى دول أمريكا اللاتينية وفى أفريقيا والحروب الصغيرة تأكل أرزاق دول المنطقة العربية .. يحدث كل هذا صدفة واتفاقا بدون تخطيط .

صحيح أن ما يجرى فى العالم هو حاصل جميع شرور الناس وعيوبهم وسلبياتهم .. لكن تداعى سيناريو الأحداث بهذه الصورة وحدوث الفوضى بهذه الكيفية يؤكد أن هناك مخرجين من هذه الفوضى .. فالدول الفقيرة تزداد فقرا والدول الغنية تزداد غنى والكثرة الجاهلة تزداد جهلا وغباء والقلة العالمة تزداد علما وذكاء والحوادث تجرى لصالح قلة قليلة تحرك خيوط عرائس الحكومات التى تحكم هنا وهناك .

والمستفيدون دول كبرى ومن وراء تلك الدول الكبرى مؤسسات صهيونية متغلغلة فى جميع هياكل صنع القرار وفى جميع هياكل النشر والإعلام والفن والفكر وأصابعها الخفيه تقوم بتشكيل المسار المنحدر الذى يتدحرج عليه العالم ويهوى إلى غير نهاية .

وهى تعمل منذ مئات السنين فى دأب واصرار ومثابرة ومؤشرات الحوادث وحركة التاريخ قد استجابت للكثير مما خططت له فيها هى إسرائيل تصعد إلى عنفوانه وتردد إذاعة لندن كذبها أوصدقها أنها تمتلك مائة قنبلة نوويتو ويعلن ريجان أن استراتيجية أمريكا هى استراتيجية إسرائيل فى الوقت الذى تحتل فيه إسرائيل سوريا ولبنان والأردن وتبنى المستوطنات فى الضفة دون أدنى التفات إلى قرارات مجلس الأمن .

فأين نحن من كل هذا ؟

هل من عمل ولو كان الحد الأدنى من العمل .. هل من وعى لما يجرى حولنا فى الساحة » (١) .

---

(١) جريدة الأهرام ١٦ / ١ / ١٩٨٥

لقد أمسكنا فى سبعة عشر عاما ثمانمائة وواحدا وخمسين حالة كسب غير مشروع .

قدم للمحاكمة منها ثمان عشرة حالة .. ثم أدينت واحدة فقط ؟!

ومعنى ذلك : تراخى يد القانون عن الإمساك بهؤلاء المجرمين .. فعادوا إلى العصيان وهم آمنون .

وفى إمكان الدولة استحداث ما ترى من قوانين تردع هؤلاء .

روى أن أحدا من العلماء أفتى بالصيام تكفيرا عن حنث الخليفة فى يمينه .. فلما أشير على العالم بعتق رقبة .. أو إطعام عشرة مساكين كان جوابه تعبيرا عن روح الإسلام القاضية بالعقاب المانع من العودة إلى مثل الذنب : فعتق رقبة أمر يسير على الخليفة .

وإطعام المساكين جدول يومى فى قصره .. وبدون علمه !

فلو حكم العالم بذلك لما أشعر المذنب بذنبه .

ولكن صيامه نوع من التأديب المانع من الذنب !

فليقل القانون كلمته بعد أن قال الداعية كلمته .

وإن الله تعالى ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

* * *

العابدون .. المستكبرون

منشأ الكبر :

يقرر البصراء بطبائع البشر : أن الكبر إحساس يتحرك فى قلب إنسان . فيزين له أنه أفضل من غيره .

وهذا الشعور بالأفضلية يسول له أن له عليهم حقوقا ينبغى أن يؤدوها .. ثمنا لهذا التفوق المزعوم !

فإذا لم يسعفه الواقع بتحقيق ما يريد .. حدث الآتى : يحاول فرض إحترامه بالقوة ..

ولأنه يشعر بأن الناس دونه منزلة فإنه يبيح لنفسه أن يكيد لهم . ويتآمر عليهم .

ولهذا كان المستكبرون أعداء كل حركة إصلاحية ..

لماذا ؟

(أ) لأن الحركة الإصلاحية تنتزع منهم إمتيازاتهم .

(ب) ترفع الضعفاء بأخلاقهم إلى مراتب قد تكون أعلى من مراتبهم .

(جـ) ثم إنها تهدم الموازين التى يزن بها المتكبرون أقدار الناس .. فيصبحون بلا سند يبرر بقاءهم فى طليعة الصفوف .

* * *

أسوأ ألوان الكبر :

وإذا كان الكبر منازعة للحق تعالى فى صفة اختص بها سبحانه .. وإذا كان يحمل المتصف به من الناس على أن يحتقر من دونه .. إلى جانب رفضه للحق وعدم الإنصياع له .. فإن كبر العابدين يأخذ سمتا آخر . يجعله أسوأ أنواع الكبر على الإطلاق .. لماذا ؟

إن الشيطان الرجيم يوسوس للمتكبر :

إنك وحدك الطاهر .. والناس أنجاس ؟

وترتب على ذلك كما قال الفاقهون العارفون بطبائع البشر :

(أ) أن يحتقر غيره كما قلنا .

(ب) يخرج من ذل العبودية إلى مقام الوصى على العباد والبلاد ! فيحبط عمله من حيث لا يشعر .

وهكذا تكون النهاية التى أشارت إليها البداية :

فقد يحس الداعية يوماً بالعزة والأنفة .. حين يرى نفسه المرشد المربى الذى يأخذ بيد الغير إلى الخير .. وقد توسوس له نفسه بما له من حقوق على هؤلاء الذين يكمل ناقصهم .. ويقيم معوجهم ثم هم لا يطيعونه ، ولا يدينون له بالولاء .. بينما هو طبيبهم . وحاديهم على الطريق ..

وإنها لفرصة سانحة للشيطان الذى يضاعف من إحساس الأنفة فى نفسه ليتحول إلى الكبر .. ثم غضبه غضبة مضرية يصبها على هؤلاء العصاة المارقين فى تقديره .

« وفى ظل هذا المناخ الفكرى : تجد الآراء المتشددة . والمواقف المتشنجة رواجاً وإقبالا . ويعتبر أصحابها أبطالا .

وتنتشر سوق المزايدات على إرضاء جمهور المتدينين بإظهار التشدد فى ارأى ، والمتاجرة بإتخاذ مواقف التصلب .

وأكثر اناس يظنون أن الإنحراف يتمثل فى توظيف العلم فى إتباع هوى السلاطين ، ونسوا أن يضيفوا أن توظيف العلم فى إتباع الجمهور وأهواء العامة أشد خطراً من إتباع هوى السلطان . لأن الذين يتبعون السلاطين يكشفون ويرفضون .

أما الذين يتبعون أهواء الجماهير فهم فى نظرهم الأبطال الصادقون » [١] .

إنهم دعاة يحلقون على إرتفاع شاهق ..

---

(١) من بحث للدكتور يوسف القرضاوى .

وإذا كانوا يقولون فى دنيا الطيران ، إن الطيران المنخفض يحتاج إلى مزيد من اليقظة ومزيد من الوقود ، فإن اقتراب الداعية من المدعو ، وملاطفته وإلتماس الأعذار له ، فى حاجة إلى مزيد من الحكمة ، كما هو محتاج إلى نسيان حظوظ النفس ، وعدم الإحساس بالجهد المبذول .

وقد كان بعض العارفين يقول : اللهم ألهمنى حكمة أستطيع بها التمييز بين مايمكن تغييره وما لايمكن ، وأعطنى الشجاعة لأغير ما يمكن تغييره ..

ثم ألهمنى الصبر إزاء ما يستحيل تحقيقه ..

فإذا نسى الداعية حظ نفسه ، مؤثراً حق دعوته عليه ، وجه طاقته إلى الإصطلاح ، بدل أن تتبدد حسرات تطوق عنقه سلاسل وأغلال .

فلتكن صائدا ماهرا :

التأمل فى أحوال المدعوين يجعل من الغرور فى مواجهتهم ذنباً كبيراً : فبعض المدعوين لا يملك الشجاعة لمواجهة الباطل . وإعلان الحق . كما وأنه لايملك بذاءة الشاتمين اللائمين ، ولاصفاقة تحمله على مناهضتك ، بل إن بعضهم قد يناهضك بمعارضته ، ولكنه فى نفس الوقت : مخلص لمبدئه . مؤدب فى حواره لديه قابلية للإقناع .

إنه إذن على الحافة فاجذبه برفق قبل أن يقع منك فى الحفرة !

إن الحق تعالى يقول : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ (١) .

ومعنى ذلك أن معية اللّه تعالى تزايل من غرق فى الضلالة واستبحر فيها كما يفيد حرف الجر « فى الضلالة » ..

أما من كان على الحافة فلنقترب منه قبل أن يفلت من أيدينا ..

يقول المرحوم الأستاذ البهى الخولى مبينا مايجب أن يتحلى به الداعية (٢) :

« أن يترك تحدى الناس بما لدعوته من فضل . وما لمبادئها من سمو . ويترك

---

(١) مريم : ٧٥

(٢) تذكرة الدعاة ٣٠٧ / ٣٠٨

تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة إنتصارها من كيت كيت .

ليترك التحدى فى جميع صوره .

وليذكر دائماً أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها . فهل يقضيها بالتحدى ؟

أنت صائد ، والصيد أمامك تريد أن تقتنصه ، فهل تثيره وتهيجه حتى يفر منك فلا تدركه ؟

أو يكون لك شأن آخر ؟

بل إننا فوق هذا نشير باللين . عندما يظهر التحدى من غيرنا ، نشير بنسيان التحدى ونسيان كل أثر له فى النفس .

ولنذكر أن الصيد بدأ يستعد للافلات . فلنتطا من له ، فى غير ذلة طبعاً ، لنظهر له الود الهادئ ، والمسالمة الفطرية ، لا المصطنعة ، حتى يهدأ تأثيره ، ويقر فى مكانه:

إن صاحبك الذى يتحداك . ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى أن يتحداك ويغاضبك .

فهو إذن غير مريض ، ومن السهل علاجه برفق ، واقتناصه بسهولة أره مر نفسك الود . والتقدير لشخصه ورأيه ، وأشعره بحركاتك الرزينة وأشاراتك الهادئة .. أنك فى حالة طبيعية بسيطة . وأنك خالى الذهن من تحديه إياك . أو تحديك إياه .

أن يترك التفاصح والتعالم على الناس . فإن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه . أو من يتظاهر بالامتياز عليهم بشئ .

نحن مطالبون بأن نزن الناس بأخطائهم وحسناتهم فإذا رسخ فيك خلق الأنصاف ، ووزنت غيرك بصوابه . كما تزنه بأخطائه كنت أهلاً للعمل ..

يقول واحد من خلفاء المسلمين : « أنصفونا يا معشر الرعية : تريدون منا أن نسير فيكم سيرة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرة

رعية أبى بكر وعمر » [١] .

ونقول لك كالذى قال : أنصف أيها الداعية . وكن عادلا واقعياً .

فإنك تريد من القادة انجازا لعله الآن فى مثل صعوبة فتوح أبى بكر وعمر . وأنت لا تهب دعوتك ما وهبه جند أبى بكر وعمر .

تجمع الأموال . وتخشى الفقر ، وتطيل سمرك مع زوجك .

وتعطى الدعوة فضول الأوقات . ثم تريد المعجزة .. كلا كلا ! .

بل : شرط . بشرط : من أراد أميرا كأبى بكر فليكن كخالد وسعد رضى الله عنهم أجمعين .

ثم ليس أبعد من ذلك ، فإن سنة النبى ﷺ لم يطقها أبو بكر نفسه ، بل قال : «أيها الناس لوددت أن هذا كفانيه غيرى ، ولئن أخذ تمونى بسنة ﷺ ماأطيقها ، إنه كان معصوما من الشيطان وإن كان لينزل عليه الوحى من السماء » [٢] .

ولئن أخذ القادة بسنة نبينا ﷺ مايطيقونها . ولكن لنا عليهم كل الحرص على تحرى الصواب والأصلح ، وبذل المجهود فى تحرى المنافع للمؤمنين .

يقول الراشد [٣] : « الأحبة الذين نشهد لهم بالدين وصدق الحديث ، وابتذال أنفسهم فى أعمال دعوة الإسلام :

لماذا تلازمهم حتى الآن فورات الغضب وحدة الألفاظ ، ويغلفهم العناد المتحدى ؟

أليس البحث الهادى أولى ؟

أو ليس الاقتداء بزينب فى الرجوع السريع أجمل ؟

ونموذج عائشة نفسها :

ونخاطب بمناسبته المتزمت المبالغ فى تشدده الذى يظلم إخوانه ، فلا يعترف بفضل ذى

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٩/١

(٢) مسند أحمد حديث رقم ٨٠ بسند حسن .

(٣) المنطلق ١٤٣ / ١٤٤

فضل واسع إذا هفا ، والذى يظلم الدعوة ، فلا يدعها تنتفع بذى اختصاص مفيد خلط مع كفايته خصلة يعاب عليها .

إن سمت التشدد ، وطلب الصفات المتكاملة ، إنما يجب للقادة والمربين .

وأما ما دون ذلك فإن العمل الإسلامى ينتفع من كل إمكانية خير مهما ضمرت وصغرت ، ويدير فى فلكه كل متعاطف مهما أثقلته العيوب التى لا تعود بضرر على مجمل الدعاة ..

يقول سعيد بن المسيب موجزاً هذا القانون : « ليس من شريف ولا عالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس من لاينبغى أن تذكر عيوبه فمن كان فضله أكثر من نفسه وهب نقصه لفضله .

والزم أخاك فإن كل أخ ترى فله مساوئ مرة ومحاسن [1]

إن الكرام إذا صحبتهمو ستروا القبيح وأظهروا الحسنا

وما الناس إلا من مسئ ومحسن وكم من مسئ قد تلافى فأحسنا

يقول ابن القيم : « مداراة الضعفاء باللطف ، فإذا قووا شدد عليهم ، مروهم بالصلاة . واضربوهم على تركها لعشر .

كان الإسلام فى بدايته كالنطفة ، فاقتنع بكلمة التوحيد

فلما نفخ فيه الروح ، احتاج إلى الغذاء ، ففرضت الصلاة

فلما تحرك ، وجبت الهجرة

فلما اشتد ، وجبت الزكاة

فلما قربت الولادة لزم الحج

فلما ظهر طفلا حبى بلطف ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾ [2]

فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة ﴿ لاتقنطوا ﴾ [3]

---

(١) العوائق : للأستاذ محمد الراشد ١٤١ / ١٤٢

(٢) البقرة ١٨٥ (٣) الزمر : ٥٣

فلما ترعرع ، قال المؤدب : ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ [1]

فلما بلغ أشده واستوى جاء : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [2]

دعاة أم ثوار :

كان جمال الدين الأفغانى ثائراً يريد أن يغير كل شئ فى لحظة عين ، فيشعل الثورات هنا وهناك .

أما عبد الرشيد إبراهيم [3] فكان هادئاً يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويترك للأيام أن تنضج بذوره .

« ولعل جهاد عبد الرشيد وحده يؤكد انتشار الإسلام بقوته الذاتية وحدها .

وكان بعض القسس من المبشرين فى الصين ، يرى انتصارات عبدالرشيد الرائعة فيكتب إلى وزارة الخارجية فى بلاده ليسر إليها بأن المسيحية تعانى كثيراً من جهو عدو يزحف عليها بقوته .

وقد فهمت وزارة الخارجية الأمر على غير وجهه .

فبعثت تتساءل عن قوة هذا العدو ، ومدى نفوذه الحربى ، فإذا الإجابة المخزية : شيخ واحد ذو منطق وإيمان [4] .

وقد حكى محمد عبده : « أنه خلال إقامته فى باريس سنة ١٨٨٤ قال لأستا الأفغانى ذات مرة : إن اصطدامنا السياسى مع الإنجليز والفرنسيين ليس ذا فا تذكر، بينما مجال الدعوة إلى دين الله مفتوح فى أوربا وأمريكا ، فلم لا نبتعد ع السياسة ، ونشتغل بالدعوة والتعليم .

فرد عليه الأفغانى بطبيعته الثورية هذا الاقتراح قائلاً :

إنما أنت مثبط [5] . »

---

(١) النساء : ١٢٣

(٢) الفوائد ج ٣ / ٢٣٨

(٣) داعية الإسلام فى آسيا .

(٤) النهضة الإسلامية للدكتور محمد رجب البيومى ٦١ / ٦

(٥) المسلمون بين الماضى والحاضر ، وحيد الدين خان ٥١ / ٥٢

وهكذا تبدو صورة العمل الإسلامى بين مفهومين متغايرين .

مفهوم هادئ يدخل فى حسابه عامل الزمن .

ومفهوم ثورى انقلابى يريد أن يقيم الدنيا ويقعدها فى يوم وليلة .

وقد تحقق الثورة بعض المكاسب السريعة المغرية بمزيد من الثورة والمغامرة .. ولكن الحصاد فى النهاية .. لاشئ ..

وإذا جاز الانقلاب فى دنيا السياسة .. فلا يجوز فى مجال الدعوة وقد صدق القائل:

« إن الإنقلابيين حصادهم قليل . وإن بدا انجازهم أسرع وأزهى للناظرين . إنهم يرفعون أبصارهم إلى الثمار ، يريدون انتزاعها متى لا حت لهم : وذلك خشية انقضاء جيلهم دون أن يتذوقوا حلاوة الانتصار .

والحضاريون ينكبون على القيام بواجب جيلهم فى رى الشجرة العريقة وتهذيبها وتحصينها ، وهم يدركون أن الثمار متى نضجت سقطت بأيسر الجهد بين أيديهم أو أيدى أحفادهم ، وللرى وحده عندهم مذاق لا تدانيه حلاوة الثمار .

الانقلابيون يحملهم زورق مغامر إلى مراكز السلطة ، والحضاريون يساهمون من مواقعهم فى بناء المعابر الراسخة التى تفتح أبوابها لكل من تمكنه قدرته من العبور .

الانقلابيون يريدون الاطاحة بالرأس . ليحلوا محلها رأساً آخر . يكون عرضة للاطاحة به من جديد ، بينما الحضاريون يتحركون مع الدماء فى العروق حتى إذا اشتد به القلب واستقام الجسم ، استطاع أن يحمى الرأس والأعضاء جميعاً من فواتك الأمراض :

الانقلابيون يوجهون أصحاب المصالح والمطامع والنفوذ والسلطان وينزعون ذلك منهم، ليجعلوه فى خدمة رسالتهم . والحضاريون يهدفون إلى انتزاع الطمع والشح والحقد من أضلع الناس ، حتى تنشأ أجيال صالحة لحمل الراسلة التى نيطت بخير أمة أخرجت للناس .

الانقلابيون يرون أنهم هم البداية ، وقبلهم كان الظلام ، وحولهم جاهلية ونفاق ،

والحضاريون يرون أنفسهم حلقة فى تاريخ عريق ، ليسوا بدايته وليسوا نهايته ، وهم يرممون ماتصدع من البناء ، ويضيفون إليه ما تسمح به رقعة أعمارهم ، ولايرون فرقاً بينهم وبين أهل دينهم إلا فرق الجهد والبناء [١] .

عتاب المحبين :

يقول الدكتور أحمد أبو المجد [٢] :

ترى كم كا يختلف الحال وتكون صورة « الحاضر الإسلامى » لو أن « جماعات الغضب الإسلامى » كما نؤثر أن نسميها ، والتى تنتشر من أقصى الغرب إلى أدنى المشرق . قد وجهت رغبتها الهائلة فى التفسير وغضبتها العامة على أوضاع المسلمين ، وتمردها على التبعية الحضارية النفسية لغير « منهج اللّه وشريعته » إلى وجهتها الصحيحة ؟

فاشتغلت بالبناء والتعمير فى صمت وهدوء ، بدلاً من الاشتغال بالهدم والتكفير وسط ضجة هائلة وكلام كثير .

ماذا لو أخذت بأيدي المجهدين المكدودين من ملايين العرب المسلمين بدلاً من الأخذ بنواصيهم وإفراغ الجهد كله فى اتهامهم وإدانتهم وإصدار الأحكام عليهم ؟

ماذا لو اقتربت من الناس . ولم تعتزلهم وتبتعد عنهم ؟

ماذا لو قدمت الفعل على الكلمة ؟ والبحث عن حلول المشكلات القائمة بدلاً من البحث عن عورات الناس وسقطاتهم . والبحث عن مشكلات وهموم جديدة ،تضاف إلى همومهم ومشكلاتهم ؟

ماذا لو استقام لها الحد الأدنى من إدراك أولويات الأمور . وترتيب مهام الاصلاح والتغيير . فأدركت أن منع الظلم ورفع المعاناه ، وتحريك عملية الانتاج . والذود عن أرض العرب والمسلمين ، أمور مقدمة كثيراً على قضايا النقاب والحجاب . وإرسال اللحى . وضبط أطوال الثياب ؟

ماذا لو خرج دعاة هذه الجماعات من أسار الواقع المحلى الضيق الذى يحبسون

---

(١) مجلة الأمة ذو الحجة ١٤٠٦ هـ (٢) حوار لا مواجهة .

أنفسهم فيه .. إلى رحاب العالم الواسع الذى أتاح لهم العلم أن يجوسوا خلاله . وأن يعرفوا مايدور فيه ، وهم جلوس فى أماكنهم ، وقبل أن يقوموا من مقامهم هذا ؟

ولو فعلوا ذلك لرأوا بأعينهم كيف يعمل الناس هناك - فى غير بلاد المسلمين - وكيف ندور نحن حول أنفسنا متشاغلين بأفكار قديمة . وصراعات قديمة . وقضايا لم يعد لها فى ميزان العقل أو الشرع مكانة .. ولا مكان .

ولرأوا كذلك عالماً جديداً من الصراعات الهائلة بين قوى عملاقه ليس لنا بينها ولى ولا صديق .

ولأدركوا هول الفجوة التى تفصل اليوم بين أمتنا الحائرة المتعثرة وبين شعوب أخرى حولنا تقفز على طريق النمو والتقدم قفزاً . ونحن شهود تتملكنا الدهشة . ولا نزداد بها إلا حيرة وعجزاً) .



الفهرس

* * *

رقم الايداع ٢٠٥٦ / ١٩٩٢

من الذى يغيّر المنكر؟
وكيف؟

دار المنار

